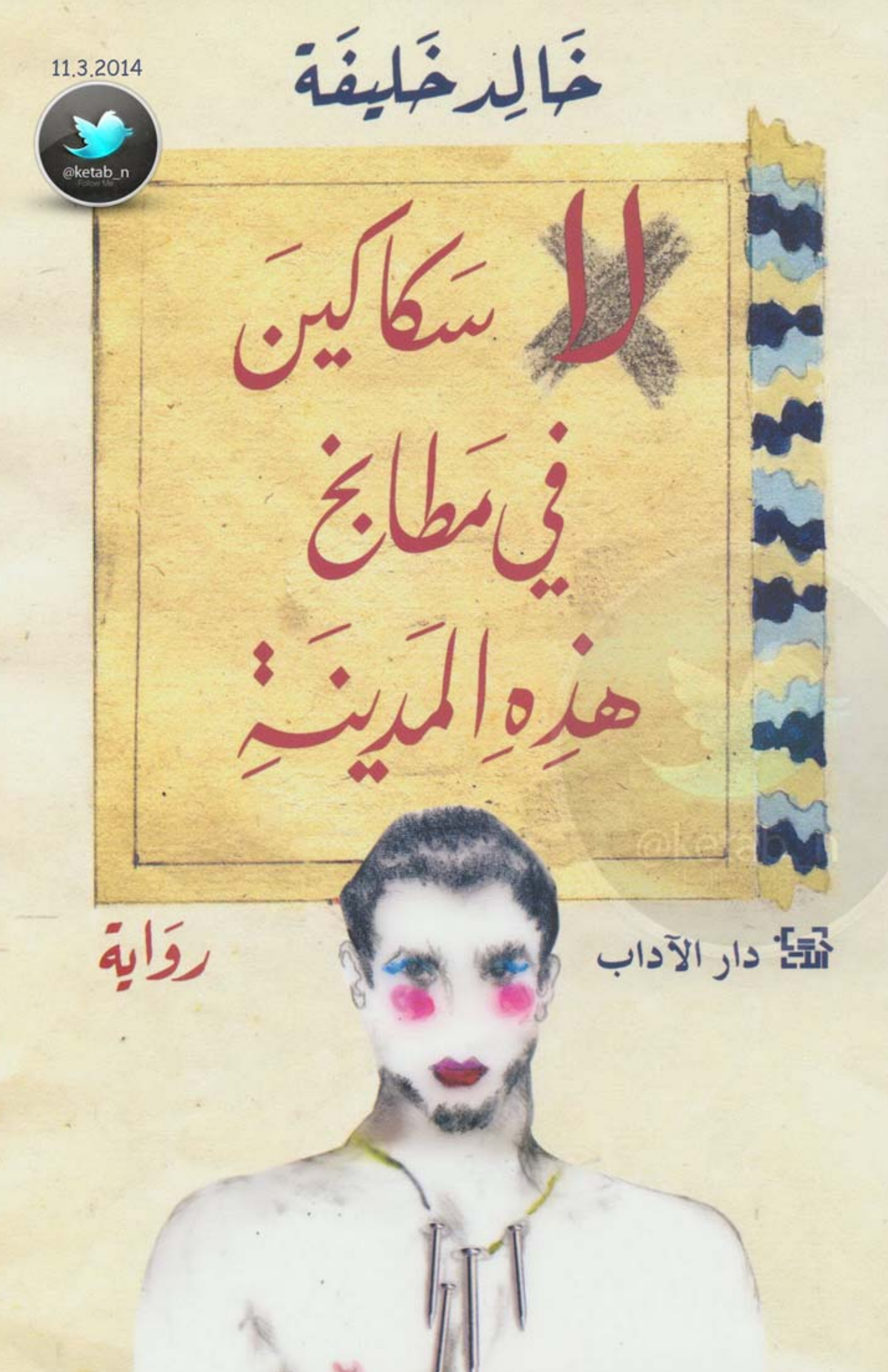

11.3.2014
@ketab_n
Follow Me
خَالِد خَليفَة
لا
سَكاكِين
في مَطابخ
هذهِ المَدينَةِ
رِوَاية
دار الآداب

خالد خليفة

لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة

رواية

دار الآداب - بيروت

لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة

لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة

خالد خليفة / روائي سوري
الطبعة الأولى عام 2013
ISBN 978-9953-89-276-4

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com




/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

الفصل الأوّل

حقول الخسّ

في طريقي إلى المنزل تذكّرت أنّ أمّي لم تبلغ الخامسة والستّين من عمرها كي تموت بهذه الطريقة المفاجئة. فرحت في سرّي واعتبرت هذا الحدث تأخّر عشر سنوات بسبب تشكّيها الدائم من نقص الأوكسيجين. أخبرني خالي نزار بأنّها نهضت بعد الظهيرة من سريرها العفن، وبدأت تكتب رسالة طويلة لكائن مجهول كنّا نظنّه عشيقًا أو صديقة قديمة تشاركها الحديث طوال الوقت عن أزمنة ماضية لم تعد تعني أحدًا، لكن أمّي في سنواتها الأخيرة أقامت فيها ولم ترغب بهجرها. لم تصدّق بأنّ الرئيس مات كأيّ كائن، رغم مراسم العزاء والحداد الوطني. التليفزيون بثّ صوره وخطاباته القديمة، استضاف مئات من الأشخاص عدّدوا خصاله، ذكروا ألقابه اللامتناهية بخشوع كبير، غصّت عيونهم بالدمع وهم يذكرون فضائل الأب القائد، قائد الحرب والسلم، حكيم العرب، الرياضي الأوّل، القاضي الأوّل والمهندس الأوّل.. ويشعرون بغصّة كبيرة لأنّهم لم يقولوا الإله الأوّل.

كانت أمّي تقول: القوّة والبطش لا يموتان، مضيفةً: دم

الضحايا لا يسمح للطاغية بالموت، إنّه باب مُوارب يزداد ضيقًا حتى يخنق القاتل. تشرُد وتنتقي كلمات مناسبة لحكاياتها الأثيرة عن الماضي، تصف بحماس ثياب رفيقاتها الأنيقة وروائحهنّ العطرة المفعمة بالأمل، تستعرض صور متظاهِرات يشبهن ثمار قطن غير مقطوف، ناصع البياض تحت شمس غاربة، تتابع مديحها للماضي، تستحضره بلذّة منتقمةً من حياتها الذليلة، تصف الشمس القديمة، تشتاق إلى رائحة التراب القديم بعد أوّل مطر، تُشعرنا أنّ كلّ شيء تغيّر فعلاً، وكم نحن بؤساء لأنّنا لم نعش ذلك الزمن الجميل، حيث الخسّ أكثر طراوة والنساء أكثر أنوثة.

تركت المسوّدات على الطاولة لأيّام، كالعادة لم نهتمّ بشأنها، كبقيّة الرسائل القديمة التي كسا الغبار حروفها المكتوبة بحبر صيني خاصّ طوال عشرين سنة أحضرَتْه من مكتبة خالي عبد المنعم في مدخل باب النصر. اعتادتْ زيارته والسؤال عن ورق مسطّر تفوح منه رائحة القرفة، اعتاد سؤالها ولم يعد يتبادل معها الذكريات عن زمن الترامواي الجميل كما كانا يسمّيان طفولتهما الشائكة وعلاقتهما المعقّدة، يناولها بصمت دستة أوراق بيضاء، يعيد لها النقود ولا يسمعها حين تطلب منه الصبر، يعود للجلوس في ركنه المظلم، محدّقًا في صورة عائليّة بهتت ألوانها ولم تفارقه، في منتصفها يقف ابنه يحيى مبتسمًا، شعره ملمّع بالزيت، يحيطه أخواه حسن وحسين بذراعيهما بحركة قويّة، واثقة ومعبّرة عن طموح أبناء العائلة بوئام دائم.

خالي عبد المنعم لم يعد يرى من الصورة سوى ابنه يحيى، الذي رآه لآخر مرّة جثّة مسجّاة في مشرحة مشفى الجامعة، محترق

الوجه ومن دون أصابع، على جسمه كدمات كابلات كهربائيّة وشقوق سكاكين متقيّحة لم تندمل بعد. اكتفى بنظرة واحدة ليتعرّف إليه، أغلق بعدها الطبيب الشرعي الصندوق الحديدي كأنّه يقوم بعمل روتيني، ولم يستمع لرجائه الحارّ بالسماح له بتلمّس وجهه. طلب منه ببرود إجراء معاملة استلام الجثّة، ودفنها دون عزاء، تحت حراسة ستّة جنود مظليّين كانوا يتجوّلون ببنادقهم ولباسهم الحربي الكامل في ممرّات المشرحة.

قبل صلاة الفجر حضر إلى المشفى مع ابنيه حسن وحسين وصديق تمّ طرده بقسوة. حملوا الجثّة إلى سيّارة دفن الموتى الفولكس فاغن القديمة، صعدوا إليها والتفّوا حول التابوت، حدّق بعضهم في عيون بعض وبكوا بصمت.

الموت يتمدّد ثقيلاً في شوارع حلب الموحشة إلى درجة لا تُطاق. وصلوا إلى مقبرة العائلة. طلب الجنود منهم حمل التابوت ليصلّي عليه شيخ كان بانتظارهم. خالي عبد المنعم هزّ رأسه كمعتوه، تمتم بكلمات قليلة لم يفهم أحد منها شيئًا، الشيخ صلّى عليه على عجل، اصطفَّ خلفه ابنا خالي، لم يرفعا نظرهما عن التابوت الذي أخرج منه الجنود كتلة لحميّة ملفوفة بكفن قذر. لم يسمحوا لهما بالتحديق في العينين المنطفئتين واحتضانه كما يليق بدفن شقيق. تحجّرت الدموع في عيونهما واكتفيا بالنظر إلى أبيهما، الذي لم يتوقّف عن البكاء بصمت والتمتمة بكلمات غامضة لم يهتمّ أحد بفكّ طلاسمها.

استيقظت أمّي من غيبوبتها الطويلة، جلست إلى طاولة الطعام المتهالكة القوائم قرب نزار الذي يصدر طنينًا ساكنًا كذبابة صمّاء،

قرأت له أسطر رسالة كتبت لرجل تصفه بالصديق العزيز: أنّ كلّ شيء قد انتهى، لم تعد تنتظر وعده لها بالرقص على أنغام التانغو على سطح باخرة عابرة للمحيطات. تخلّت عن كلمات رسائلها الماضية المشفّرة، كتبت بوضوح أنّه لا يمكن الوثوق برجال تفوح من جلودهم رائحة الجرذان. غيرَ خائفة من وقوع رسالتها بيد رقيب البريد، أعلنت في لحظةٍ شجاعةٍ أخيرة أنّ كلّ الأشياء تساوت لديها، لم يعد يعنيها الرضا، لم تفكّر للحظةٍ بأنّها امرأة ارتكبت ذنوبًا، بل كانت تفكّر بأنّ الذهاب إلى الموت بقوّة يليق بأحلامها الكبيرة التي ماتت قبلها، ولم يعد لديها ما تخفيه من هزيمتها.

في الأشهر الأخيرة، قبل موت أمّي، اعتاد نزار هذه الأمسيات، يجلس وحيدًا على كرسي خشبي قديم، يستمع إلى هذيان أخته حين تستيقظ من غيبوبتها بين وقت وآخر، تخبره عن أخيلتها بيقين كامل كأنّها تشاهد بمفردها فيلمًا سينمائيًّا غير مرئي لآخرين. ببساطة تتحدّث عن أشباح تطارد أخي رشيد، تسأله عن أحوال البلاد، وقبل أن تعود إلى صمتها تتحدّث بقوّة تدهشه وبجمل واضحة من دون توقّف ولساعات عن أسعار الخضار، وذكرى لياليها مع أبي في ذلك البيت الحجري القديم على أطراف محطّة ميدان أكبس، تضحك كأيّة امرأة طبيعيّة، تتذكّر بحسرة أنّها قدّمت القهوة لإيلينا وعلّمتها صنع مربى المشمش، يبدو مشهدهما لمن لا يعرفهما طبيعيًّا، أخوين اختارا قضاء شيخوختهما معًا في الثرثرة وقلي البزر وتصفية حساباتهما مع ماضي عائلتهما الذي لا يتركهما فيندفعان بإعادة تقييم أشخاص ماضيهما ومحاسبتهم، وحين يكتشفان أنّ الجميع قد مات أو تشرَّد منذ زمن بعيد يصمتان،

ويفكّر الاثنان أنّ الماضي رغم كلّ جماله لم يمنحهما سوى التعاسة.

في أيّامها الأخيرة كان رشيد مفقودًا، لم تعد تحتمل غيابه، تذكره في صحوتها وهذيانها، تخبرنا أنّه لم يمت وسيعود، أصمت ولا أستطيع تأليف قصص وهميّة عن غيابه، كنت مقتنعًا بأنّها عاشت ما يكفيها من الأوهام، لا حاجة لجرح إحساسها بقصّة كاذبة عن أخي المفقود، حزنت لأنّ رشيد لن ينظر إلى جسد أمّي الميتة الممدّد باستسلام، لن يبكي حرقة على ضياع كلّ أحلامنا. تمنّيت وجوده ليقاسمني لأوّل مرّة مسؤوليّة الوقوف على باب صالة العزاء التي قام خالي نزار باستئجارها ليجنّبنا إحراج نظر الناس إلى منزلنا، الذي مجرّد نظرة واحدة إليه تكفي كي يعرف الجميع نهاية أحلام عائلة.

خالي نزار طلب منّي البحث عن سوسن المرحة وإحضارها بالقوّة، انفجر بالبكاء، صوته كان حازمًا، يشبه صوت أمّي حين أخبرتنا بأنّ أبي هجرنا مع امرأة أميركيّة تكبره بثلاثين سنة تدعى إيلينا إلى نيويورك، واختفت كلّ أخباره. أضافت أنّه لم يمت لكن لا داعي لانتظاره، فَرَدَت أمامنا قطعة قماش جوخ إنجليزي، وثلاثة صقور محنّطة ومجموعة قليلة من قمصانه المخطّطة وبناطيله البالية وشارات موظّفي السكك الحديديّة وقبّعاتهم المميّزة، قالت بلهجة باردة: تستطيعون اقتسام إرثه، وحين خرجت مغلقة الباب بقوّة، سمعنا صوت نحيبها وتشمَّمْنا رائحة الكارثة المقبلة.

فكّرت بأنّني أمتلك الوقت الكافي لتصفّح ألبوم أمّي الميتة المغلّف بجلد غزال لم يبهت لونه، وحافظ على ملمسه الناعم،

واكتسب قدسيّته كقطعة وحيدة لم تتحطّم في منزلنا، أحسست براحة كبيرة. سأرى صور أختي سعاد التي لم نعرف سبب شحوب وجهها وصراخها طوال الليل كابن آوى وحيد في الجبال.

هذيان سعاد المتواصل قبل موتها بأسابيع قليلة جعلنا نفكّر بمصيرنا. أصبحت صورتنا العائليّة المعلّقة على جدار الصالون مصدر ثقل نفسي نحاول تحاشيه وكذبًا فاحشًا لا يمكن إخفاؤه، أبٌ هجرنا مع منقِّبة آثار عجوز علّمتها أمّي صنع مربى المشمش، وأخت بائسة لا نعرف لماذا تهذي، تفتح فمها محاولة التنفّس بصعوبة فائقة، نحبّها وتعتبرها أمّي عارًا شخصيًّا يجب إخفاؤه عن الجميع.

كنت أدخل عامي العاشر ولا نعرف شيئًا عن الموت والعار. سوسن هزّت سعاد من صدرها، كما كانتا تفعلان حين تتشاجران، لكنّها لم تتحرّك. انتظرت أمّي بزوغ الفجر لتحملها ملفوفة بحرام صوفي إلى المقبرة مع صديقتها ناريمان وخالي نزار. أخبرتنا مساء بأنّ سعاد لن تعود، شارحة بكلمات مقتضبة أنّ الموت يعني ذهابًا وغيابًا أبديّين، ولم تذكر شيئًا عن الإحساس حين ندفن عارنا بيدنا.

لم نصدّق غياب سعاد الحلوة. قلت لسوسن يجب أن نبحث عنها، قد تكون مختبئة في حقول الخسّ كما كانت تفعل دائمًا، أو قرب سكّة القطار القريبة تصنع من المسامير سيوفًا تلوّح بها لمسافرين غير موجودين.

حين يمرّ القطار قرب منزلنا يطلق صفّارته لحنًا شجيًّا، كانت سعاد تفتح الباب وتهرع مسرعة، تَعُدّ القاطرات مبتهجة، تخبرنا بأنّ

سائق القطار يستطيع الطيران، تؤكّد أنّها رأت أجنحته، نهزّ رؤوسنا مصدّقين ونتخيّل القطار بعد غيابه في المنعطف يطير فوق الحقول ويحلّق في السماء، وحين سألناها أين يحطّ في النهاية؟ شرحت بجدّيّةِ من كان يتوقّع هذا السؤال بأنّه لا يتوقّف عن الطيران حتى يموت. أشارت بمرح طفولي إلى جسدها الضئيل وأكملت مثلي تمامًا.

سرنا في حقول الخسّ، وصلنا إلى المقبرة، سألنا حارسها عن «منزل» سعاد، أشار إلى كومة تراب، سوسن قرعت التراب بيديها الغاضبتين، تهالكت متعبة، أمرتُها بعدم البكاء وضرورة العودة قبل هبوط الظلام. سرنا تحت المطر الغزير، دون أيّ إحساس بالندم، أخبرت رشيد أنّ سعاد كرهتنا ولن تعود أبدًا لأنّه انتزع منها قطارها الخشبي، وافقت سوسن بمرح. وفي الليلة ذاتها رأيت منامًا لم أخبره لأحد، كانت سعاد تقود قطارًا طويلاً محمّلاً بمجموعة طيور من دون أجنحة، مناقيرهم طويلة، يُنشدون لها أناشيد تستعذبها، شعرها أبيض وطويل، تنظر إلى الأمام مبتسمة، ملاكٌ لا يراه أحد.

أخبرت سوسن عن منامي وصورة سعاد المتكرّرة بشعرها الأبيض الطويل، ضحكت وقادتني إلى المقبرة مرّة ثانية، حملنا زهورًا بريّة ووقفنا قرب شاهدة لم يكتب عليها أيّ شيء، استمعت إلى صوت سوسن تخبرني بجدِّيَّة مبالغ فيها أنّ سعاد هنا لا تستطيع الضحك والتنفّس والديدان نهشتها، فهمت بعد شرحها الطويل لصورة الموت بأنّه غياب من نحبّ.

بعد سنوات طويلة رأيتها مصادفة في بار «إكسبريس»

الرخيص، ذكّرتها بشروحها الطويلة، أخبرتها أنّ الموت هو اكتمال الذكريات وليس غيابًا أبديًا، وافقتني وهزّت برأسها مخمورة، سألتني إن كنت أرى سعاد، كذبت وأخبرتها بأنّني أراها يوميًا، أطرقت برأسها حزينة، أمسكت يدي وأضافت بأنّ ثلاثين عامًا كافية للنسيان. انتبهت فجأة أنّها تستعير مفردات أمّي نفسها عن الموت وتشير مثلها بيديها ببطء وتكلّف. حزنت أنّ سوسن بدأت تشبه أمّي، كدت أسألها عن طعم التماهي مع امرأة تكرهها.

أقنعني رشيد بأنّ سوسن تكذب، لن تتذكّرني، وأضاف: ثلاثون عامًا ليست كافية لنسيان من نحبّ، أدركت بعدها بأنّ النسيان إعادة كاملة لرسم تفاصيل صغيرة مختبئة في مكان ما، لكنّها في النهاية تفاصيل نظنّها حقيقيّة، لا نصدّق أنّها وهمٌ من أوهامنا، كما بدأ يحدث لي في الفترة الأخيرة حين بدأت أستعذب السير في شارع الملك فيصل الهادئ والتفكير بأنّ حلب مكان زائل كما النسيان، كلّ ما سيبقى من صورها الحقيقيّة أكذوبة نعيد اختراعها كلّ يوم كي لا نموت.

موت سعاد جعلنا نفكّر بالهرب من الموت، نحمل أنا ورشيد أغطية أسرّتنا، نتمدّد قرب سوسن التي تلتصق بنا خائفة من شبح سعاد الذي يؤكّد رشيد أنّه يحوم حول النافذة المغلقة كلّ ليلة، يغرق في تفاصيل وصفه مستعيرًا مصطلحات السلّم الموسيقي وأسماء المعزوفات المكتوبة خصّيصًا للكمان، نبدو نحن الثلاثة هاربين من قدر محتّم ينتظرنا حين يهبط الظلام ويغرق المنزل بالسكون، تأمرنا سوسن بالصمت، نصمت ونقترب من جسدها الحارّ، تضمّنا بين ذراعيها كأنّها تستنجد بنا لتطرد خوفها أيضًا.

لا أدري لماذا قادتني قدماي بعد عشرين سنة لأزور قبرها للمرّة الأخيرة، نثرت على ترابه أزهارًا وأغصان زيتون قطفتها من حديقة منزلنا، جلست قرب القبر الصغير ساعات وبكيت. لأوّل مرّة أبكي فقدانها، عكس رشيد الذي بكى أسبوعًا بأكمله، ثم مسح دموعه منتظرًا عودتها لمقاسمته ألعابه، حرَّرني البكاء من مناماتي التي تحوّلت إلى كوابيس لا تُحتمل، تأتي فيها سعاد بصورة امرأة كبيرة تشبه رفيقات سوسن، مدهونة الوجه بأصباغ وعلب ماكياج رخيصة، وليست طفلة تسألني إن كنت أعرف أنّ الأموات يكبرون. بحثت عن حارس المقبرة لأعيد عليه السؤال نفسه إن كان يعتني بقبرها. أخبرني ببرود بأنّ المقبرة ستنتقل إلى خارج المدينة، وبقايا سعاد استلمها أخي رشيد بمحضر أصولي. أرعبتني فكرة بكائي على كومة تراب، أخبرت أمّي عن بقايا سعاد التي تسكن معنا المنزل، دُهِشَتْ لأنّني ما زلت أذكر سعاد، ولم تعلّق على عودة عارها القديم، اكتفت بالنظر إلى وجهي كرجل غريب لا تعرفه، آثار مطواة حادّة على خدّي الأيمن وثيابي تفوح برائحة عرق حامض لا تشبه ثياب ذلك الطفل الذي أمسكت كفّه يومًا بقوّة، مشيرة إلى نقاط علائم عليَّ حفظها تدلّني إلى الطريق الآمن، تشرح لي أنّ رجالاً غليظي الشوارب يتربّصون بالأطفال الصغار الغضّين كأوراق الخسّ لاغتصابهم في حقول الكرز الموحشة، تنظر إلى الأفق البعيد بأمل وتردّد ضاحكة أناشيد مدرسيّة. دخلت إلى المدرسة وجلست في غرفة المدير، قدّمت نفسها زميلة محترمة، شرحت باقتضاب أنّ أبي هاجر إلى أميركا وأنّنا سنلحق به بعد سنوات قليلة. نظراته المتفحّصة ذكّرتها بصفتها امرأة مهجورة يشتهيها كلّ الرجال.

شربت قهوتها ببرود مستعيدة قوّتها، بلهجتها المتعالية أعادت تذكير المدير بأنّها مدرّسة تحظى باحترام تلاميذها الذين حاولت تعليمهم الإصغاء إلى ذاتهم، وفي النهاية أضافت أنّها عادت إلى حلب مدينتها الحبيبة من أجل أولادها، بجمل متناقضة امتدحت الريفيين وشتمتهم. حين رأت المدير يتفهّم آلامها، أضافت: العسكر القادمون لا توحي عيونهم بالثقة. وافقها أنّ طعم الأيّام المقبلة يشبه طعم اللفت. بتقدير صافح التلميذ الذي كنتُه، مرتديًا ثوبًا مدرسيًّا نظيفًا تفوح منه رائحة عطر الليمون، في جيبي العلوي منديل مطرّز بالدانتيل، أظافري مقصوصة وشعري مثبّت بمخلوط حنّاء معطّرة. ودّعها المدير باحترام وهزّ رأسه مردّدًا من الصعب العيش دون صحافة تنتقد كلّ شيء مذكّرًا إيّاها بالبحث عن أعداد جريدة البيرق المسائيّة، وقراءة مقالاته التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة.

قادني المدير إلى صفّي عبر ممرّ طويل في مدرسة بناها مهندس فرنسي كمركز استشفاء لمرضى السلّ المتأمّلين قبل ذوبانهم كقطعة بوظة في ظهيرة قائظه، سقوفها عالية وغرفها واسعة، نوافذها تطلّ على أحواض زرع تلمع أوراق وردها الجوري تحت شمس الربيع.

استقبلني معلّمي الأوّل بترحاب بعد أن همس له المدير بكلمات قليلة، أجلسني في المقعد الأوّل قرب ولد صغير يشبهني، مددت يدي إليه وأصبحنا أصدقاء، اسمه جابر ويقطن قريبًا من منزلنا في الحارة الخلفيّة. أخبرته في الفرصة الأولى عن إخوتي واصطحبته إلى منزلنا، قاسمته ألعابي، وتعاهدنا على الأخوّة الأبديّة في مشهد أضحك سوسن التي راقبتنا نمزج دمنا، أصبحنا

أصدقاء بسهولة، نقضي أغلب وقتنا في غرفتي، نستمع باهتمام إلى رشيد يعزف لنا أغاني نحبّها.

لم أعد أستمع إلى توصيات أمّي، أسير في الطرق الترابيّة متهتّكًا، لا أخاف الرجال الشاذّين، هِمْتُ مع جابر في طرقات الحارة الضيّقة، لملمنا بقايا القطن قرب محالج عين التلّ، سرقنا أسلاك نحاس ونبشنا من المزابل زجاجات فارغة، قايضنا بضائعنا في سوق الأحد القريب بنقود قليلة تكفينا لقضاء وقت الظهر في سينما الأوبرا، نشاهد بحماس أفلام ميلودراما مصريّة وهنديّة عن عشّاق فقراء وسيمين ينتصرون في نهاية الفيلم.

أنزلق في الكرسي قرب جابر، أستمتع بالبرودة وأنفاس الروّاد القلائل في الحفلات النهاريّة، منتظرًا معبودتي نجلاء فتحي تتبختر في أثواب قصيرة تبرز مفاتنها، أقول لجابر: حين أكبر سأسافر إلى مصر وأبحث عن نجلاء فتحي وأخبرها أنّك تهديها تحيّاتك، يلكزني في خاصرتي أن أصمت، ألتفت إليه وأراه غارقًا في دموعه، شاتمًا المخرج الذي أنهى الفيلم ولم يخبرنا كيف سيتعذّب الأشرار، ويعيش أبطالنا العشّاق روعة الحبّ، نحاول إكمال الفيلم ونحن نلتهم سندويشتي فلافل من محلّ أراكس عائدين سيرًا على الأقدام إلى حارتنا، مخترقين شارع السليمانيّة الذي تفوح من محلّاته رائحة الخمور والبسطرمة. أحاول إقناع جابر بانتظار قطار المساء، يلوّح لي ويشتم القطارات ضاحكًا، أبقى وحيدًا، أضع على السكّة مسامير كبيرة، أنتظر قطار الساعة السابعة لتحوّلها دواليبه الحديديّة إلى سيوف يثقبها جابر في محلّ عمّه الطورنجي ونعلّقها في رقابنا كُزعران.

تنظر أمّي إلى السيوف المعلّقة في رقبتي، أبدو لها كمتسوّل، ثيابي قذرة وأظافري غير مقصوصة، أقرأ في عينيها ضلالي الذي سيدمّر رقي منزلنا الذي صمّمت على حمايته من ضجيج الشارع والرجال الذين تفوح من جلودهم رائحة مخلّل اللفت. لم يَطُلْ هدوء المنزل، أحاط به صراخ إخوة الرفيق فوّاز وأصوات أغنامهم والماعز التي أحضروها معهم من القرية، بنوا قنًّا كبيرًا للدجاج قبل أن يتوزّعوا الغرف الكثيرة، زوجات الإخوة الريفيّات يقضين نصف نهارهنّ في قلي الباذنجان صيفًا، ومسح مخاط أولادهنّ الكثيرين الذين يستعذبون ضرب الأرض بأقدامهم، مذكّرين الرفيق فوّاز الأخ الأكبر أنّهم على خطاه في تمجيد القائد، مساء ينشدون كجوقة أغاني الحزب وسط ضجيج ثوري ملتهب، لا يكتفون بالإنشاد بل يرفعون صوت مسجّلة تبثّ خطابات الرئيس ويهتفون له مع الجماهير، ضجيجهم يُشعر أمّي بالإحباط، ويزداد يأسها بعد اكتشافها أنّ أغلب رفيقاتها القديمات انتمين للحزب، يكتبن على صفحة دفاتر تحضيرهنّ الأولى كلمة مأثورة للرئيس القائد، ويحفظن كلّ الأغاني التي تمجّده، تنتبه لأوّل مرّة أنّهنّ أصبحن يشبهن الفقمات، يرتدين ملابس متشابهة، ويستخدمن العطور الرخيصة نفسها. انطوت على نفسها، بدأت نسج عالم خيالي تستعيد فيه صوت رفيقاتها القديمات المتظاهرات متداخلاً مع مقطوعات موسيقيّة بعيدة، تقنع نفسها أنّ العيش في حياة موازية ليس سيّئًا، تكمل: ليس بالضرورة أن تكون صديقًا لأعدائك.

حزينة تنظر إليَّ، أصبحت أشبه أبناء جيرانها، ثيابي متّسخة وشعري ملبّد، تجلسني في عتبة الحمام، تنهمك بإعادة تنظيفي،

تدلّك يدي بدهون قطن تذكّرني رائحته بفئران سقطت في مصيدة، رشيد وسوسن يمزّقان صفحات كتبي بمرح، يرمونها في سماء الغرفة لتسقط كندف ثلج كانت سوسن تحلم بالسير تحته مع حبيب رومانسي يقودها من يدها إلى جسور مدينة بعيدة ويقبّلها بهدوء أوّل المساء.

أحببنا منزلنا الجديد المبني من حجر أبيض، على بابه نقش آية قرآنيّة متداخلة الحروف، لم تعترض أمّي حين أبدى البنّاء رغبته في نقشها فوق القوس الحجري، لم تترك شيئًا للصدفة، اشترت من سوق الأحد أسرَّة نحاسيّة مستعملة طراز فرنسي كلاسيكي، أصلحت قوائمها ولمّعت زخارف نحاسها، وزّعتها في غرف نومنا واحتفظت بالسرير الكبير لغرفتها، تتقلَّب عليه طوال الليل وحيدة، مستعيدة طعم ما بقي لها من ذكريات مع أبي الذي بدت لها حكاية زواجها به وهجره فيلمًا ميلودراميًا غير قابل للتصديق، لم تستطع رؤية القسوة التي تحدّث عنها أبي مرارًا قبل مغادرته مع إيلينا الأميركيّة، إلّا حين أصبحت امرأة مهجورة تعيش مع أولادها حياة موازية مع الحزب الذي صادر ما تبقّى من حرّيّات، أوقف تراخيص الصحف ومنع صدورها، عطّل البرلمان وفرض دستورًا جديدًا يمنح الرئيس المفدّى صلاحيّات مطلقة، الذي قام فورًا بعد انقلابه باعتقال رفاقه ورئيس الجمهوريّة نور الدين الأتاسي ليموتوا في السجون بعد سنوات طويلة، احتفظ الحزب وحده بحقّ قيادة البلاد التي بدأت تتكيّف مع قانون الطوارئ والمحاكم الاستثنائيّة، الرئيس الذي لم تصدّق أمّي موته في حزيران عام ٢٠٠٠ استأثر لنفسه بكلّ المناصب الحسّاسة، من رئاسة الجمهوريّة إلى قيادة الحزب الحاكم

وقيادة الجيش، وحقّ تعيين قضاة المحكمة الدستوريّة وتسمية رئيس الحكومة وحلّ البرلمان.

عاد أبي مخمورًا، قلّب الأشياء في الغرفة، أيقظنا ولم يكترث لفزعنا، بصق على صورتنا العائليّة المعلّقة باحترام شديد، سأل ما معنى أن نكرّر اللحظات نفسها في المكان نفسه، تشكّى من اختناق يضغط على رقبته، كان ساخطًا على محطّة القطارات والحزب ومخبريه، لم يهدأ رغم القهوة الثقيلة التي قدّمتها له أمّي، أقنعته بالخروج إلى أرض الدار حيث الهواء منعش، دلكت أصابع يديه برقّة، انتظرت أن يكمل سخطه على كلّ الأشياء، يشتم الله كعادته لرميه في محطّة مهجورة تنبعث منها رائحة الجيف وغباء موظّفي السكك الحديديّة، مردّدًا أنّه يستحقّ مكانًا أفضل لتحقيق أحلامه.

فجرًا صمت، غرق بين ذراعي أمّي، مدّدته على الفراش كطفل صغير وسمعت شخيره بعد لحظات مطمئنةً إلى كفّ أذاه هذه الليلة، أنا وسوسن ورشيد تنفّسنا الصعداء حين لم يرفس سعاد كما هي عادته، وهي تنظر إليه ككائن من عالم آخر، تبكي كلّما اقترب منها، تهرع إلى سوسن وتدسّ رأسها في صدرها الحنون الذي ضمّنا جميعًا كأمّ صغيرة لم نستطع يومًا نسيان رائحته.

حملت أمّي ماكينتها القديمة من بيت جدّي كجزء من إرثها، من قماش رخيص صنعت شراشف ملوّنة وأغطية مخدّات، بنقود قليلة خلقت عالمنا الساحر الجديد، تقضي أوقاتًا طويلة مع صديقتها ناريمان سراج الدين تبحثان في سوق المدينة عن شيء مهمل تساوم، كأيّة امرأة فقيرة، على سعره وتعيد له الحياة بيديها

الساحرتين، قناديل مملوكيّة قديمة لم ينتبه أصحابها إلى روعة زخارفها، كومودينة إيطاليّة محفور على واجهتها ثعبان حزين وامرأة عارية تشبه نساء لوحات عصر النهضة، طقم كنبات ماركة لويس السادس عشر لغرفة الضيوف أعادت تنجيده بأغطية محزّزة، وفي غرفة المعيشة طقم كنبات مريحة التقطته من محلّ بيع «تصافي» وأشياء مستعملة في باب النصر، مسانده من خشب الجوز، وقّع صانعه على الصوفا بأحرف أولى، ادّعت أمام زائراتها أنّه مصمّم إيطالي شهير، وقفت أمامه طويلاً حالمة بألوانه الجديدة واستلقائها عليه في ليالي شتائيّة طويلة غزيرة الأمطار، قربها مدفأة حطب، رائحة عطرها تجذب رجلاً تغيب ملامحه عنها ولا يعرفه أحد سواها، بغنج تفرد له أسرار أنوثتها، وتفكّر بأنّ المرأة الممدّدة على أريكة وسط الظلال قرب مدفأة حطب أيقونةٌ مدهشة مَن يوغل في أنوثتها مرّة يحتاج عمرًا بأكمله ليعيد تركيب طعم لذّتها.

كانت تحبّ إحساس الآخرين بالرضا عن عملها، يضايقها تجاهل أفكارها وعدم مجاملتها بكلمة. حبّ المديح إحساس قديم رافقها طيلة حياتها كما بضعة أشياء يمنحها امتلاكها سعادة لا توصف، اكتملت بقدرتها على هجر ميدان أكبس والعودة إلى مدينتها المحبّبة. تأمرنا بالسير على رؤوس أصابعنا بصمت كي لا نزعج الصمت، تتمدّد على الصوفا مساء، تحتسي الشاي وتشرد طويلاً في الأفق البعيد كامرأة حالمة، تتذكّر فجأة أنّها وحيدة فتدمع عيناها بصمت، تكفكف دموعها وتنهض إلى خزانتها، تنتقي أثواب نوم قديمة، ملوّثة بذكرياتها مع أبي الذي لم تسامحه على هجرانه. لم تأت على ذكره أمامنا إلّا في سنواتها الأخيرة، بدأت تشتمه

بكلمات قاسية لأنّه اختار خلاصًا فرديًّا للهرب.

يحمل لها نزار الرقيق كاسيتات موسيقيين مغمورين من عصر النهضة، يستمعان إلى الموسيقى ويتحدّثان بتكلّف وبطء، ينتظر سؤالاً لا تسأله فيخبرها عن رغبته بالرحيل إلى باريس، مُعيدًا على أسماعها قصّة أحلامهما المشتركة في التسكّع في حواري المونمارت، التي من كثرة ما لملما خرائط وصورًا لرسّاميها الفقراء، عرفوا كلّ تفاصيلها ومداخلها وعاشوا حياة متخيَّلة كاملة في أحيائها.

طلبت من نزار تعليمنا العزف على الكمان حين انتبهت أنّنا نخبط الأرض بأقدامنا بقوّة، وننشد بعفويّة أناشيد مدرسيّة تمجّد الحزب والقائد، اشترت كمانًا وبدأ نزار دروسه، تحمّست أمّي لمشهدنا مرتدين ملابسنا النظيفة، جالسين على كراسي خيزران نردّد أسماء العلامات الموسيقيّة، في تلك الصورة أصبحنا أقرب إلى عائلة مثاليّة قرّرتها بينها وبين نفسها، رسمت في أحلام يقظتها صور مستقبلنا كما تتشهّاه، أطبّاء أو مهندسين مشهورين ومهذّبين، نستمع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة، نرتدي ربطات عنق غالية وأحذية فاخرة، نتحلّق كلّ يوم جمعة حول طاولة طعام تترأسها وتطمئنّ على أحفادها.

لم يصمد في دروس الموسيقى سوى رشيد. بسهولة عزَفَ بعد خمسة أشهر بعض التمارين الصعبة، أنا وسوسن هربنا من الدروس بحجّة «مرض الساعة الخامسة»، تتحدّث سوسن بجدِّيّة أنّه كلّما اقتربت الساعة من الخامسة مساء تصاب بشلل تامّ ودوخة لا تنتهي إلّا بعد انتهاء درس الموسيقى، تبقى في غرفتها تعتني بسعاد، ترسم

لها ألسنة رجال ممدودة، بيوتًا لا تغرب الشمس عنها وأغنامًا وأحصنة رؤيتها ترعب أمّي، تشبّثنا برائحة ميدان أكبس كارثتها المحقّقة، كلّما هربت منه وحاولت طمسه يمدّ لسانه ساخرًا منها، تمزّق لوحات سوسن، التي تغضب وتتركنا لقضاء وقتها مع سعاد في غرفتها الصغيرة تحت الدرج، تحاول الهرب من رائحة الموت، تخبرنا أنّ سعاد ستتحوّل إلى كلبة لا تنبح ولا تعضّ أحدًا، أصبح وجهها يشبه حيوانًا لا تعرف اسمه، تردّد، سنجاب أو جرو هرم، كلّ ليلة نطمئن إلى غرق سعاد في نوم شبه دائم تحت تأثير حبوب «فوستان» تذيبها أمّي في كأس شاي وحيدة تقدّمها لها كلّما استيقظت فجأة، لم تعد تؤثّر فيها الحبوب المنوّمة، تتناولها محدّقة في فضاء الغرفة الضيّقة شبه مخدّرة، تطلق أصوات أرنب رمادي ضعيف وضائع في الصحراء.

أخرج من غرفتي، رشيد يعيد تمارينه بجدِّيّة، تضحك سوسن، تسرق له الكمنجة وتخفيها بين ثيابها، تعتقد أنّ عدم أخذ الأمور بجدِّيّة يمنحنا متعة اللعب. تخبرني أنّ جدِّيّة رشيد المفرطة ستحوّله إلى شخص معقّد لا يمكن الوثوق به في إخفاء الأسرار، أتركها وأقطع الصالون لأنسلّ خلسة إلى الشوارع، أسير على رؤوس أصابعي كي لا تنتبه أمّي الجالسة إلى مرسم صغير في زاوية غرفة المعيشة، ترسم بألوان مائيّة مناظر طبيعيّة تحملها إلى محلّ براويز في المنشيّة، تكسب نقودًا قليلة تنفقها على أدوية سعاد التي لا تموت. أخرج مع رفاقي الذين تمنعهم أمّي من زيارتي في المنزل كي لا يلوّثوا قماش الكنبات، أشتم صمت منزلنا المريب وهوس أمّي بتعقيم كلّ شيء، الأواني وكؤوس الشاي، الممرّات والأسرّة

والمخدّات، الثياب والأحذية في رحلة شكّ لا تنتهي بأنّ كلّ شيء في الخارج ملوّثٌ.

اشتكت أمّي لناريمان، وافقتها ناريمان أنّ السير في الشوارع أصبح مرعبًا وروائح الريفيين تعبق في الجوّ وتفسد هواء مدينتهما، أضافت أنّ أغلب زميلاتهنّ الحزبيّات يكتبن في تقاريرهنّ أنّنا بورجوازيّات تفوح منّا روائح الرجعيّة ومتعاليات أيضًا، قالت ناريمان بيأس شديد إنّها ستهاجر إلى كندا، صمتت أمّي كي لا تشجّع ناريمان على تعداد فضائل الهرب والخوف، تشعر الاثنتان أنّ مصيرهما يسير إلى مجهول، تحسّسته أمّي يوم ولدتني في أسبوع انقلاب الحزب نفسه، ظنّت توقيت ولادتي ـ رغم عدم تطابقه التامّ مع يوم انقلاب الحزب ـ خطأً، توقيتًا ستنتهي ذكراه قريبًا كما انتهى الكثير من الانقلابات العسكريّة في سوريا.

عاد إليها الإحساس أنّ حياتها مجموعة أخطاء لا يمكن إصلاحها، صمّمت أن لا تلدني كفلّاحات ميدان أكبس، حين يأتيهنّ الطلق يتمدّدن بهدوء في حقول الرمّان ويلدن، بمساعدة رفيقاتهنّ يقطعن حبل الصرّة بسكّين متثلّمة أو حجر، ويكملن أحاديثهنّ عن مواعيد الحصاد القريبة. لم تسمح لقابلة القرية بلمسها بعد تشاؤمها من ولادة سعاد، ردّدت طويلاً أنّ القابلة سبب إعاقتها.

حين اقترب طلقُها، حملت صرّة نظيفة مطرّزة بزهور صفراء، ذهبت إلى المشفى الوطني في حلب، باعت إسوارتها الذهبيّة ودفعت رشى للممرّضات كي يعطينها غرفة منفردة، الممرّضات حاولن تلبية رغبتها بتعقيم الأدوات الطبّيّة أكثر من مرّة، وتغيير

الشراشف بأخرى نظيفة في اليوم أكثر من مرّة. بعد أيّام قليلة ضجرن من طلباتها رغم المبالغ السخيّة التي قدّمتها كرشى، وتعاطفن معها حين رأين وجهي الضعيف وإيماءتي لهنّ بيدي الصغيرة، بينما شوارع حلب فارغة بعد وصول أخبار الانقلاب واستيلاء ضبّاط حزب البعث على مبنى الأركان ومبنى الإذاعة والتليفزيون وبثّ البيان رقم واحد.

نهضت أمّي من سريرها، رأت من النافذة الشوارع فارغة تمامًا، اعتبرت الانقلاب وعودة العسكر إلى السلطة فألاً سيّئًا لطفل ولد منذ أيّام قليلة، في عينيه اصفرار قريب إلى قشور الليمون الجافّة. بعد ساعات من البيان رقم واحد اقتحم الجنود الممرّات، الفوضى عمّت غرف المشفى، فُقدت الأدوات الطبّيّة من غرف العمليّات، أُفرغت مخازن المؤونة، وأصبح المكان خربة تلتهم بغال العربات المتوقّفة أمام باب سوق المدينة حشائش حدائقه. نهضت أمّي رغم آلامها، بحثت عن نقطة حليب مغلي للطفل الذي كنتُه بعد جفاف ثدييها، ترجو الممرِّضات اللواتي ينظرن إليها باستغراب شديد لبقائها في هذا المكان وتصميمها على عدم مغادرته قبل الاطمئنان إلى أنّني سأعيش، يتهامسن عليها كأنّها قادمة من زمن آخر ويضحكن. في اليوم التالي طلبن منها المغادرة ولم يسمعن أيّ عذر، حملن صررها التي تكاثرت، وضعن أشياءها في الممرّ ولم يمنحنها الوقت الكافي لخروج هادئ، قالوا أُعلن قانون الطوارئ والمدير الجديد الحزبي يريد المشفى خاليًا من المرضى تحسّبًا لأيّ طارئ.

تهذي أمّي بكلمات بذيئة، تمسك بيد أبي، تتسرّب حرارة كفّه

إلى قلبها، اكتفت بتذكيره أنّ الموت أفضل من العيش تحت إمرة ضبّاط ريفيّين حمقى لا يفرّقون بين عطور السوسن ورائحة اليقطين. اعتبر حديثها عن الريفيين باستخفاف دائم إهانة كبيرة لأسرته التي أيّدت الانقلاب منذ لحظته الأولى. في الليالي اللاحقة لم يعودا للخلاف حول توصيف ما حدث بالثورة أم بالانقلاب العسكري. استعاد أبي روائح زوجته التي يحبّها، امرأة حالمة بشعر طويل ناعم وعينين سوداوين كبيرتين، وجه أبيض مستطيل يشي بترفّع ابنة مدينة أرستقراطيّة.

حبّ منذ اللحظة الأولى كان أبي يصف قصّتهما، أحبّ صورتها الأولى حين رآها مصادفة في عشاء مؤسّسة السكك الحديديّة السنوي، التي عُيّن فيها موظّفًا في محطّة ميدان أكبس بعد تخرّجه من معهد هندسة الكهرباء. كان العشاء مخصّصًا لتكريم العمّال الأوائل الذين كان جدّي جلال النابلسي من أوائلهم، رفيق المسيو هنري سوردان، ومن القليلين المتبقّين على قيد الحياة الذي يستطيع روْي سيرة إنشاء الخطوط الحديديّة السوريّة، وبطولات رفاقه الذين شقّوا الأنفاق في جبال راجو ليعبر الخطّ الألماني أواخر الثلاثينيّات. كان الاحتفال أنيقًا يتبختر فيه العمّال المكرّمون ببدلاتهم الرسميّة، أفراد عائلاتهم الفخورة بهم يتبادلون النظرات والابتسامات الرقيقة. تحدّث جدّي جلال النابلسي الذي كان يدخل عامه السبعين بصوت خاشع ومتأثّر عن رفاقه القدامى، ترحّم على أغلبهم وأسهب في مديح المسيو هنري الذي ترك باريس وعشق حلب، استقرّ في حيّ الجديدة قبل أن يُعدم وتتّهمه السلطات الفرنسيّة المحتلّة لسوريا بعمالته للألمان، دمعت عيناه أكثر من

مرّة، روى أكثر من قصّة عن مشروع حفر النفق الألماني في جبال راجو، صفّقت له أسرته الفخورة بصورته مع المسيو هنري المركونة على كومودينة الصالون منذ خمسين عامًا دون أن تتحرّك من مكانها. خالاي نزار وعبد المنعم وخالتي ابتهال وأمّي أصغرهم صفّقوا بحرارة، نهضت أمّي كفراشة واصطحبت جدّي من ذراعه إلى المنصّة، صافح الوزير الذي علّق على صدره شعار مؤسّسة السكك الحديديّة، ومنحه شهادة ورقيّة موقّعة بحبر أخضر ومكافأة ماليّة. اصطفّ المكرّمون، التقطوا صورة تذكاريّة مع الوزير الذي كان ودودًا يحاول العناية بالجميع ومصافحة أسرهم. زهير من مكانه ينظر إلى أمّي بشغف وبأدب موظّف جديد، التقطت نظراته معجبًا من جملة معجبين تقاطروا للسلام عليها بأدب وتقديم أنفسهم وأسماء عائلاتهم، كانت تحلّق كحمامة في السماء، تعود إلى نظرات زهير، جذبتها عيناه الجريئتان وسمرة وجهه وشاربه المعتنى به، صورة كلاسيكيّة لموظّف طموح من زمن الستّينيّات كلّ ما فيه يوحي بالثقة.

سألها زهير عن اسم مدرستها في غفلة من عائلتها، لم تمانع باحتفاظه بكفّها للحظات، تسرّب خلالها دفء غريب وقوي من يديه إلى قلبها، أخبرته بلطف شديد أنّها طالبة في مدرسة المحبّة، رأته يقتنص فرصة ليلوّح لها بمنديله قبل أن يغادر الحفلة.

راودتها أطياف وجهه وتنهّدت، لم تتوقّع أن تجده منتظرًا في اليوم التالي أمام باب مدرستها، لاحقها كمراهق، تتدلّل مع رفيقاتها في أزقّة الجميليّة، تنظر خلسة إلى الخلف، قدّرت أنّه ينتظر بقاءها وحيدة لُيكلّمها، تضرّجت وجنتاها بخجل ودمها

تصاعد إلى رأسها، مرتجفة من لذّة تشعر بها لأوّل مرّة في حياتها، خائفة أن تنتبه ناريمان صديقة عمرها وجارتها في المنزل المقابل، تؤنّبها كعادتها حين تتشارك مع زميلاتها التعليق حول الشباب الوسيمين، أقدار الاثنتين ارتبطت للأبد كصديقتين وجارتين، وفيما بعد كامرأتين تتشكّيان طوال الوقت، وتتشاركان حديثًا مفضّلاً بصوت هامس ومفردات غامضة عن تحوّل مدينتهما الرائعة إلى خربة تفوح منها رائحة العسكر والرفاق الحزبيين.

في اليوم التالي انتظرها، وفي اليوم السابع انتظرها كعادته، وفي اليوم الثامن والأيّام التالية انتظرته ولم يأت، لم تعد للالتفات إلى الخلف، كرهت ناريمان، لا تعرف أين تبحث عنه، تشرد أثناء جلوسها إلى مائدة الطعام، فراغ تسلّل إلى عمودها الفقري وبردت ركبتاها، بحثت في صور الحفلة، دقّقت في جميع المحيطين بأبيها، لم تجد صورة له، خافت أن تمحى صورته من ذاكرتها، استعادت دفء أصابعه حين صافحها بترفّع أحبّته، تهرب من ناريمان وتذهب إلى سوق التلل وحيدة، تنخرط في زحامه وتبحث عن وجهه، تنتقي من البسطات الشعبيّة صور مطربين يشبههم، تحدّق في مقاهي الرجال بوقاحة وتستعرض وجوه الزبائن المحدّقة في الفراغ، تحتمل كلمات رجال يخرجون من المقهى يلاحقونها، يظّنونها فتاة تطلب زبونًا، تبحث عنه في كلّ الأمكنة المحتملة، وحين يهطل المطر تكتئب، تدخل إلى غرفة خالي نزار، تجلس قربه كقطّة أليفة وهو يتمرّن على عزف مقطوعات فيفالدي المكتوبة للكمان، تغرق في صمتها، ينهي تدريبه وتخبره أنّها لم تجده، يهزّ برأسه متعاطفًا مع آلامها، يسمع الاثنان صوت الباب ووقع أقدام

عبد المنعم، يحمل نزار كمانه ونوطه ويخرج إلى المطبخ لإكمال تمرينه، تاركًا الغرفة لأخيه عبد المنعم الذي يصفه بالبقّة، لا يترك فرصة لإهانته دون اقتناص.

يتواطأ نزار مع أمّي ويخرجان مساءً، يسيران في شوارع محطّة بغداد الهادئة، يتناولان البوظة ويعودان إلى المنزل صامتين، يترك لها حرِّيّة النظر في وجوه العابرين في بحث يائس عن رجل أحسّت بصعوبة نسيانه. من أجلها يعزف نزار مقطوعات حزينة وهي جالسة إلى طاولة المطبخ وأمامها الكتاب مفتوح على صفحة لا تتغيّر، واضعة يدها على خدّها كممثّلة سينمائيّة في أفلام رومانس مصريّة سادت في الخمسينيّات.

لنزار أصابع من حرير، روح هائمة بعيدًا عن عوالم الأرض التي لا يستطيع احتمال قسوتها، يخبرها ضاحكًا أنّه سيعيش في القمر، يندسّ قربها في السرير ويبكي بصمت، لا أحد يعرف لماذا يبكي نزار، يسرق ملابسها الداخليّة، يرتديها أمام المرآة ثم يعيدها إلى مكانها، تتجاهل الأمر وتُعيد ترتيب شلحاتها الحريريّة وقمصان نومها، لا تخبر أحدًا عن ولعه بثياب النساء. يتابع الاثنان أحاديثهما السرِّيّة الطويلة بحرِّيّة عن عوالم الفتيات، يصف نزار روعة الحرير الناعم على جسده، يتحسّس جواربها المخرَّمة بحسرة، تحتضنه بتأثّر وخوف وتدرك بأنّه سيقضي عمره بائسًا وحزينًا برجولة مفقودة، ترجوه أن لا يذهب مع مثليي باب الفرج إلى غرفهم المعتمة، يهزّ رأسه ويتابع البحث معها عن أيّ أثر لزهير.

بعد تسعة أشهر مَن لقائهما الأوّل، رأته في تراماواي الجميليّة،

هرعت مسرعة ولحقت به، سارت قرب الترامواي، لم تكترث لنظرات الركّاب المتفحّصة رجلاً يمدّ يده ليلامس أصابع امرأة تلحق ترامواي. نزل في المحطّة التالية وعاد إليها، التقيا في منتصف الطريق قرب مدرسة الفاروق خائفة أن تفقده مرّة أخرى، كان جسدها يختلج وقلبها يدقّ بقوّة، نظرت إليه وعاد إليها خفرها، في كافتيريا قريبة جلسا متقابلين ولم تجبه إن كانت قد بحثت عنه، نظر إلى وجهها طويلاً وأخبرها بأسف أنّه خطب ابنة عمّه في العنّابيّة، لكنّه يحبّها ولا تفارقه صورتها، أخرج من جزدانه صورتها، التقطها له المصوّر سرًّا مقابل مبلغ كبير، نظرت إلى صورتها مليًّا، أحسّت بضيق يخنقها، جفّ صوتها، طلبت منه بصوت ضعيف أن يتركا المكان، خرجا إلى الهواء الطلق، سارا في الحديقة العامّة، وعلى كرسي منعزل قبّلها، كلّ ما فيها تحوّل في لحظة إلى وهج لن ينطفئ، فكّرت أن تعترف بأنّها بحثت عنه في كلّ مكان، بكت من أجله على صدر نزار، نهضت كمومياء صامتة. تركته وحيدًا وسارت مسرعة هاربة، الشيء الوحيد الذي قالته إنّها أصبحت طالبة في معهد إعداد المعلّمين، ارتاحت حين دلّته إلى طريقها، فكّرت بتجلّيات الحبّ، قُبلته الخاطفة، رائحته التي تشمَّمَتْها بهدوء فيما بعد حين ذهبت معه دون اعتراض إلى منزل استعاره من صديقه خصّيصًا للقاءاتهما، بهدوء فكّ أزرار ثوبها الأزرق القصير، غرق في روعة بياضها، حملها إلى السرير عارية إلّا من ملابسها الداخليّة، أخبرته أنّها لا تريد فقدان عذريّتها، قبَّلها بهدوء من يمتلك وقتًا طويلاً، قبل طفح نهديها ولامس الحلمة النابقة كحبّة كرز، بطنها وأصابع قدميها، حين انحنت لتلتقط ثوبها كست ظلال المساء وجهها بألوان يقين لا تستطيع فقدانه، أخبرها

همسًا أنّه لا يستطيع العيش بعيدًا عنها.

كلّ شيء تمّ بهدوء، خالتي ابتهال المولعة بتقاليد الحياة العثمانيّة غضبت من قبول أمّي الزواج برجل ريفي، أهله ما زالوا يتقاسمون غرف نومهم مع الأغنام، ناريمان لم تصدّق أنّ صديقة عمرها ستعيش في منزل ريفي مهمل، تتدلّى العناكب من زواياه مع أكراد ميدان أكبس وموظّفينَ تافهين مرميّين على الحدود التركيّة، وحده خالي عبد المنعم تحمّس للتخلّص منها، خاصّة بعد اشتباكاتهما الأخيرة دفاعًا عن نزار، الذي افتقدها، كتب لها رسائل طويلة كما لو كانت متمدّدة قربه في السرير، يحدّثها عن بحثه في محلّات العزيزيّة عن كريمات مطرِّية لجسده، وإعجابه بماركات العطور النسائيّة الجديدة، يسهب في شرح آلام لا تفارقه، وحين يصل إلى صديقه الذي دعاه إلى سريره في الشتاء الماضي، يتوقّف عن الكتابة ويمحو الكلمات، يتابع تشكّيه الدائم من إهانة عبد المنعم بوصفه جهرًا بالمنيك الذي سيلوّث شرف العائلة بالعار، وتحريضه لجدّي على قتله أو التنكّر له أمام الله والناس.

يكتب نزار رسائل ولا يرسلها، يجمعها في صندوق، وقبل أن تنهي زيارتها يعطيها رزمة ظروف ملوّنة، تضعها في حقيبتها، تقرأها بتمهّل بعد خروج أبي إلى عمله، تُعيد قراءتها وتفكّر بمصيرها كامرأة مرميّة في عراء، عواء الكلاب فيه يذكّرها بموت أحلامها القديمة، حاولت إقناع أبي بالعودة إلى حلب، ذكّرها بقبولها شرطه الوحيد بالعيش معه في ميدان أكبس القريبة من العنّابيّة. تصمت وتشرد قرب النافذة، تعود لخياطة أثواب سعاد التي ستلدها بعد أشهر قليلة، كانت تريد ولادة أبنائها في مشفى نظيف، تفوح من

شراشفه رائحة المعقّمات، ممرّضاته راهبات يسرن على رؤوس أصابعهنّ ويهمسن بلغة فرنسيّة، حين تمرُّ بمشفى فريشو تنظر إلى حدائقه الخارجيّة التي تظلّلها أشجار صنوبر عالية ومسابك ورود حمراء وبيضاء وبنفسجيّة اللون، تتأمّل واجهته الحجريّة المنحوتة بمهارة، يبدو لها مكانًا مهيبًا ومطمئنًا، تتحسّر على قدرٍ قادها إلى خرائب ميدان أكبس، عائلة زوجها القاسية اعتبرتها سببًا أساسيًّا لشقّ صفوف العائلة، بعدما أخبرهم زهير أنّه لن يتزوّج ابنة عمّه، رمى بالمحابس في وجه أخيه الكبير غير مكترث بتحذيراته بأنّ قراره المتهوّر سيشقّ صفوف العائلة، دفعت أمّي أثمانًا لمعارك لا يد لها فيها، سُميت بالغريبة وقاطعها جميع أفراد العائلة، لم نر أعمامنا ولم نكترث بهم بعد هجر أبي وسفره إلى أميركا.

في السنة الثانية لزواجهما لم يعد أبي يلتصق بها طوال الوقت ويغازلها، أحسّت بالوحشة. تعود من مدرستها، تجلس على الأرض كقرويّة أمام باب منزلها، تتأمّل البشر والحيوانات والأطفال متروكين عراة وحفاة في شوارع قفرة، تسأل عن سرّ تشبّثها بالعيش في مكان تكرهه، تفكّر بأنّ حبّها الطائش قادها إلى الموافقة على كلّ شروط أبي، تعود في زيارات قصيرة إلى منزل أهلها، تحسّ بنظرات ابتهال المتشفّية، تأمرها بالدخول فورًا إلى الحمّام كأنّها امرأة جرباء، تنبّهها إلى يديها الخشنتين وألبستها التي تصفها بقسوة وسخرية بألبسة الفلّاحات والمتشرّدين، تتحدّث بقرف عن مخاط أولادها، تحتمل احتقار ابتهال بصمت، وتغرق مع نزار بأحاديث لا تنتهي.

في السنوات الأخيرة فقدت رغبتها بالعودة إلى منزل أهلها، لم

تعد تشتاقه ولم ينتبه أحد إلى غيابها سوى نزار، أحسّت بضيق شديد، يخبرها نزار في رسائله أنّ أباهما ما زال يستيقظ صباحًا، يرتدي بذلته المخطّطة ويخرج إلى محطّة القطار، يجلس على الرصيف، منتظرًا أصدقاء قدامى لم يعودوا موجودين، منبّهًا عمّال المحطّة إلى مخالفاتهم، مذكّرًا إيّاهم بالوسام المعلّق على صدره، ضاق جميع العمّال بملاحظاته، ولم يحزنوا حين سقط تحت عجلات قطار بضائع بطيء ومات.

نزار أخبرها ببرقيّة عاجلة وصلت بعد الدفن بيومين، سافرت مع أولادها الأربعة في قطار بضائع، بكت في الطريق وتذكّرت عمرها كشريط سينمائي، لم تستطع ترتيب حلم يقظتها الطويل، سعاد المعتوهة في حضنها، أنا وسوسن ورشيد غارقون في كرسي خشبي كبير تَدَبَّره لنا زملاء أبي، أحسّت بأنّ الوقت طويل والقطار بطيء، تنبعث من عرباته رائحة جواميس وجلود معالجة بروائح كيميائيّة تثير الغثيان، دخلنا المنزل ليلاً، كان كلّ شيء باردًا واعتياديًّا، إضافة شريط أسود إلى صورة جدي تجعل موته حقيقة، كأنّ شيئًا لم يحدث، بكت بحرقة وهذت بكلمات غير مترابطة. لم يقترب أحد منها كي يطبطب على كتفها سوى خالي نزار الحنون الذي شاركها البكاء، أخبرها بجدِّيّة بعد ثلاثة أيّام أنّهم سيقتسمون الإرث، طالبها بعدم تخلّيها عن حصّتها لعبد المنعم الذي لم ينتظر الأربعين كي يبدي رغبته بشراء المنزل وتقاسم محتوياته، مبرزًا ورقة موقّعة من الأب بحرمان البنات من الإرث وبيع المنزل قطعيًّا إلى ابنيه نزار وعبد المنعم. لم تكترث، تركت كلّ شيء وراءها وعدنا جميعًا إلى ميدانْ أكبس، تلقّت كلمات عزاء متأخّرة من أبي،

وفهمت بأنّها ستكمل حياتها وحيدة حين رأته في حقل الرمّان القريب يمسك بيد إيلينا، يقبّلها في عنقها وهي تنظر إليه بشغف، لم يتأخّر ما أحسّت بحدوثه سوى ثلاثة أشهر، لم يعد لديها ما يربطها بهذا المكان، رجت خالي عبد المنعم أن يسمح لنا بالعيش في قبو المنزل لأشهر قليلة ريثما تكمل بناء منزلها.

في قبو المؤونة العفن عاشت تلك الأشهر صامتة. سمح لها خالي عبد المنعم بنقل بعض الفرش والأغطية وبعض أدوات المطبخ، لديها وقت طويل لتفكّر بالذلّ الذي عشناه في هذا القبو العفن ريثما ينتهي بناء منزلنا الجديد.

في أيّام ميدان أكبس الأخيرة، تسرّب الملل إلى حياتها. تسير ببطء شبح مريض، لا ترغب بالإجابة على أسئلة جارات قرويّات أحببن هدوءها ونظافتها، حاولن اقتحام عالمها مرّة أخرى، لم تعد ترغب بالثرثرة مع أحد، تنتظر زوجها المحاصر بكآبة وقلق لم يعد يهمّها معرفة أسبابه، يعود من عمله في المحطّة متأفّفًا ومنتقدًا كلّ ما كان مغرمًا به، طعامها اللذيذ ورائحة إبطيها ومساماتها، ثيابها الأنيقة التي لا تفوح منها روائح البصل والطبيخ، يخرج للعب الورق مع أصدقائه، ينام في منازلهم أحيانًا كثيرة، أيّام العَطل يصطحب إيلينا في مشاوير إلى ضفاف نهر عفرين لاصطياد الأسماك والتقاط صور تذكاريّة لهما يعبران فيها حقول الرمّان والزيتون ضاحكين.

أذكر وجه أبي القلق قبل رحيله، صورة أخيرة لأب لم يعد موجودًا، يخرج من فراشه ليلاً إلى أرض الدار، يدخّن سجائره ويفكّر بأنّ إيلينا فرصته الوحيدة لتغيير حياته التي شعر بأنّها توقّفت

عند هذه النقطة، موظّف يجب أن يقدّم الولاء الدائم للحزب وللرئيس القائد كي يحتفظ بكلّ هذا البؤس. لم تناقشه أمّي، لم تلحق به إلى رصيف المحطّة لترجوه أن لا يسافر كأيّة امرأة ضعيفة، قرأت الأسطر القليلة التي تركها لها قرب مخدّتها، وخرج فجرًا ليلحق بقطار الساعة الخامسة، ودّع أصدقاءه قبل أيّام، ذهب إلى مديريّة السجلّ العقاري وتنازل عن ملكيّة الأرض الصغيرة إلى أمّي كمؤخّر صداق، التقى إيلينا ظهرًا في فندق بارون، تناولا وجبة شواء في مطعم آكوب في بستان كلّ آب، وبعد ثلاثة أيّام صعدا إلى باص انطلق إلى دمشق دون عودة.

بقلب محطّم أعادت بناء عالمها، في داخلها أحسّت بالراحة إلى قرار زوجها، كان وجهها في القطار يشعُّ بالأمل، أنظر إليها وأشعر أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، بمرح تمدُّ سوسن رأسها من نافذة القطار، يتطاير شعرها الأسود في الهواء، تفتح كفّها محاولة الإمساك بالطريق، وبقرى عفرين التي ستعود إليها ذات يوم مع كاميرا «زينت» روسيّة ومصوّر أرمني أحمق يحاول تعليمها أصول التصوير الفوتوغرافي، تحبّ الأفعال الغريبة، وتروي له حكاية غريبة عن مكان تبحث عنه يشبه ديرًا مهجورًا يتناول رهبانه خصي البغال ويطبخون طعامهم بقدور فخّاريّة ببهارات هنديّة، يبحث المصوّر الأرمني معها عن أحلامها، تتحرّش به وتقوده إلى حقل ذرة على ضفّة نهر عفرين، تفتح ذراعيها للسماء ليلتقط لها صورًا في كلّ الوضعيّات، مستلقية على ضفاف النهر، واقفة قرب حصان يمسك فلّاح كردي برسنه، تركض في حقل الذرة حتى تغيب فيلحق بها، تنصب له شراك الرغبة، وعلى مدرج مسرح النبي

هوري الروماني المدمّر تركع على قدميها، بجرأة تفكّ أزرار بنطاله الجينز وتداعب عضوه بشفتيها، تتركه هائجًا ولا تمنحه شفتيها أبدًا، تصحبه بعد أيّام إلى فندق رخيص يطلّ على ساعة باب الفرج، تعده باللذة ولا تمنحه إيّاها، يتجسّس عليها الخدم وعناصر الأمن الجنائي، تترك وراءها سحب رغبات مكبوتة تستمني على صورتها كامرأة فلتانة من زمن الشهوات.

طيش سوسن أنقذ المنزل الجديد من رتابته، لم تصدّق أمّي أنّ الظلال غطّت أحلامها، نهضت من جديد، تذهب إلى مدرستها بحماس، دفتر تحضيرها مجلّد بكرتون مقوّى ملوّن، ثيابها أنيقة، تسريحة شعرها اللامع لا يستطيع تلاميذها نسيانها، امرأة حالمة ورومانسيّة دلّتهم في الكثير من الأحيان إلى ما يأسرهم، موسيقى فيفالدي وموزارت، أغاني ميراي ماتيو وصور باريس الستّينيّات التي حلمت بها ذات يوم كمكان وحيد لائق بأحلامها قبل لقائها أبي في تلك الحفلة المشؤومة.

تفكّر في المصائر المختلفة، تتذكّر في غمرة حماسها الشديد للعيش أنّها امرأة مطلّقة وليست مهجورة، متروكة على رصيف محطّة تنتظر قطارات قد لا تأتي لأيّام عديدة، يتثاءب خلالها الموظّفون ويصلون الليل بالنهار في لعب الدومينو والورق وشتم مسافرين لم يعودوا موجودين منذ زمن بعيد، أمٌّ لأربعة أطفال سعاد أكبرهم، وفتاة معتوهة منذ ولادتها تنتظر موتًا لا يأتي، جسدها ضعيف ورقبتها كرقبة صوص منتوف الشعر، أنا ثاني الأولاد أعيش شؤم تُوازِي حياتي مع الحزب ومناسباته، وسوسن الثالثة تنظر إلى أمّي باحتقار دائم، ورابعنا رشيد يعيش حياة حالمة من الصعب توصيفها.

سعاد تجذبني إليها، تسحرني ابتسامتها الرقيقة. أقول لسوسن بأنّها تريد الموت ولن تحزن أمّي على فراقها كما سنحزن نحن، تعتبرها عارها الذي سيقضي على أحلامها بعائلة تجلس بهدوء إلى مائدة طعام تغطّيها شراشف ملوّنة، قرب الصحون البيضاء فوطات تصرّ أن يربطها الجميع إلى رقابهم قبل بدء تناول طعامهم بهدوء تشبّهه سوسن بصمت القبور، توقع الصحن من يدها، تلوّث السجّادة الوحيدة التي اشتُريت بالتقسيط، تنبِّه أمّي الجميع إلى أن يسيروا على رؤوس أصابعهم، بينما موسيقى أوركسترا فيينا تصدح في أرجاء المنزل، الذي أصبح مظلمًا كقبر بعد إغلاق الرفيق فوّاز عبر سنوات النوافذ المطلّة على منزله، تاركًا لنا نافذة صغيرة أعلى الجدار يتسرّب منها روائح الخراء وأصوات الأغنام التي يربّيها في منزله، كلّ شيء في المنزل يعطي انطباعًا بعائلة أرستقراطيّة مفلسة، يرضي أمّي تعاطف الآخرين مع تاريخ ترويه بهدوء، وذكريات بعيدة عن أبيها الموظّف المرموق وصديقه المسيو هنري سوردان، تخفي سعاد عن زميلاتها اللواتي يتبادلن الدعوات بشكل دوري، يأتين إلى منزلنا بمواعيد مسبقة لا تغفر أمّي لأحد التأخّر عليها، وتمتعض من أسباب التأخير السخيفة كأيّة امرأة إنجليزيّة.

قبل قدوم ضيوفها تجمعنا، تخرج ملابس الأعياد وتعطّرنا، تعلّمنا الابتسام بهدوء والسلام بترفّع بارد، تحفِّظنا بضع كلمات فرنسيّة للترحيب بالضيوف، تخصّ رشيد بعنايتها، يحمل كمانه ويخرج إلى غرفة الضيوف، تأمره بعزف مقطوعة كلاسيكيّة وسط دهشة زميلاتها اللواتي يصفّقن له بنعومة، ينحني رشيد ويغادرهنّ بجدِّيّة موسيقي محترف يحيّي جمهوره، يذهب إلى نوبة حراسة

سعاد بدلاً من سوسن التي تكره ضيوف أمّي، تخبرهنّ عن سعاد، ولا تخفي ضيقها من روائح الكولونيا الرخيصة والابتسامات المتكلّفة ومديحهنّ الأجوف لربطة شعرها، التي تشير إليها متسائلة أهذا ما تمتدحونه؟ يهززن برؤوسهنّ، تنزعها وترمي بها ببرود في فنجان الشاي المعدّ على الطريقة الإنجليزيّة، التي تسهب أمّي في شرحها والتحدّث عن أصولها كأنّها فتاة وُلدت في ويلز وقادتها الطرق الخاطئة إلى هذا المكان الذي لا تكفّ عن التأفّف والشكوى من تخلّفه، لا ترتاح حتى تخبرها ناريمان في اليوم التالي عن آراء زميلاتهما، وتضيف كم كان الكاتو لذيذًا، والشاي رائعًا والأطفال مهذّبين ونظيفين.

في أيّام سعاد الأخيرة نسيتها أمّي تمامًا، كجرو تئنّ طوال الليل في غرفتها الصغيرة الباردة، سوسن تطيل المكوث معها، تحاول تخفيف آلامها بلمسها واحتضانها، تحكي لها حكايات خرافيّة عن أب شرّير وأمّ لامبالية، تعذّبهما ملكة الثلج بتحويلهما إلى حجرين يبكيان، تتآمر سوسن معي ونسرق لها التفّاح والعنب، نحضر لها قطار رشيد الخشبي، نزمّر لها كجوقة بصوت قطار مرح، تبتسم وتهشّ بيدها على القطار الخشبي ليتحرّك ويطير، كما كانت تخبرنا عن سائقي القطارات.

في ليلتها الأخيرة بقيت سوسن قربها. ما زالت تذكر لحظة برد جسدها، اتّكأت على الجدار ومالت نحو حضنها، اختلج جسدها للمرّة الأخيرة، خرج خيط زبد من فمها، وماتت بهدوء لم تصدّقه، كما لم تصدّق حياد أمّي كأنّ شيئًا لم يكن، عادت أمّي من المقبرة، أحرقت كلّ ما تبقّى من سعاد، أدويتها، ملابسها القليلة،

فراشها القطني وبطّانيّة تفوح منها روائح بول. لم تنتظر سوسن سنوات طويلة كي تبصق عليها بقوّة وتخبرها بأنّ العار لن يتركها وسيلحق بها إلى الأبد.

تمسح أمّي بصاق سوسن بذهول وتغرق بصمتها، بعد سنوات طويلة اكتشفنا جميعًا بأنّنا لم ننس صورة أمّ تجول في مملكتها الصغيرة باحثة عن التعاطف عبر تشكّيها الدائم من نقص الأوكسيجين، سنوات طويلة لا تفارقها صورة سوسن تبصق عليها، تنتبه لأوّل مرّة إلى شعور العار الذي يحيط بها من كلّ جانب، تشعر بالرضا حين تكتشف أنّ الكثيرين مثلها يشعرون بالعار، زميلاتها وصديقاتها والناس في الشوارع، التي تتجاهل صور الرئيس رغم ادّعاء أبديّته.

رشيد أصبح في السنوات الأخيرة صامتًا، يضع في أذنيه سدّادات قطن، يتساءل من أين أتى كلّ هذا الضجيج، يحمل كمانه ويخرج إلى تمارينه مع خالي نزار الذي استطاع جمع ستّة موسيقيّين، ألّف فرقة تعزف في النوادي الثقافيّة موسيقى كلاسيكيّة لمستمعين يعرفهم نزار واحدًا واحدًا، في الليل تعزف الفرقة نفسها في كباريه الكاسبا ألحان أغنيات صاخبة لمطربين شعبيين، يغنّون لرجال سكارى لا يراهم رشيد ويشعر بالسرور أنّه قادر على فقد حاسّة النظر أيضًا.

يتخيّل نفسه أعمى وأطرش ويضيف ما دمت أخرس كبقيّة الجموع، دون شغف يقبض أجره ويلوّح لنزار بيده، يعود سيرًا على الأقدام إلى منزل لم يعد يطيقه، الليل وقت وحيد لرؤية مدينة يحبّها هكذا مهجورة، صامتة، مظلمة، لا يرى لافتات الولاء الأبدي

للحزب والرئيس، يحاول محو ذاكرته وتذكّر أنّه بلا أمل، يحسّ بالضيق الجاثم على روحه، لا يعرف عن أيّ يقين يبحث.

ينسلّ بهدوء إلى المنزل فجرًا، يفتح باب غرفة سوسن المرحة الممدّدة على سريرها شبه عارية، يتمنّى إيقاظها والاعتراف لها بأنّه يحبّها إلى درجة الجنون، يتابع طريقه إلى غرفتنا، يغلق الستائر السميكة بهدوء كي لا يوقظني، يضع السدّادات في أذنيه، يفكّر بأنّ كلّ شيء تافه إلى درجة أنّه لا يستحقّ النقاش، يستجدي النوم الذي يفارقه دومًا، يشعر بندم كبير، ويعيد الأسئلة نفسها عن معنى وجوده في هذا المكان الذي يرشح أسى كموت لا ننتظره.

ضوء الصباح يغمر الكراسي في الصالون، تستيقظ أمّي، تقوم بجولتها اليوميّة، يغمض رشيد عينيه، لا يريد سماع صوتها، يغرق في النوم بعد عذاب مضنٍ، يشعر بجسده متقرحًا من كثرة تقلّبه، يفكّر بأنّ حياته الماضية أكذوبة، يكره صورته حين يتذكّر إعجاب رفيقات أمّي بعزفه، ورميهنّ له بالحلوى ليلتقطها ككلب مدلّل ثم يغادر، يعترف لي فيما بعد بأنّه لم يكن يحبّ تلك اللحظات، ولا يحبّ تلك الموسيقى، وما عزفه مجرّد تمارين ساذجة وبدائيّة تفوح منها رائحة الغباء، يضيف: الغباء يقوم الأذكياء بتصنيعه وإقناع الأغبياء به كي يحافظوا على مكانتهم، يفكّر بصورة القطيع التي تجتاح كلّ شيء، المسيرات، الاحتفالات، الأعراس، الموسيقى التي تعزفها فرق يبدو انسجامها أيضًا نوعًا من الغباء غير المقبول بالنسبة إليه، يقول لي إنّ القطيع أعظم اختراع لتمرير كلّ هذه الأفكار والفلسفات والأديان والفنون الساذجة.

حين أراه غارقًا في النوم، أقرأ في عينيه المغمضتين رغبة عدم

الاستيقاظ، يستمتع بصورة موته، أحسده على قدرته الهائلة على المرور بجانب تفاصيل الحياة دون انتباه أو أيّة إثارة. عاش حياة أخرى اختبر فيها مشاعر وأحاسيس مختلفة ووصل إلى النهاية. شبع من كلّ الملذّات دون أن يختبرها، لحظات قليلة تلمع عيناه بمتعة حين يرتجل مع نزار حوار الكمنجات، الاثنان يتناغمان، يفترقان، يختصمان، ثم يعودان لينشدا معًا كمزمارين في شفة واحدة.

يتشكّى لسوسن المرحة وحدته، خوفه من الضوء ورغبته بالموت. سوسن تستمع بكلّ جدِّيّة إلى قلقه، تمسح على رأسه بأصابعها الناعمة، تشعل سيجارتها وتقترح عليه الهجرة إلى كندا، تضيف بأنّها سترحل من هنا إلى أمكنةٍ تعدِّدها، ثم تقول بيأس: سأرحل إلى أيّ مكان. لم تعد تحتمل سماع صوت إخوة الرفيق فوّاز ينشدون الأغاني الممجّدة للحزب والقائد طوال الليل. تضيف بأنّها لم تعد تحتمل رؤية مذيعي الأخبار في التليفزيون الرسمي، يقرؤون النشرة الجوِّيّة كأنّهم يعلنون الحرب، يذيعون أخبار الرئيس بجدِّيّة تجعلها تفكّر بتصدير العنف الكامن بالتهديد المباشر للجمهور الذي ينفعل حين يرى حرس الشرف يتقدّم بخطًى بروتوكوليّة ثابتة أمام ضيوف الرئيس، توافق رشيد بأنّ ما يحدث الآن يشبه عفن الأقبية الذي يخطّ في بدايته لوحة رائعة، ويتمدّد العفن ليغرق الهواء ويفسد الحبال الصوتيّة ويخنق الحناجر، تفكّر كم سيمضي وقت طويل قبل أن تستعيد الحناجر الكسيرة قدرتها على الصراخ.

بعد عشرين سنة من تلك البصقة التي لم تنسها، أيقنت أمّي أنّها ما زالت تفكّر بمعاني مختلفة للعار، تجول طوال اليوم في

المنزل، فراشة حزينة تداري خيباتها المتكرّرة، جدران المنزل بقّعت وتشقّقت من الرطوبة، الدهان تقشّر وأصبح كلّ ما في المنزل لا يوحي بصورته الأولى، أحاطت به منازل كثيرة. أصبحت الحارة التي حلمت بها منعزلة عن ضجيج المدينة مكانًا للجنود الفقراء والفلّاحين المهاجرين من القرى القريبة، تفوح من مجاريها المكشوفة روائح الخراء، وعلى أبواب منازلها تجلس نساء يقطّعن البندورة العفنة لعصرها، ويتحدّثن بحرارة وأمل عن حياتهنّ المقبلة. لم يعد المكان محاطًا ببساتين الخسّ وأشجار الكرز، لم تعد روائح الربيع تعني لأمي شيئًا، وبعد إغلاق آخر نافذة تحوّل البيت إلى قبر، لم يبق من ماضيه سوى مسجِّلة قديمة ما زالت تبثّ موسيقى كلاسيكيّة لا يسمعها أحد.

سوسن تخرج غاضبة، تغيب أيّامًا طويلة، لا تبرِّر لأحد سبب غيابها، تفرد حقيبتها على سريرها الذي أصبح يصدر أصوات صرير حين تتقلّب، تخبرني أنّ زنبركاته صدئت، أنتظر أن تخبرني قصّة مغامرتها الجديدة دون خوف. تدخل إلى غرفتنا، تجلس قرب رشيد وتقلّب في كتبي الإنجليزيّة، ترميها وتشعل سيجارة مارلبورو، توقظ رشيد ونشرب القهوة بصمت، نستجدي مرحها كي تنقذنا من الكآبة المزمنة المحيطة بنا، ترجوها أمّي بكلمات رقيقة أن تعود إلى جامعتها وتنهي دراسة اللغة الفرنسيّة، تهزّ برأسها وتشتم الأساتذة الذين يرمون لها بقصاصات ورق كتبت عليها عناوين منازلهم، ينتظرونها في غرف نومهم، يُخرجون أوراق امتحاناتها، يضعون العلامة التي تريدها، ثم تضطجع ببرود وتخلع ثيابها، يضاجعونها وتشعر بغثيان وحموضة في بطنها، تتسلّل آخر الليل، مخمورة تسير

في الشوارع، تقرع باب منزل صديقتها الوحيدة سلمى، تدخل دون أن تتكلّما، تغلقان الباب، تثرثر سلمى عن زبائن جدد، تغتسل سوسن وتغرق في نوم عميق على صوفا في صالون منزل سلمى الصغير.

تعود إليها الصور القديمة، تلميذة مرحة تثير عواصف الضحك من حولها، تتواطأ مع صديقاتها، تمتدح أساتذتها ومعلّماتها. في صفّ الحادي عشر عشقت مدرّس اللغة الفرنسيّة جان عبد المسيح، كتبت له رسائل رقيقة، أخبرته عن وحشتها بعيدًا عنه، من أجله أحبّت اللغة الفرنسيّة ودخلت كلّيّة الآداب. لم تستطع احتمال تجاهلها، ذهبت إلى منزله، فتح لها الباب ولم يفاجأ بحضورها، قادها إلى الصالون، رأته غارقًا في ترجمة أعمال بلزاك مرّة جديدة، كؤوس شاي بارد تعفّنت قربه على الطاولة، منذ زمن لم ينظّف أحد المنزل الغارق في سكون غريب، كانت رسائلها على الطاولة مرتّبة بعناية ومربوطة بشريط أزرق، شربت قهوتها، رأت أمّه ممدّدة على سرير خشبي، لم تسأله لماذا لا يريدها، صدّقت القصّة التي تداولها الطلّاب عن عودته من جنيف إلى حلب كي ينتظر موت أمّه التي بقيت وحيدة بعد زواج أخته إيميلي وسفرها إلى كندا.

لم تعد تحتمل إيميلي وجودها وحيدة مع أمّها كلّ هذه السنوات، كتبت لأخيها جورج في أميركا وجان في سويسرا بأنّها أصبحت في السادسة والثلاثين من عمرها، تريد الزواج من بولس حلّاق والهجرة إلى كندا. في نهاية الرسالة كتبت بأنّها ستترك أمّها تموت جوعًا وعطشًا إذا لم يردّوا على رسائلها.

صرخة مكتومة توقّعها جان منذ سنوات طويلة، بهدوء حمل أغراضًا قليلة من منزله السويسري، استقال من عمله مترجمًا في الأمم المتّحدة، عرّج إلى منزل طليقته كوليت، أخذ صورًا مع طفله بيير واصطحبه في مشوار طويل زارا البحيرات وتناولا المثلّجات، لم يجد أحدًا يودّعه، لأوّل مرّة يشعر بأنّ مغادرته مدينة عاش فيها خمس عشرة سنة دون أن يحسّ أحد به أمر محزن، بهدوء غادر جنيف عائدًا إلى حلب، ينتظر موت أمّه الست ماري عبد النور مدرّسة الرياضيّات الشهيرة التي بدأت تدخل في غيبوبات قصيرة مع بداية عماها التدريجي، كلّ صباح تسأل جان عن موعد الانتخابات النيابيّة، لترتدي ملابسها السوداء الأنيقة، وتعطي صوتها لمرشّحها المفضّل المسيو كابرييل الشامي، تهذي قليلاً وتعود إلى صمتها، تتذكّر أنّه لا يليق بامرأة مثلها الثرثرة. سألته سوسن هل تحبّ العيش مع الجثث، بلطف أجابها أنّه سعيد بعدم خروجه من المنزل. أخذت سوسن رسائلها وخرجت، نزلت درجات الطابق الأوّل بسرعة وسارت في حيّ السليمانيّة، قرّرت ألّا تعود إلى منزله، لم تستطع نسيان أو فهم سرّ تشبّث جان بحياة ووجه أمّ شبه عمياء تنتظر الموت، لم تستطع فهم رجل يعيش في منزل مسدل الستائر تفوح منه رائحة البسطرمة والتوابل الهنديّة، وأعواد البخور تعبق رائحتها في صالون واسع لم تستطع أن ترى منه سوى طاولة عمل جان المضاءة بكلوبة قديمة.

أسرها صمته وابتسامته الرقيقة، تحاشى اصطدامه مع حزبيين حاولوا استفزازه أكثر من مرّة، لم يجد فرع الحزب معلّمي لغة فرنسيّة حزبيين بعد هجرة أغلب الأساتذة المرموقين وفصْل البقيّة

بحجّة عدم الولاء، في حملة تطهير لم تترك في المدارس والجامعات إلّا الحزبيين، تغاضوا عن وجوده، أصبح منسيًّا بين مجموعة أساتذة حزبيين، بعضهم يفاخرون قبل دخولهم الصفّ بوضع مسدّسات مكرويف روسيّة وزّعت عليهم أثناء أحداث الثمانينيّات تحت قمصانهم، يزعقون طوال اليوم بولائهم، يتفنّنون بأساليب المزاودة وادّعاء القرابة بضبّاط أجهزة الأمن.

يشعر جان بأنّه يعيش في عالم غريب، لم يصدّق وجوده يومًا، كانت تكتب له إيميلي في رسائلها عمّا يحدث في الشوارع والبيوت، عمّا يحدث في مدينته المحبّبة التي لم يعد إليها منذ خمسة عشر عامًا إلّا مرّة واحدة كانت كافية لأن يفهم ما كتبته إيميلي ذات يوم في رسالة طويلة، سردت فيها يوميّاتها ووصلت إلى نتيجة كتبتها بخطّ عريض، بأنّها تعيش في حظيرة ولم تعد ترغب بالبقاء لحظة واحدة.

تحوّل عشق سوسن إلى تعاطف قوي مع جان، نسيت وعدها بعدم زيارته مرّة أخرى، دون إرادة منها تحمل له البامية الساخنة التي تتقن أمّي طبخها كطبق مفضّل لدينا، تساعده بتعقيم جسد أمّه ووضع أغراضها القذرة في الغسّالة القديمة، يستعرضان لساعات ألبومات صور العائلة، يروي جان بصوت رقيق تاريخ كلّ صورة، يشير لأبيه عيسى عبد المسيح مدرِّس الفلسفة الذي كان يكتب بيانات مرشّحهم المسيو كابرييل الشامي، ومترجم أعمال نيتشه إلى اللغة العربيّة في الخمسينيّات والصديق الحميم لخير الدين الأسدي، يقف في كلّ صوره مرتديًا بذلات أنيقة وشعره ملمّع، وزوجته التي تتمدّد منذ خمس سنوات على سرير خشبي أبيض

منتظرة الموت تقف بقربه حاملة حقيبة جلديّة لامعة وعلى كتفها فرو ثعلب، فستانها الأسود مفتوح عند الصدر يبرز نهدين قويين وكبيرين، صورة أخرى للأب مع رفاقه أدباء حلب مجتمعين حول خير الدين الأسدي[1] في مقهى القصر، الذي لم ينقطع عيسى عبد المسيح عن زيارته صباح كلّ يوم جمعة للقاء صديقه الفنّان التشكيلي الشهير لؤي كيّالي[2]، يعود بعدها سيرًا على الأقدام، يطيل الطريق ويصعد إلى شارع بارون، يقف للحظات أمام سينما رمسيس، يسجّل مواعيد الأفلام الجديدة، يحجز بطاقتين لحفلة الساعة السادسة، ويكمل طريقه نحو باب الفرج، ليعود إلى السليمانيّة عبر شارع التلل، يشتري فستق ساخن من البائع السوداني الذي لم يغادر صمته ومكانه في المنشيّة القديمة منذ أربعين عامًا.

لسنوات طويلة يتناول غداءه مع ماري وابنته إيميلي التي تنتظر خطيبها بولس حلّاق ليصطحبها في مشوار إلى أحد المقاهي. وبعد هجرته إلى كندا خيَّرها بين اللحاق به أو الانفصال، كتب لها رسالة طويلة أخبرها في نهايتها أنّ المدن تموت كما البشر، لم يحتمل رائحة الغيتو المفروض عليه العيش فيه كخيار وحيد لا أمل بفكّ الحصار عنه، أضاف أنّه لن يكون أحمق ليأتي بولد إلى شوارع هذه المدينة القذرة، التي تحوَّلت إلى مكان للقتل. أسهب بشرح خوفه الذي يتعاظم كلّ يوم، خوفه من المظليين، من المشايخ، من

---

(١) خير الدين الأسدي: كاتب شهير وأهمّ مؤرّخ حلبي ولد عام ١٩٠٠ في حلب، وتوفي عام ١٩٧١، له ديوان «أغاني القبّة» وموسوعة حلب المقارنة في ثمانية أجزاء وهي تاريخ شامل لمدينة حلب.

(٢) لؤي كيالي: واحد من أهمّ الرسّامين السوريين على الإطلاق، ولد في حلب عام ١٩٣٤ ومات منتحرًا في ٢٦ كانون الأوّل عام ١٩٧٨ ودفن في حلب.

الكهنة والقساوسة الذين يراقبون غيابه عن الكنيسة. لم تستطع منعه من الهجرة، شعرت في الأيّام الأخيرة بغربته، بنظراته الشاردة حين يجلسان، بخوفه حين يرى مظليًّا يسير في الشوارع، خوفه من مستقبل مظلم يضطرّه كلّ يوم لإثبات ولائه للحزب والرئيس والمخابرات.

يغفو عيسى عبد المسيح في نوم ظهيرة قصير، مساءً يتأبّط ذراع زوجته ماري ليعيدا اختراق الشوارع الأليفة ذاتها، يحضران الفيلم في سينما رمسيس ويغادران إلى مطعم الستراند، يتناولان عشاءهما وكأسي نبيذ، يعودان إلى منزلهما، في توقيت ثابت يشاركهما إيّاه الكثير من أصدقائهما الذين كانوا يعتقدون بأنّ زوال سينما رمسيس مزحة ثقيلة، تقاليد نموذجيّة لطبقة وسطى طموحة، ومن بقي منهم حتى الثمانينيّات اكتفى بالجلوس على مقاعد خشبيّة في الحديقة العامّة، يراقب البطّ غير مصدّق ما حدث في مدينتهم المحبّبة التي عاشوا فيها صبابات العمر الرائعة، وكلّ ظنّهم كان أنّها ستبقى أزليّة تمنحهم البهجة كما تقول كتب التاريخ. ماري لا تريد رؤية حاضر المدينة، صمّمت على التمسّك بتلك الصورة، حين كانت تحمل لصديقها خير الدين الأسدي السجقات المقليّة ومحاشي الباذنجان المطبوخة بزيت الزيتون على الطريقة التركيّة، تجلس قريبة منه على الصوفا، ويحدّثها لساعات عن اكتشافاته في ماضي المدينة.

كانت الصور بالنسبة لجان عالمًا قديمًا توقّف منذ زمن بعيد، لا يريد رؤية حلب من جديد، أحسّ بقطيعة معها. لم يحتمل الشوارع القذرة ومسيرات حزبيين يشارك فيها مجبرًا، يسير منكّس الرأس كرجل ذليل. يفتح شفتيه ببطء حين تهتف الجموع من حوله

بأصوات عالية، يشعر بأنّه لن يكمل طريقه إلى الرصيف الآخر قبل إصابته بسكتة قلبيّة، يعود معفّر الثياب، يتذكّر مشهد زملائه المحترمين يدبكون على موسيقى أغانٍ ثوريّة تبثُّها ميكرفونات صدئة ويشعر بالعار أيضًا. يعود بعد المسيرة إلى منزله مرهقًا، يغتسل ويصنع قهوته ثقيلة، يخالف مواعيد نومه التي اعتادها في سويسرا، لأوّل مرّة يتحسّس طعم الفوضى، في الأيّام الأولى يشتكي من اختلاط العالمين المتناقضين لبعض أصدقاء طفولته الذين رحّبوا بعودته، دعوه إلى مطاعم غالية وسخروا من حساسيّته. بعد وقت قصير تباعدت لقاءاته بهم وعادت العلاقات إلى الانقطاع، اكتفى بالمناسبات التي لا يستطيع الهروب من واجباتها الثقيلة. يقوم بالواجب بأقلّ قدر ممكن من الكلمات، متخلّيًا عن الحديث عن أيّامه الأخيرة في سويسرا وامتداح ذكاء ابنه بيير، أحسّ بأنّه دخل إلى الشرنقة التي ستودي به إلى التهلكة، لم يجد أفضل من إعادة ترجمة كتب بلزاك، لم يستجب لطلب دور نشر عرضت مبالغ تافهة لترجمة أعمال فرنسيّة غير مترجمة، يريد الهرب على طريقته إلى فعل التكرار. وصف ترجمة كتب بلزاك الموجودة بالتافهة والتجاريّة، تفرغ مضمون رواياته الرائعة، محتجًّا بصمت على الخراب، الذي كتب عنه صفحات طويلة لزوجته السابقة كوليت دون أن ينتظر منها أيّة إجابة على رسائله، التي رغم كتابتها بلغة فرنسيّة يبقى خائفًا ومنتظرًا استدعاء للتحقيق معه، لا يطمئنّ إلّا حين يصل جواب كوليت ببرقيّة هاتفيّة تخبره باستلام الرسالة غير مفتوحة، كانت وصيّته الوحيدة إن مات فجأة أن تعطي هذه الرسائل لابنه بيير حين يبلغ الثامنة عشرة من عمره، كتب له رسائل طويلة، بكلمات حارقة ومؤلمة وحنين كبير وصف أحوال مدينته القديمة،

وصف مدرسته القديمة الرائعة التي تشبه المدارس الفرنسيّة العريقة بسقوفها العالية وحدائقها وملاعبها وأناقة أساتذتها المشاهير، قبل وصف مشهد زملائه الأساتذة يدبكون في مسيرات الحزب الإجباريّة، تحدّث بإسهاب عن عاره الشخصي لأنّه كان شاهدًا على لحظة سيتناساها الجميع ليستطيع النظر في عيون بعض بعد خمسين سنة.

أحسّ بلاجدوى أيّ شيء، فكّر بالانتحار أكثر من مرّة، أعاد قراءة سارتر كي يهدّئ قلقه، رحّب بزيارات سوسن التي تحوّلت من تلميذته إلى صديقته، يختلس النظر إلى صدرها الرائع، لا يجرؤ على الاعتراف لها بأنّه يستحضرها في الليالي حين يمارس العادة السرِّيّة، ينتظرها كلّ عصر، تدخل حاملة أطعمة ومخلّلات صنعتها خصّيصًا له، تقبّل أمّه التي بدأت تروي لها بين الحين والآخر قصّة زواجها من عيسى عبد المسيح، وقصص زمن الخمسينيّات، تغمز لها وهي تقودها من يدها ساخرة أنّها رغم مرضها منذ سنوات ما زالت تتعثّر في أغراض الصالون القليلة، تصمت وتضيف بحسرة أنّها قد تكون اختارت عماها في اللحظة المناسبة كي لا ترى العار الذي يجلّل ابنها، تضيف بعد لحظات قليلة أنّ عيسى عبد المسيح اختار موته كي لا يرى العسكر يكمّمون الأفواه بقانون الطوارئ والمحاكم الاستثنائيّة، يغيّرون الدستور ويصادرون في مادّته الثامنة كلّ السلطات التي تنصّ صراحة على أنّ حزب البعث هو الحزب القائد للدولة والمجتمع. تتابع الاثنتان صنع القهوة، تخبرها سوسن بمرح أنّ كلّ شيء في الخارج على ما يرام وكلّ ما تسمعه كذب، إذ لا يُعقل أن تُحرق أفخاذ النساء بالأسيد لأنّهنّ يرتدين تنّورات قصيرة،

لا يعقل أنَّ راعي ماعز برتبة عميد قد اشترى بناية الصابوني في منتصف الجميليّة وحوَّلها إلى دكاكين لبيع البضائع الصينيّة، كما لا يعقل أن يقوم أبناء الضبّاط باعتراض بنات العائلات وخطفهنّ إلى مزارعهنّ لاغتصابهنّ. تطمئنها إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام بلهجة تصدّقها ماري بعفويّة، تروي مبتهجة، وبشغف، ذكرياتها عن مقاهي الستينيّات، تلمّح إلى أنّ أحد أكبر كتّاب حلب عشقها وكتب لها قصيدة طويلة سرياليّة، تصفه بعبقري لم تمنحه المدينة ما يستحقّ من ثناء، رمت كتبه في المزبلة. تثرثر ماري من دون توقّف كأنّها تتأكّد من أنّها ما زالت قادرة على النطق.

يعتبر جان هذا الوقت من حقّ الأمّ، يراقب مخارج حروفها ويعرف أنّها لن تموت قريبًا، يجلس قرب النافذة المغلقة بستائر سميكة لا تسمح للضوء بالعبور. تأتي سوسن بغلّاية القهوة، تنظر في عيني جان بقوّة، يتحاشاها مرتبكًا ويحدّثها عن ترجماته، تتثاءب بملل ويصمت الاثنان، يعود كلّ شيء إلى حاله، امرأة في السبعين من عمرها شبه عمياء تصطدم بالكراسي والكنبات القديمة، تنتابها نوبات كآبة لا ينقذها أحد منها، تستجدي موتًا لا يأتي، تكتفي برائحة جدران بيتها الكابية، تصنّف الروائح وتخلطها مع الذكريات القديمة وتبحث عن رائحة الحنّاء المفقودة، تتنفَّس الهواء ملء صدرها وتسأل جان مرّة واحدة كلّ عام هل أتى الربيع؟ غير مهتمّة بعبور الأيّام والأسابيع والشهور، مردّدة أبياتًا من قصيدة أورخان ميسر(١) التي ما زالت تحتفظ بمسوّداتها بخطّ يده، تخرج

---

(١) أورخان ميسر: من أوائل السرياليين العرب، ولد في إسطنبول عام ١٩١٤ وتوفي ودفن في حلب عام ١٩٦٥، اشتهر بديوانه «سريال» الذي صدر عام ١٩٤٨.

الأوراق أحيانًا، تتحسّس الحبر وتقرأ مبتسمة، جان يراقبها بصمت، يقودها من يدها إلى المغسلة، تغسل يديها بصابون معطّر ترسله إيميلي خصّيصًا من كندا، يعيدها إلى كرسيِّها العريض، يضع أمامها الطعام، يأكلان بصمت مريب، متوجّسًا من فكرة أنّ الاثنين يفكّران بالموت، هو يفكّر بموتها وهي تفعل الشيء نفسه، تفكّر بموتها، تتأسّف لأنّها خرَّبت حياة أسرتها، تطلب بجدِّيّة أن يضعها في أقرب دار للعجزة ويعود إلى جنيف ليستأنف حياته، جان يتحدّث بصوت هادئ أنّه يريد العيش هنا حتى لو تفكّك جسده، يريد أخذ حصّته من العار، يشرح بصدق أنّ أيّامه في جنيف لم تمنحه فرصة التأمّل في حياته، كلّ شيء كان مملًّا، يشبه العيش في حديقة بلاستيكيّة. ماري تصدّقه، عيناه اللطيفتان لا تدعان مجالاً لشكّ سوسن بأنّ ما يعيشه جان نوع من التلاقي الأخير مع روح المكان قبل موته.

تغادره سوسن بعد المغرب بقليل، تتركه وحيدًا يبحث عن رائحة جسدها الفوّاح، لم يشمم رائحة قويّة في حياته كرائحتها، هزمته دون أن تتكلّم، تعاطت معه كرجل مريض، تقبّل عطفها وتأنيبها له. في الصفّ تحاشى النظر إلى عينيها، يخاف أن يفقد نطقه إن فعل، فتيات كثيرات دسسن له رسائل في جيب جاكيته المعلّق خلف باب الصفّ، لكنّه لم يكترث لهنّ، فقط سوسن حاصرته بجسدها المنسّق. يندسّ في سريره، يغمض عينيه، يتخيّلها جالسة قربه تخلع قميصها الذي تترك زرّه العلوي مفتوحًا دومًا، يشدّ بضيق على ثدييها الصلبين، تلقِّمه ثديها، ويتحسّس حلمتها، يوغل أكثر حين تنثر بنطلونها الجينز الضيّق وتتعرّى تمامًا، تأتيه

الصور متداخلة مع فتيات عابرات في جنيف، يمارس فحشًا لا يستطيع إخباره لأحد. يفكّر بعزلته وخوفه الذي يزداد من سوسن التي لم تعد تكتب له رسائل تتغزّل فيها بعينيه اللتين تشبهان القمر الحالم، مستعيرة كلمات أغانٍ لنجاة الصغيرة وفيروز ومطربين آخرين. مرّة وحيدة تجرّأ وقرأ لها قصيدة ترجمها خصّيصًا لها من مجموعة بول إيلوار الكاملة، فهمت سوسن أنّ حيوانه الداخلي قد استيقظ متأخّرًا جدًّا، شعرت بحزن شديد لما فعلته بأستاذها الحبيب، وفي تلك الصيفيّة الرائعة قبّلته على خدّه بهدوء، خرجت من المنزل ولم تعد إلى زيارته.

حدّثتني عن فقده بكلمات عذبة، وصفت تضرُّج وجهه بحمرة خفيفة حين يقرأ لها متلعثمًا القصيدة باللغة الفرنسيّة ثم باللغة العربيّة، يخفض نظره حين تنظر إليه بوقاحتها التي أعرفها حين تريد أن تفرغ نخاع عظام شخص تختاره لتعاقبه على إهمالها، تردّد بحزن أنّ الأشياء حين تأتي متأخّرة بما فيه الكفاية يجب أن ننساها مرّة واحدة وإلى الأبد.

ذلك الصيف تفجّر كلّ شيء في سوسن، جسدها، روحها، هيامها، جنونها، امرأة جديدة تخطو بصلابة على عجزنا، تطلب منّا النهوض من وكر الموت هذا والخروج مرّة أخرى إلى حقول الخسّ، تهزّ رشيد من صدره وتحثّه على العزف حتى الموت، تركلني برجلها مازحة أن أهدم جدار زريبة الرفيق فوّاز الذي حرمنا من رؤية القطارات حين تعبر قرب منزلنا، أصبحت سوسن القطار الذي كانت تشير إليه سعاد بفرح، لكنّها قطار فلت من سكّتيه، لم يعد يعنيه التوازي، حطّم المدن والبيوت، بفجور تطلب من أمّي

الكفّ عن التشكّي والاعتناء بروحها ودهن جسدها بكريمات مثيرة توقظ شهوتها إلى الحياة. رشيد ينتظرها كلّ يوم لتستقيم حياته، أمّي تنظر إليها بغيرة، محافظة على مواعيدها الثابتة، حالمة بعائلة مهذّبة ومنزل تنبعث الموسيقى من كلّ جوانبه.

جان انتظرها في الأيّام التالية، وحين لم تأت شعر بقوّة كبيرة تكفي لطردها من حياته، لكنّ ظلالها لا تتركه ينام، يستعيد رائحتها وقوّة الإغواء في جسدها، أيقظت جسده ومضت، فكّر بكتابة رسالة طويلة يستجديها أن تعود إليه، فكّر بالاعتراف لها أنّه لأوّل مرّة يشعر بتلك القوّة الدافقة في عروقه، غيَّر رأيه وقرّر التخلّص منها للأبد. عصبيّته المفاجئة أثارت أمّه التي حافظت على صمتها، عرفت في قرارة نفسها بأنّ تلك الفتاة ذات الصوت الخشن الأقرب إلى الذكورة التي تختبئ الغُلْمَة في رنّاته حين تتكلّم، قد دمّرت صمتهما الذي عاشاه لسنوات، هي أيضًا تنتظرها كي تستند على ذراعها وتعاود سقي نباتاتها التي تحسّستها بيدها، عرفت من خشونتها وسماع تقصُّف أوراقها أنّها تيبّست ولن تعود للاخضرار، تمنّت الغرق في الظلام أكثر، تعود لتلك الرائحة الثابتة لنفتلين الخزائن المغلقة منذ زمن بعيد ورائحة الخشب المهترئ لمساند الكنبات، تلك الرائحة التي أرشدت ماري عبد النور إلى أرشفة ذكرياتها التي ساعدتها على البقاء. تفكّر كيف يكون الماضي سببًا لحياتنا، ورغم ثبات الذكريات المكرّرة هي تنتهي بسرعة وتختصر إلى مجرّد صور بعيدة تصبح هي الأخرى باهتة لا قيمة لها، إلّا أنّ ماري كانت تعيد سرد ماضيها بهدوء من ينتقم به من حاضر صمّمت ألّا ترى كلّ بطشه.

جلست إلى طاولة الطعام هذه المرّة مصمّمة على الموت، طلبت بإلحاح أن يحضر جان لها سمًّا قويًا، ويضيفه إلى يخنة الملفوف الذي تطبخه خادمة اضطرّ جان للاستعانة بها لعدم قدرته على احتمال العيش في هذا السجن. فكّر لأوّل مرّة بالخروج من المنزل، والسير في أزقّة المدينة وشوارعها بحثًا عن سوسن. برَّر لأمّه أنّه يودّ الاستقرار بشكل نهائي هنا، طلب منها أن لا تفكّر في مصيره، لقد تغيّر ولم يعد الماضي يعني له أيّ شيء.

لأوّل مرّة رفض ترديد نشيد الحزب في الاجتماع الصباحي. وقف صامتًا يراقبه زملاؤه المبهوتون بتحوُّله، ينظر إلى العلم الوطني بثبات، يستعيد ذكرياته الرائعة في مدرسة المأمون حين كان يرتفع العلم في سماء المدرسة يحيّيه الطلّاب بحماس مردّدين النشيد الوطني، لم تتأخّر التقارير التي وصفت جان بالعميل الخائن، وأضافت أنّه شتم الحزب القائد والرئيس المفدى ووصف وقوف المعلّمين ورقصهم الدبكة في ساحات المدينة بالهمجيّة، لم يمهلوه ليودِّع طالباته، حمل حقيبته وخرج من المدرسة بعد تبليغه قرار فصله من سلك التعليم بدقائق، بصق على غرفة المدرِّسين غير آبه بما سيحدث.

عاد إلى المنزل، حدّث أمّه أنّه سيجالسها ليل نهار، سيقرأ لها في كتاب ألف ليلة وليلة، تشجّعت أمّه وجلست في الليلة الأولى على كنبتها المفضّلة، استمعت إلى حكاية الليلة الأولى ثم نهضت بملل مفضّلة الصمت، مردّدة أنّه من العبث تزوير الموت وجعله مرادفًا للحياة، فاجأته حين سألته عن سوسن. تلعثم وأخبرها أنّها سافرت إلى دبي مع رجل سيتزوّجها، وصمت الاثنان.

لم يكن سهلاً انتظاره التحقيق، لم يتأخّر رقيب من المخابرات العسكريّة في قرع بابه صباحًا، اصطحبه إلى فرع السريان في سيّارة قديمة، أجلسه في ممرّ بارد وطلب منه الانتظار، فكّر باستخدام جنسيّته السويسريّة، اضطربت دقّات قلبه، إلّا أنّه لم يكن خائفًا، قضى نهاره كاملاً في انتظار التحقيق، وقبل منتصف الليل بدقائق أخبره الرقيب نفسه بأنّ عليه العودة غدًا في الثامنة صباحًا. خرج من الفرع جائعًا، وفي ساحة باب الفرج على بسطة شواء، تأمّل لأوّل مرّة حياة أخرى لا يعرفها في أحياء حلب الخلفيّة، حيث حياة آخر الليل الحافلة بسكارى ومدمنين وبدو باحثين عن عاهرات كذئاب جائعة.

سبعة أيّام قضاها جان في ممرّات فرع الأمن العسكري، جعلته يكتشف بأنّ ما قالته إيميلي عن الحياة هنا حكايات تؤلّفها فتاة عزباء خيالها ضحل، لا تعرف شيئًا عن سجناء سياسيين معلّقين بخطافات كخراف في مسلخ، ولا تعرف أيّ شيء عن خوف رجل يدّعي الشجاعة، ودون إرادة منه يفتح الصحف المحلّيّة ليمتدح مقالات محرّريها للحزب القائد والرئيس بعد جلوسه على سرير عسكري، وفُهِّم أنّه لم يعتقل ويعذّب، لأنّ عمّه بائع المفروشات تدخّل بشكل سرّي وقدّم ثلاث غرف نوم من خشب الجوز لرئيس الفرع وضبّاطه، الذين اعتبروا التقارير التي كتبها زملاؤه عن شتمه الرئيس كيديّة، ووقّع على ورقة كتب فيها أنّه مؤمن بحكمة القائد ومعجب جدًّا بخطابه الأخير، ويحفظ فقرات كاملة منه عن ظهر قلب، قال الجمل الأخيرة بتهذيب كبير لا يمكن لأحد أن يكذّبه.

وقّع على أوراق كثيرة تضمّ أسماء خالاته وعمّاته وأزواجهنّ

وأعمامه وأقربائه، كما قام في لحظة خاطفة باختراع صلة قرابة مع عائلات مسيحيّة تعمل بالسمسرة في «تجارة» وأعمال رئيس الفرع وأولاده اللامتناهية، من «بيع» أخبار المعتقلين وزياراتهم، إلى الاستيلاء على أملاك الدولة وبيعها كمقاسم صالحة للبناء، كما فعل الرفيق فوّاز بالأرض المصمّمة كحديقة عامّة قرب منزلنا، اخترع سيرة متخيّلة لأسماء وأقرباء زوجته كوليت حين سئل عنهم، لإغلاق الملفّ والسماح له بالعودة إلى منزله بعد محاضرة عن الوطن ومواصفات المواطن الشريف ارتجلها رئيس الفرع في اليوم السابع. هزّ جان رأسه موافقًا على أقوال رئيس الفرع، وحين خرج من المبنى الكئيب، وصف هذه اللحظة بقمّة العار الذي بقي من أجله في هذه المدينة العتيقة، بدأ يراها متشابهة معه باستسلامها للعار المتجلّي بلوحات وشعارات ورموز علّقت على جدرانها، وتماثيل الرئيس القائد المنتشرة في ساحاتها.

راسل بنكه السويسري وقدّر أنّ الستّين ألف دولار أميركي تكفيه للعيش خمس سنوات دون عمل، واطمئنّ إلى أنّه سيرث المنزل الفاخر بعد اتّفاقه مع أخيه جورج وأخته إيميلي عبر الرسائل على صفقة العناية بأمّهم مقابل حصّتهما في المنزل، لم يطمئنّ حتى حصل على تنازل موقّع من وكيلَي الاثنين بالتنازل عن حصّتهما من الإرث. شعر بنفسه سخيفًا وهو يخرج من باب المحكمة التي سجّل فيها عقود بيع المنزل الكبير، قدّر أنّ موقعه في منتصف المدينة سيجعل ثمنه غاليًا، حلم بمنزل ريفي صغير خارج المدينة وحياة جديدة لم تكن تخطر له من قبل.

لحظة الشجاعة التي انتابته حين بقي ينظر إلى العلم الوطني

رافضًا ترديد شعار الحزب، اختلطت بلحظة خوفه الفظيع حين جلس في ممرّات الفرع سبعة أيّام منتظرًا المصير المجهول. شعوره بالعار لم يفارقه، لكنّه فكّر بأنّه لأوّل مرّة يلمس المدينة والحياة، شعر بزلزال داخله يحتاج إلى تأمّل محاولاً استعادة لحظة الشجاعة تلك ومحو لحظة الخوف. فكّر بهزم سوسن من داخله كخطوة أولى لحياته الجديدة، توصّل إلى امرأة قوّادة ترسل النساء للزبائن على الهاتف. حاول وصف الفتاة التي يريدها، لم يفاجأ حين اكتشف أنّه يصف سوسن، ثدييها، عجيزتها، فخذيها، بطنها، وحين فتح الباب وجد فتاة بائسة صبغت شعرها بلون أصفر، فوجئت بأناقته وبمنزله الواسع، استعجلته وشعرت بأنّها تخوض تجربة مختلفة، حين رأت أمّه شبه العمياء تنسحب من غرفتها التي لم تعد تخرج منها إلّا لقضاء حاجتها، جان يعيد وصف الفتاة التي يريدها للستّ فتحيّة، وكلّ مرّة تأتيه فتاة أخرى لا يراها في الظلام، يعرف من رائحتها أنّها امرأة أخرى، إلى أن أتت فتاة عرف صوتها، وصُعق حين عرف بأنّها سلمى طالبته القديمة وصديقة سوسن الأثيرة. حاولتْ التراجع إلّا أنّه أشار إليها بلطف أن تجلس وتأخذ كأس فودكا بالليمون، لم يستمع إلى حكايتها التي ألّفتها عن انحرافها بعد رسوبها المتكرّر بالبكالوريا، استغربت نظراته الجديدة، كأنّها تخصّ شخصًا آخر، لم تكن مولعة بعينيه كبقيّة فتيات صفّها، احتفظ بها كزبون دائم يتّصل فيها ويغازلها حين يشتاق إلى سوسن، تأتيه كلّ فترة تضطجع وتنتظر سؤاله عن سوسن إلّا أنّه يصمت، تطفئ الضوء وتسير عارية في الظلام الدامس مقلّدة سوسن، وقبل مغادرتها تخبره أنّ سوسن غارقة في قصّة حبّ قويّة ستخرج منها إلى القبر، تضيف دون أن تنتظر تعليقه بأنّ سوسن تعمل مضيفة في

قصر حبيب الموصلي في دبي، تركت كلّ شيء لتلحق بحبيبها منذر الذي استقال من الجيش وسافر لينضمّ إلى حاشية حبيب الموصلي شريك الأمير سلمان. يتجاهل جان حديث سلمى عن سوسن، يخبرها بكلمات قليلة أنّها ماتت بالنسبة إليه من لحظة انضمامها إلى دورة مظلّيات صيف ١٩٨٢. لا يضيف أيّ شيء، خوفَ انزلاقه في اعترافات أنّه بحث عن قوّته في ذلك اليوم الصيفي حين قرعت باب منزله دون سابق إنذار بعد غياب طويل، لم يعرفها لأوّل وهلة، ظنّ الأمر مجرّد عنوان خاطئ، فتاة ترتدي ملابس المظلّيين وترخي حقيبة سفر صغيرة على كتفها، مدّت يدها وبقوّة صافحته، دخلت دون انتظار دعوته، بدأت بالثرثرة دون أن يسألها، ببساطة أخبرته أنّها لا تحبّ عالم الضعفاء، لم تعد تحتمل بطش إخوة فوّاز وأغانيهم الممجّدة للحزب والقائد.

فكّر بأنّ الصمت قد يقوده إلى التهلكة لكنّه صمت، فكّر بالبشر الذين يبحثون عن القوّة ليهزموا البطش، شعر بأنّه ضعيف، وما اعتقده طوال عمره عن قوّة الهشاشة تبخّر فجأة، تركها تغادر. قبّلته على خدّه ولم يهتمّ لكلماتها التي امتدحت طيبته، أسوأ ما حدث له رغبته بصورتها الجديدة، وسؤاله عن معنى أن تكون طيّبًا، كره صورته حين كان طفلاً يحاول الجميع تشجيعه على صورة الرجل السمين المهذّب، بنظّارة طبّيّة وثياب مكويّة، يضحك بصوت منخفض ويتودّد إلى الأطفال والحيوانات الأليفة. كره أمّه وأباه ومرشّحهما كابرييل الشامي، وأساتذته في مدرسة المأمون، وراعي الكنيسة الذي كان يوقفه في الصفّ الأوّل حين ينشد مع الكورال فخورًا بملابسه الأنيقة ونسبه العائلي.

اختلطت الصور في ذهن جان، لم يتخلّص منها إلّا في لحظة شجاعته النادرة، وتمدّده لأوّل مرّة بجانب عاهرة طلب منها التعاطي معه كزبون بخيل، وشتمه بأقذع الكلمات التي لم تُنطق في منزل أهله طوال حياته، شعر بأنّه حرّر نفسه وتاريخ أسرته، حرّر المنزل الصامت، تمنّى لو يروي بمرح لأمّه عن روعة الحياة في الضفّة الأخرى، حيث النساء والرجال يتقاذفون بالشتائم والمسدّسات كما يتراشق أولاد مرحين بالماء أثناء رحلة مدرسيّة.

ضحكت سوسن حين وصفت لها سلمى ما حدث بكلمات فاجرة، أحبّت صورته الجديدة ولم تتعاطف معه، شعرت أنّ التهلكة تليق به. أرسلت له عنوانها في دبي وانتظرت رسائله التي لم تأت، تستغرب حضوره القوي في حياتها. باستغراب تعيد ترتيب ذكرياتها معه، تعيدها صورته إلى صورتها القديمة، إلى براءة أوّل حبّ في حياتها، تؤنّب نفسها التي اعتقدت للحظة أنّها تكتب حكايتها. فوجئت ولم تعترف بأنّ صمته هو الذي كتب النسخة النهائيّة من قصّتهما، أيقنت بأنّها وسلمى وجان ثلاثة أشخاص تتشابك مصائرهم ككتلة خيطان معقّدة ومتداخلة في ماضيها وحاضرها، وتخشى أن تبقى كذلك في مستقبلها.

تجول سوسن حول أسوار قصر حبيب الموصلي كئيبة، تنظر إلى البحر القريب، سيّارات تقف أمام باب القصر، يترجّل منها رجال أعمال وأمراء خليجيّون أنيقون تسمع بأسمائهم ترافقهم نساء فاتنات وتجّار سلاح ونجوم سينما عرب وراقصات شهيرات وعارضات أزياء عالميّات ومغنّيات ولاعبو غولف، ترحّب بهم، تفتح لهم أبواب السيّارات بابتسامة مضيفة خبيرة، تقود السيّارة إلى

الباركينغ، تنتظر خروجهم فجرًا مخمورين، لا يسمح لها بدخول القصر، تكتفي بالتقاط تفاصيل الحفلات الماجنة: من الطبّاخة الشاميّة التي رافقت حبيب الموصلي عشرين عامًا، تطبخ له أطباقه المفضّلة، من شيخ المحشي إلى الفاصوليا بزيت، تعدّ مائدته الخاصّة حين يكون بمفرده، وطبّاخون آخرون يتولّون مهمّة تجهيز الولائم الكبيرة. تنصح سوسن بالعودة إلى سوريا، تضيف بأنّها لن تقطع بوّابة القصر وستبقى خادمة. في سرّها تغضب من منذر الذي حوّلها من سيّدة إلى خادمة، تعود بعد انتهاء نوبة عملها إلى غرفتها في شقّة صغيرة تقاسمتها مع صديقتين تقضيان وقتهما بقضم أظافرهما والحنين إلى قريتهما في جبل لبنان، تنتظر سوسن رنين الهاتف قرب سريرها كي يدعوها منذر المرافق الشخصي لسيّد القصر إلى كأس في بار مونتانا، يصطحبها آخر الليل إلى جناحه الملحق بالقصر، يقضي معها الليل ويتركها وحيدة تهذي بحبّه، لا يستمع إليها ويشخر بقوّة كثور خائر القوة. تخبره أنّه أملها الوحيد في الحياة، لا تستطيع العيش بعيدًا عنه، ينظر إليها مستغربًا ويسأل نفسه عن سرّها كي يحتفظ بها عشيقة ثلاثة أعوام، لا يكفي امرأة أن تكون حارّة في السرير كي يحتفظ بها رجل كمنذر ثلاث سنوات، يعترف بأنّها تمنحه إحساسًا مختلفًا، رائحتها التي تفوح بين أصابعه ومن شراشف السرير بعد مغادرتها تجعل حنينه إليها دائمًا، يتذكّر ضحكتها البريئة ومرحها غير المصطنع.

حين كانا في حلب أوائل الثمانينيّات، كانت تأتيه صباحًا إلى غرفته في فندق رمسيس، تخاتل الحرّاس وتندسّ بقربه في السرير، تلاعبه وتنقر أرنبة أنفه، تطلب منه إغماض عينيه كنجوم السينما،

تقبّله بحرارة في شفتيه ورقبته، تعرّي صدره وجزأه السفلي، تقبِّل عضوه وخصيتيه وأظافر رجليه، تثير فيه شهوة حارقة، تخلع قميصها وترمي ألبستها كمجنونة في فضاء الغرفة، تثبّته من كتفيه وتركبه كحصان برّي، تتركه مهدود القوة، تأمر الخدم بإحضار طعام الإفطار إلى السرير، تخرج معه ليلاً، تأمر حارس القلعة بفتح الأبواب، تجول معه بمفردها في القلعة، كأميرة حمدانيّة تجول في قلعة مظلمة تفتح بأمر من ضابط لا يُرَدّ له طلب، يقفان على الأسوار وينظران إلى حلب التي تخنقها روائح الموت، الخوف في شوارعها وعلى وجوه النساء والرجال العائدين إلى منازلهم أوّل المساء. تحاول أن تدلّه إلى بيتنا، تشير إلى منطقة بعيدة وتقول هناك قرب القمر. تصعد إلى أعلى برج في القلعة وتطلب منه أن يقبّلها قبلة طويلة على شفتيها، تشعر بتحوّلها من سلحفاة بائسة تخفي داخل درعها ثقل روحها إلى نسر لا يشبه النسور المحنّطة المركونة فوق خزانة ملابسها، تفاجئه طلباتها الغريبة، يعترف أنّ وجودها في حياته جعل خوفه أقلّ، وحياته أكثر بهجة حين كان مضطرًّا للإقامة في حلب لأيّام قليلة.

بدأ الملل يتسرّب إلى علاقتهما، تكتب سوسن في رسالة طويلة تشكّيها من هجر قريب بدأت تنتظره لا يعلّق منذر بأيّة كلمة حين تبوح به، فقط يتناول جاكيته ويخرج من الغرفة كرجل غريب، تسمع أمره للخادمة بإغلاق الباب بعد خروجها من المنزل، تدخّن في السرير، تفكّر بأنّ رجلاً يرفع صوته ليأمر خادمة بإغلاق الباب بعد خروج امرأة كان يضاجعها منذ لحظات بأنّها لا تعني له شيئًا، في أفضل الحالات هي امرأة عابرة، من الممكن تقديم كأس لها

في حال مصادفتها مرّة أخرى في بار، تقرّر أنّها لن تعود إليه، تحمل حقيبتها وتخرج من شقّته، تعود إلى غرفتها وترتمي على سريرها، تكمل نومها وتغرق في لذّة الكسل، تفتح الستارة. المساء الذي يهبط رويدًا رويدًا يشعرها بوحشة شديدة.

سوسن تنظر من النافذة، تنهض وتنسى قرارها بهجره، تدخل إلى الحمّام، تقف وقتًا طويلاً تحت الدشّ، تبقى أعصابها مشدودة رغم الماء الساخن الذي يتسرّب على جسدها، تعاود الخروج كأنّها منوّمة تسير نحو جناحه، لا يُسمح لها بالدخول. تترك له رسالة وتغادر إلى بار المونتانا. تعرف النادلة البرتغاليّة طلبها، كأس فودكا مع عصير ليمون. يتركها الجميع لوحدتها. تشرب كأسها الخامس وتعود مرّة أخرى تحوم حول القصر الذي لا يُسمح لها بالاقتراب منه.

لم تعد تراه أبدًا بعد زواجه فتاة من قريته أرسلها أهله إليه كطرد بريدي. استقبلها في مطار دبي، واصطحبها إلى جناح محجوز لرجال حبيب الموصلي بشكل دائم في فندق حياة ريجنسي، افتضّ بكارتها، ومنذ اللحظة الأولى كره غباءها القروي. محاولاً نسيان سوسن. حاول الخروج للمرّة الأخيرة إلى حياة عائليّة مستقرّة مع هذه المرأة، التي يذكرها فتاة في الصفّ التاسع، شقراء وذات جسد مشدود وعينين خضراوين. حين رأتها سوسن أحسّت بالشفقة تجاهه، لم تعاتبه أو تبكِ على صدره لأنّه حدّد صفتها، بل طلبت منه بهدوء الاحتفاظ بها دون صفات، فاجأها طلبه منها مغادرة دبي نهائيًّا ونسيانه. بهدوء انسلّت من السرير وأحضرت كأسي ويسكي فارغين، صبّت من زجاجة ويسكي معتّقة أحضرها معه لقضاء ليلتهما الأخيرة، شربت الكأس بهدوء

وسألته إن كان يرغب حقًّا بمغادرتها حياته للأبد، صمت وضمّها إلى صدره، قبَّلها ببرود ونظر إلى ساعته التي تجاوزت العاشرة ليلاً، نهض من سريرها كغريب، ارتدى ملابسه وغادرها مسرعًا، تذكّرت أنّه لم يحتضنها، اعتقدت أنّه سيقضي الليل في سريرها، ولديهما وقت طويل ليتحدّثا بهدوء. وجدت نفسها وحيدة في الغرفة، أصوات رفيقتيها تأتيها من الغرف الأخرى، خرجت من الشقّة وعادت إلى كرسيّها في بار مونتانا، أكملت شرب ويسكي معتّق على حساب سائح ألماني دعاها إلى مرافقته الشراب، قالت له إنّها لبنانيّة، ارتكبت خطأً لا تسامَح عليه خادمات القصر، قضت الليل في غرفته، أعطته جسدها مقابل مائتي دولار. في اليوم التالي خرجت معه علانيّة إلى الغداء في مطعم يرتاده سيّاح أغنياء ونجوم سينما عرب، عادت منهكة إلى غرفتها لتجد أمر ترحيلها من دبي فورًا. لم تعد تشعر بشيء. في اليوم التالي حملت حقيبتها، وقفت أمام القصر مستجدية الحرّاس رؤية حبيب موصلي، لم يسمح لها بالدخول ووصفها السكرتير بـ «الشرموطة»، وطلب منها الرحيل فورًا، عادت إلى شقّتها، وحين اعتذرت رفيقتاها عن استقبالها فهمت أنّ كلّ شيء قد انتهى.

قضت الليل في مطار دبي منتظرة رحلة باريس التي وصلتها منهكة. سحبت نقودًا قليلة من حسابها البنكي، وجدت فندقًا رخيصًا في حيّ باريسي يقدّم إفطارًا وسريرًا في غرفة مشتركة مع آخرين مقابل خمسين فرنكًا فرنسيًّا. ارتمت على السرير كقتيلة، محاولة استعادة قوّتها. ثلاثة أيّام استطاعت خلالها الوصول إلى عنوان سهير الدمرداش، صديقتها في دورة مظلّيات الحزب، التي

لم تنتظر طويلاً بعد تشمّمها رائحة نهاية نفوذ قائد المظلّيين فطلبت منه منحة لدراسة الموسيقى في باريس. جلست سهير أمام سوسن، عرفت من اللون الداكن تحت عينيها أنّ أمورها ليست على ما يرام، دعتها إلى مقهى قريب من المعهد الموسيقي، قدّمت لها قهوة إسبريسو ثقيلة، ساعدتها في استئجار غرفة صغيرة لا تتجاوز المترين بمترين في حيّ قريب من محطّة قطارات «غار دي نور» تراها بين وقت وآخر، تدعوها إلى مشوار قصير أو مطعم تتبادلان فيه كأسي نبيذ على عجل. لن تعود إلى حلب مهزومة، تفكّر في الليل البارد أنهّا عاشقة مهجورة تشبه محطّة قطارات تفقس الصئبان بيضها باطمئنان على رصيف مسافريها، تطبخ فاصوليا خضراء، وتشرب نبيذًا رخيصًا محاولة تجاوز مصاعب الإقامة في باريس، والمحافظة على النقود القليلة في حسابها الموشك على النفاد، تراءت لها حلب بعيدة وباريس متعِبة وصعبة، فكّرت بأنّها ستقضي عمرها بأكمله خادمة في مطعم تملكه امرأة جزائريّة توبّخها.

كتبت رسالة طويلة لجان، روت له كلّ ما حدث معها من يوم رأته للمرّة الأخيرة في ذلك اليوم الصيفي قبل التحاقها بمعسكر المظلّيات. أخبرته أنّها ابتعدت عنه لأنّهم طلبوا منها كتابة تقارير عنه ووصفوه بالجاسوس. طلبت نصيحته ببرود، وصلتها رسالته يخبرها فيها بأنّ أمّه ما زالت بخير ولم تمت، وبأنّه فُصل من التعليم لسبب يعرفه، وبأنّه الآن يعيش من دروس خاصّة يعطيها لطلّاب أغنياء في منزله، برقّته المعهودة تمنّى لها التوفيق في باريس. رسالة لا معنى لها، قالت سوسن لنفسها ورمتها في حاوية القمامة.

عادت إلى مطبخ المطعم الجزائري، تغسل الصحون، تخرج آخر الليل منهكة، ترتمي على سريرها وحيدة، كأيّة فتاة بائسة لا يعرفها أحد، ملابسها الغالية فقدت رونقها، وعطورها الغالية التي كان يحضرها منذر انتهت رغم اقتصادها باستعمالها. طلبت رقم منذر في دبي، أغلقت السمّاعة في وجه زوجته حين سمعت لهجتها الريفيّة القاسية. في آخر اتّصال تركت رقم المطعم واسمها الكامل ورجاء اتّصال منذر بها، انتظرت سماع صوته للمرّة الأخيرة قبل أن تحمل حقيبتها الصغيرة وتغادر باريس قبل أن تكمل سنتها الأولى عائدة إلى منزلنا في حلب.

لم أصدّق أنّ هذه الفتاة المتعبة والضعيفة ذات الوجه الأصفر هي سوسن المرحة، احتضنتني وبكت، ثم احتضنت رشيد وأمّي التي تعاطت معها ببرود لن تغفره سوسن لها حتى آخر يوم من حياتها، كأنّها وجدت أخيرًا الفرصة للانتقام من بصقتها التي لم تنسها، فكّرت أمّي في تلك اللحظة أنّهما تساوتا، امرأتان مهجورتان ومهزومتان.

استدعيت إلى فرع الأمن أكثر من مرّة، استقبلها المحقّق صديق منذر القديم بلطف، قدّم لها قهوة مغليّة جيّدًا، سألها عن تفاصيل حياة منذر، وضع أمامها ورقة بيضاء، وطلب منها كتابة تقرير عن تفاصيل تعرفها عن حياة حبيب الموصلي وشريكه الأمير سلمان ورجال أعمال ومسؤولين سوريين يرتادون قصره، أردف أنّه روتين ضروري للحصول على العفو الرئاسي والعودة إلى النضال في صفوف الحزب، راقبت خوفه منها، وابتعاده عن النظر مباشرة إلى عينيها، كتبت ما طُلب منها وخرجت بهدوء من الفرع. في

اللقاء الأخير طلبت من المحقّق إغلاق هذا التحقيق الذي لا معنى له، أعطاها أرقامه وعرض عليها العمل مع الفرع كمخبرة ذات امتيازات. سخرت منه وخرجت مثقلة بصداع قوي. سارت باتّجاه مطعم الستراند، جلست إلى طاولة قرب النافذة المطلّة على الحديقة العامّة، كلّ شيء قد تغيّر، النادل وشراشف الطاولات والزبائن، أحسّت بغربتها عن مكان شهد أمتع لحظاتها مع منذر، شربت قهوتها بهدوء، راقبت المارّة، سألت نفسها ماذا تغيّر كي يشبه هؤلاء المارّة الأرانب الخائفة، يسيرون في طريقهم منكّسي الرؤوس. بدت لها حلب في تلك اللحظة مدينة فقدت بريقها ومثقلة بالندم، لا تعني لها أيّ شيء، امرأة عجوز تتفقّد أحوال رفيقاتها، تخاف الموت المبكر، طائرة ورقيّة في فضاء رمادي تخاف التحليق بعيدًا، انتبهت إلى خطواتها الثقيلة، أرادت رمي وزر سنواتها الماضية، بحثت طويلاً عن خلاصها، ندمت على طيشها، كرهت منذر الذي أعادها حطامًا إلى مدينة أسهمت مع رفاقها المظليين بتحويلها إلى خرائب، بكت في غرفتها طويلاً إحساسها بالوحدة، احتضنتني وبكت كسمكة نتنة يجب رميها للكلاب، أضافت أنها ضيّعت عمرها مع مجموعة كلاب، طلبت منّي مرافقتها لزيارة قبر سعاد. فهمت أنها تريد استعادة براءتها.

سرنا في طرق لا نعرفها، منازل بنيت في السنوات الأخيرة في حقول الخسّ على عجل، تفوح منها رائحة طبخ مقزّز، المقبرة التي كانت مفتوحة على الفضاء أصبحت محصورة بين مجموعة بنايات يسكنها ريفيّون، يغلقون شرفاتها بأقمشة قذرة خوف تلصّص الغرباء على نساء متروكات طوال النهار وحيدات مع أطفالهنّ. قلت لها:

سعاد ستختنق في هذا الزحام، لم تجبني سوسن، جلسنا قرب القبر، انتزعنا الأعشاب اليابسة وسقيناه، قادتني كطفل صغير من يدي إلى شوارع حلب القديمة، غائبة عنّي، تسير بحرِّيّة وتنظر إلى نقوش مزاريب الحجر كسائحة شغوف. طمأنتني في الليل إلى أنّ مرحها سيعود إليها، أضافت بتفاؤل أنّها ستصبح أعظم مترجمة.

في انتظار عودتها إلى الجامعة، قضت الأشهر الأخيرة بقراءة روايات فرنسيّة تستعيرها من مكتبة جان التي بدأت تنمو من جديد. شحن عشرات الصناديق من جنيف، يقينه أنّ إقامته ستطول وأنّ أمّه لن تموت في وقت قريب جعله يرتّب حياته من جديد، يأتي تلاميذه إلى منزله، يستقبلهم في غرفة صغيرة، يحاولون التلصّص على أمّه الغافية كملاك، يبدّل سيروم أمّه ويعتني بتنظيفها، ثم يغلق باب الغرفة وراءه ويغرق في صمت المنزل.

تأتي سوسن كلّ مساء، يتحدّثان بالفرنسيّة ويقلّبان صفحات الكتب سويًّا، تخبره بأنّها سترتق غشاء بكارتها وتصلّي، تضيف أنّها لا تملك طريقة أخرى لخلاصها وعودتها امرأة نقيّة غير ملوّثة بالتقارير التي أودت برفيقاتها في المدرسة وعائلاتهنّ إلى التهلكة. يهزّ برأسه موافقًا ولا يعلّق.

تسأل نفسها هل سيكون ندمها بهذه القوّة لو تزوّجت منذر وأكملت حياتها معه، أرَّقها البحث عن أجوبة لأسئلة تنبت في رأسها كشوك في حقل جلبان، تتقلّب في فراشها، تخرج إلى الصالون مختنقة بحمّى الحنين إلى منذر، تستيقظ رغباتها ويتحوّل جسدها إلى كتلة لهب. تتشكّى من صداع مفاجئ، تعود إلى سريرها، تقف أمام المرآة وتعرّي جسدها، تتلمّس أعضاءها،

تغمض عينيها ممدّدة على السرير، تستحضر أحاسيس وصورًا قديمة، تختلط الوجوه في استمنائها، تعود إليها مناماتها القديمة. أحلام اليقظة تحاصرها وتحوّل قلقها إلى ندم يغرقها في نوبات بكاء لا تتوقّف، تبحث عن خلاصها، لم يعد يغريها الاستماع إلى موسيقى رشيد، تسير في المنزل ببطء سلحفاة، لا تكلّم أمّي التي تنظر إليها بشفقة محاولة استعادتها. قرّرت في لحظة ورأت خلاصها في الصلاة وغرقها في العبادة، فكّرت بأنّ عودة عذريّتها إليها ستكسبها ثقة بنفسها تساعدها على الندم.

ذهبت إلى طبيب شهير، شرحت له باقتضاب أنّها تريد إحساسها القديم بغشاء بكارتها، لم تأت على ذكر كلمة شرف، شرح لها بأنّه يستطيع ترميم غشائها لكنّها لن تعود عذراء كاملة. أعادت طلبها بالخروج من عيادته عذراء ولا يهمّها النقصان، قدّم لها نصيحة أن تبحث عن مكان آخر لاستعادة ثقتها بنفسها. أفهمته بشكل قاطع أنّها تبحث عن رائحة فتاة كانتها قبل سنوات، وأغلقت النقاش.

كان يومًا ملتهبًا من أيّام نهاية آب عام ١٩٨٧، وصلت في الموعد المحدّد إلى العيادة المغلقة الأبواب، قرعت الجرس ولم تنتظر طويلاً، دفعت الأجرة وتمدّدت على سرير يُفتح خصّيصًا لهذه العمليّات السرِّيّة، غرقت في نوبات المورفين والبنج، حاولت تذكّر أيّ شيء من الساعات الثلاث التي قضتها في العيادة، لم تتذكّر وجه منذر. حاولت تجميع تفاصيله مرّة أخرى لكنّها لم تستطع، كأنّه شخص مجهول تبادلت معه أحوال الطقس في مقهى ثم غادرته على عجل. استيقظت من المورفين راغبة بالتقيّؤ، حملت أغراضها

القليلة وخرجت. عادت إلى المنزل، لم تكلّم أحدًا، غرقت في النوم حتى الصباح، استحمّت وجلست في سريرها تنتظر إحساسها بعذريّتها، لم ينتبْها أيّ إحساس جديد. حاولت النوم من جديد، حاولت استدراج أحلام يقظتها المشتّتة، لكنّها لم تفلح في تجميع صورة واحدة. لم أتركها وحيدة، بقيتُ لأيّام أُعدُّ لها شراب الزهورات، أحضر لها الطعام إلى غرفتها، كان جسدها قبوًا مهجورًا تفوح منه روائح البول وجثث فئران ميتة لم ينتبه أحد إلى تفسّخها. كتبتْ إلى جان تخبره بأنّها لن تستطيع زيارته، حسب أوامرِ شيخٍ استعادت كلّ سيرتها بين يديه وسألته بجدِّيّة مبالغ فيها هل ستذهبُ إلى جهنّم إن ماتت.

تفهّم الشيخ قلقها، رأى في عينيها الغريبتين رغبة صادقة بالإيمان والتكفير عن ذنوبها، أهداها قرآنًا صغيرًا، طمأنها إلى أنّ رحمة الله واسعة، قبَّلت يده وخرجت من منزله خفيفة كالنسور المحنّطة التي كساها الغبار أثناء سفرها، وفكّرت في الطريق أنّها للمرّة الأولى في حياتها تقبّل يد أحد، أعجبها إحساس الشيخ ورضاه عن عبوديّتها، قالت لنفسها: لا يعيش اليقينُ والرِّضا إلّا مع الاستسلام، عادت إلى المنزل مرتدية إيشاربًا كحليًّا يخفي شعرها الطويل، فتحت خزانة ملابسها، حملت كلّ أشيائها التي انتقتها بذوق امرأة فاجرة، بنطلونات ستريتش ضيّقة، بلوزات مفتوحة عند الصدر تظهر بطنها وسرّتها، تنانير قصيرة، وأحذية جلديّة طويلة، أقراط بأشكال شياطين أغرمت بها بعد عودتها من دورة المظلّيين، رمت ملابسها في الصالون وأحرقتها، هرعت الأم لحمل الملابس المشتعلة، قذفتها خارج المنزل غاضبة، متحاشية سُحبَ دخان

كثيفة غطّت الصالون وتسرّبت إلى كلّ الغرف في المنزل الذي أصبح مغلقًا كقبر.

لم يصدّق أحد توبة سوسن المرحة. رشيد لم يكترث لما يحصل في المنزل، أمّي اعتبرت تحوُّل سوسن كارثة لم تحسب لها حسابًا، كرهت رائحة عطورها الجديدة وثيابها الطويلة، أغطية رأسها الغامقة ونظرات صديقاتها الجديدات الشبيهة بنظرات نساء نيّئات وذليلات، تصطحبهنّ سوسن إلى المنزل. تطلب منّي عدم مصافحتهنّ، تحضّر لهنّ شراب الزنجبيل، يتحدّثن لوقت متأخّر من المساء عن معجزات الأولياء والطاعة، يستمعن إلى أناشيد دينيّة تنشدها فرق انتشرت في المدينة خلال السنوات الأخيرة، تركِّب كلماتٍ ساذجةً على ألحان أغنيات شهيرة راقصة.

تحاول سوسن الاندماج في حياتها الجديدة، تذهب إلى الكلِّيّة صباحًا مرتدية معطفًا كحليًّا طويلاً. رفيقاتها المظلّيات القدامى المندمجات في حياة الحزب والرفاق يعترضن طريقها، يشتمنها بكلمات قاسية ويبصقن عليها، تشعر بغيظ كبير، تصمُت، ورفيقاتها الجديدات يتعاطفن معها، يقرِّرن أنّها ستكسب ثوابًا عند ربّ العالمين إن احتملت قسوتهنّ.

سوسن لم تعد مرحة، تغرق في التطرّف والفتاوى يومًا بعد يوم، غطّت وجهها وأصبحت تتحاشى النظر إلى الرجال الوسيمين، الذين كانت مولعةً بمراقبة تفاصيلهم وتخيُّلهم معها في السرير، تكفِّر عن أحلام يقظتها، عن مناماتها، عن علاقتها مع منذر، نعتتْها رفيقاتُها المظلّيات بـ «شرموطة» منذر، غيرَ متناسياتٍ فجورها معه، عندما كانت تغيظهنّ وتحتضنه أمامهنّ، تقبّله من شفتيه في السيّارة

قبل مغادرتهما باب المدرسة، وفي اليوم التالي تروي لهنّ بالأسماء الصريحة للأعضاء تفاصيل ليلتها معه، تضيف مذكِّرةً الجميع بولهه بعينيها وعجيزتها المرتفعة والملفوفة في بنطالها العسكري الضيّق كحبّة بطّيخ أحمر، ونهديها اللذين تحرص على إبرازهما بترك أزرار قميصها مفتوحة لتظهر طرف سوتيانها، تفكّر بأنّه حان وقت انتقامهنّ منها. يكتبن التقارير ويرفعنها للرفيق جابر، صديق طفولتي البريئة الذي أصبح مسؤول الطلبة في الجامعة بعد طرد الرفيق السابق من الحزب لسماحه لطلبة جامعيين بإلقاء قصائد لا تمتدح الرئيس القائد والحزب، قصائد تتحدّث عن الورود والفراشات في مدينة مدمّرة تحوّلت بعد استتباب الأمن فيها وهزيمة حزب الإخوان المسلمين إلى مدينة معاقَبة تجول فيها الغربان، اقتسمها ضبّاط مخابرات ومسؤولون موالون. في جامعتها يسير الحزبيون بفخر خلف الرفيق جابر، الذي يتلقّى تعليماته من فروع المخابرات، منتفخي الصدور، يقرعون البلاط البارد في الممرّات، يتجسّسون على أنفاس الطلّاب والأساتذة والموظّفين الذين لا يجرؤون على اعتراض طريقهم، يُخرجون الطلّاب من قاعات الدروس ويقودونهم في مناسبات الحزب بمسيرات تأييد تنتهي بكتابة رسالة بالدم وإرسالها إلى القائد المسترخي في قصره بعد إسكات أيّ صوت معارض، وتدمير مدينة حماة واعتقال عشرات الآلاف من طلبة الجامعات اليساريين والمتدينين.

تفكّر سوسن المرحة بما يحدث حولها ويضيق تنفّسها، تتشكّى كأمّي، التي بدأت عوارض الهذيان تظهر على جسدها المثقل بإحساس عارم بخطيئة قرّرت ارتكابها بعد اشتياقها لرجل مجهول

كنّا نعرف أنّه غير موجود، تتخيّل صوته الدافئ يخبرها عن اصطحابه لها في رحلة بحريّة يجولان فيها المحيط الهندي، يراقصها تحت ضوء القمر، وينسج من زبد البحر سريرًا أبيض، تتمدّد عليه كحوريّة. . يعرّيها ويقبّل أعضاءها بهدوءٍ من يمتلك وقتًا طويلاً لنسج سجّادة كبيرة من دموع الفيلة، تعبيراته الغريبة جعلتها تندم على قتل أحاسيسها. استحمّت ونتفت شعر جسدها من جديد، لم تعد لاستعمال الكريمات المفضّلة منذ زمن بعيد، وخوفَ استيقاظ شهواتها ابتعدت عن أيّة مؤثّرات توقظها، لم تعد ترى الأفلام العاطفيّة التي أُغرمت بها وقتًا طويلاً. قمصان نومها الحريريّة أخفتها في صندوق خشبي مزخرف التقطته من محلّ أنتيكا قرّر صاحبه الهجرة وبيع موجودات محلّه خلال يوم واحد بعد اعتداء عناصر مخابرات عليه واتّهامه بإخفاء رجل مطلوب من جماعة الإخوان المسلمين، دخلوا إلى المحلّ، قلبوا أواني الفضّة وسيوف الذهب المعتّق المنقوشة عليها قصائد عذبة عن الليل والصحراء والأحصنة، داسوا كلّ شيء واصطحبوه معهم إلى الفرع. لم ينقذه في اليوم الثالث من موت محقّقٍ، إلّا تصديقُ المحقِّق أنّه مسيحي ينتمي إلى عائلة اشتهرت بصياغة الذهب والرشاوى الكبيرة التي دفعها أخوه الكبير طبيب القلب الشهير. عاد إلى محلّه محطّمًا، ينزّ جسده بجروح لن تندمل. نهبوا محلّه ولم يعرفوا قيمة الأشياء الثمينة، اكتفوا ببضعة ثريّات زجاجيّة رخيصة الثمن. باع كلّ ما في محلّه وهاجر إلى دبي. لم يناقش أمّي بسعر الصندوق، دفعت فيه ألفًا ومئتي ليرة، حملته بفرح إلى منزلها، غير مدركة أنّه سيصبح مستودعًا جيّدًا وشاهدًا على حرمانها الطويل، وضعته في غرفة نومها التي تحوّلت في ما بعد إلى مملكة خاصّة

تعبق برائحة بخور وعطور ثقيلة توحي بالنعاس وقتل الرغبة. رمت في الصندوق صورًا حميمة تبدو فيها مبتسمة ومتفائلة، فاردة شعرها الطويل وناظرة إلى المستقبل بطمأنينة. فوجئت بأنّ خزانتها لم يضف إليها منذ رحيل أبي إلّا الأثواب الخشنة وطقومٌ توحي بأنّها معلّمة محترمة في مدرسة تحتفي بالجدِّيّة والقسوة، ربطات شعر داكنة، وقمصان بنّيّة غامقة، وأحذية زحف كأحذية العجائز، لم تعرف لماذا احتفظت بكلّ هذه الأشياء لفترة طويلة، كما لم تعرف لماذا تُخرج الآن قميص نومها الحريري المزخرف بدانتيلا غالية الثمن. مجرّد ارتدائه كان يثيرها ويُعيد لجسدها الإحساس بطعم الحياة.

خرجت من الحمّام في الصباح الباكر، تمهّلت في استعدادها لتغيب عن المدرسة للمرّة الأولى في حياتها دون إذن. خرجت من المنزل مبكرة، أحبّت ترك ظلال الليل على جسدها، أثقلتها العناوين. مرحةً ترجّلت من سيّارة تاكسي في وسط المدينة. وجدت مقهى أمام الحديقة العامّة فتح أبوابه للتوّ، جلست للحظات، انتابها الخوف، الوحشة ملأت قلبها، بردَ جسدها حين رأت حطام مدينتها من زجاج المقهى، كأنّها ترى المدينة لأوّل مرّة في مثل هذا الوقت. حلمت لأيّام طويلة باستعادة علاقتها مع جسدها الميت، رغبت بالتمدّد قرب رجل يحتضنها بقوّة ويتركها مبعثرة إلى قطع من رغبة لمرّة واحدة، أنَّبتْ نفسها على فرص كثيرة حاول فيها رجال كثيرون الإيحاء إليها برغبتهم الشديدة بها، حدّثوها عن شوقهم إليها، عن روعة صمتها الذي يحبّونه، تساءلت إن كان حبّ رجلٍ لصمتِ امرأة معناه أنّه يحبّها، وتساءلت أيضًا

عن معنى انتظار رجل لامرأة في الصباح الباكر، كما عرض عليها ذات يوم رسّام شهير اعترض طريق عودتها من المدرسة، أخبرها بأنّه ينتظرها صباح الغد في مرسمه، تركها ترتجف وغادرها. . «وصل متأخّرًا»، قالت لنفسها، أقنعت نفسها بأنّ كلّ الرجال لا يتشبّثون أو يبذلون أيّ جهد لإرضائها، يكتفون بدعوتها إلى السرير ولا يكرّرون الدعوة، نهضت ولم تجرؤ على الذهاب لملاقاة الرجل الذي ينتظرها قرب باب الحديقة، رغبت بالبوح لناريمان عن رغبتها الضائعة، لكنّها خافت.

كلّ ما عاشته أمّي حالة عبث لم نستطع استيعابها. تناقشنا نحن الثلاثة في وضعها، التقينا في مقهى خارج المنزل، لم نصل إلى أيّة نتيجة، شعرنا بأنّنا صغار وعاجزون. سرنا صامتين في الشارع المؤدّي إلى منزلنا. اختنقت سوسن بدموعها. رشيد تركنا عند أوّل مفترق وذهب إلى منزل نزار، تمدّد في الصالون على الصوفا وغرق في نوم ثقيل، لم ينهض منه حين خرج نزار مع صاحبه الجديد مدحت من غرفة النوم، ذهبا إلى الحمّام للاغتسال، تعالت أصواتهما بمرح تحت ماء الدش الساخنة، تراشقا بالصابون وخرجا من الحمّام ملتصقَين، ملتفَّين بمناشف نظيفة، يعدّان إفطارهما قبل ذهاب مدحت إلى عمله في مديريّة الماليّة جابيًا للضرائب. نزار يودّعه على الباب بغنج، يرتّب له ياقة قميص أحضره له خصّيصًا من بيروت مع ألبسة غالية أخرى باعها مدحت لمحلّ ألبسة مهرّبة في العزيزيّة بثلث ثمنها. جلس نزار متفائلاً بأنّ مدحت لن يهجره، ينتظر استيقاظ رشيد الذي أخبره دون مقدّمات أنّ أمّي تهذي وستفقد عقلها. لم يعد أمامنا

سوى الاعتراف بحقيقة لم تفاجئ نزار. تابع الاثنان أحاديث غير مكتملة ببرودٍ أحسّ رشيد أنّه يخنقه، لبس ثيابه على عجل وخرج من منزل نزار. أحسّ بوطأة تمدّد أمّي تحت تأثير الحبوب المنوّمة وهذيانها، أو تقييدها بسلاسل حديديّة كي لا تهرب إلى الشوارع، تراءت له صورتها القديمة جالسة قرب النافذة، تراقِبُ حقولَ الخسّ وأشجار الكرز اللامتناهية بأمل كبير، تهزّ رأسها برضى حين يغرق رشيد بعزف مقطوعات صعبة للكمان، تدندن معه مقطوعات تحفظها عن ظهر قلب، صور غزيرة كشلّال مطر داهمت ذاكرته فجأة، جعلته يفكّر مرّة أخرى بالبحث عن الكائن الذي كانته أمُّنا. قرّر العودة إلى منزل العائلة والعيش مع الألم، خطرت له بضع جمل موسيقيّة تصلح مدخلاً لمقطوعة تتحدّث عن الغثيان والضجيج الذي كان سببًا بهذيان أمّه، دندنها وعرف أنّها جملة من سيمفونيّة بيتهوفن التاسعة، عاد إليه إحباطه، مرّ على بار إكسبريس، طلب كأس ويسكي مع الصودا، متجاهلاً سؤال النادل عن نزار، وشتم صاحبه الجديد مدحت، غرق في صمت البار في هذا الوقت من الظهيرة، يحاول استجماع أفكاره وصوره المشتّتة. شعر بضعفه الشديد وغربته عن المكان، تحسّس جسده للمرّة الألف، أحسّ حموضة في معدته. خرج من البار واتّجه مباشرة إلى منزل نزار. لملم أغراضه القليلة وعاد إلى منزل العائلة.
بهدوء استعاد سريره في غرفتنا، شعر بتشتُّتِنا، أنا أبحث عن معنى جديد لحياتي بعد تخرُّجي في كلِّيّة الآداب وإنهائي خدمة العلم، أقضي وقتي في ترجمة بيانات ماليّة ومراسلاتِ معمل نسيج تعاقدْتُ معه كمترجم بالقطعة، سوسن ضجرت من الحجاب والألبسة الثقيلة، تخرج إلى الصالون بقمصان نومها الشفّافة،

تسأل عن أمّي وتعود دون أن تنتظر إجابة أحد، في ليالي الشتاء تعود إليها حمّى أشواق منذر، تتمدّد عارية على سريرها وتخاف لمس أعضائها الملتهبة بالرغبة، تغرق في أحلام يقظتها من جديد، تتذكّر كلمات رفيقاتها الجدد عن الحلال والحرام. بعد سنتين قضتهما في الجامعة تحاول الانسجام مع رفيقاتها المحجّبات، أحسّت بغربة كبيرة وشوق كبير لخلع ثيابها الثقيلة. بعد ترفُّعها إلى السنة الثالثة قضت الشتاء بأكمله تحاول البحث عن خلاص وأمان مفقود، تتبادل النظرات مع نسورها الثلاثة ليلاً، تفكّر بأنّها مومياء محنّطة وتشبههم. قاسمتني حياتي الموازية دون أن تدري، تحاول التخلّص ممّا علق في روحها وجسدها من روائح الحزب والمظلّيين وسنواتها الماضية.

تذكّرت لقاءها الأوّل مع منذر، أتى في زيارة مع القائد لتفقُّد أحوال معسكر المظلّيات اللواتي هتفن بحياته وحياة الرئيس حتى بُحّت حناجرهنّ، كان منذر قربه حاملاً بندقيّته الآليّة وعيناه تجولان في المكان باحتراس ذئب. صافح القائد المظلّيات وشدّ على أكفّهنّ. اقتربت سوسن بخطوات عسكريّة ثابتة من القائدَ حيّته بقوّة، وخطفت نظرها إلى وجه منذر الذي أحسّت بأنّه قريب منها، كأنّها رسمته في أحلام يقظتها. في الليل تمدّدت في خيمتها قرب سرير سهير الدمرداش، وحدّثتها عن عيني منذر بشغف ونظرتهما الطويلة التي تبادلاها. عرفت بأنّ كلّ بنات المعسكر تحدّثن بالرغبة ذاتها عن مرافق القائد الوسيم. أبدت في الأيّام التالية نشاطًا كبيرًا، لم تستغرب زيارته مرّة أخرى للمعسكر. بحث عنها وترك لها رقم هاتفه في دمشق، منحها امتيازًا تنتظره أغلب مظلّيات دورتها،

أحسّت بسعادة غامرة وحفظت الرقم عن ظهر قلب. لم تحدِّث أحدًا عن لقائهما الأوّل.

في الإجازة الأولى طلبت رقمه وانتظرت، لا أحد يجيب. بذلتها العسكريّة المموّهة تكسوها الغبار، جسدها يشتاق إلى حمّام ماء ساخن، أعضاؤها متعبة بعد خمسة عشر يوم تدريب عسكري شاق. سارت في شوارع دمشق التي لا تعرفها، ضاعت في الأزقّة، تناولت سندويتشات وعصائر بملل، جلست في مقاهي قرب زبائن تجاهلوا حضورها ونظروا إليها باحتقار خفي، أحسّت بغربتها. طلبته أكثر من عشر مرّات من أمكنة مختلفة. انتصف الليل وسوسن تسير بمفردها في الشوارع، لا تعرف ماذا تفعل في مدينة غريبة. فكّرت بالعودة إلى المعسكر القريب من دمشق، دخلت مطعمًا رخيصًا في الكراج يضيّع فيه المجنّدون وقتهم بانتظار باصات تقلّهم إلى مدنهم البعيدة. بعد منتصف الليل أتاها صوته من الطرف الآخر، قالت له إنّها فقدت الأمل في العثور عليه، طلب منها عدم مغادرة مكانها، اصطحبها بسيّارته إلى منزله دون أن تعترض، استحمّت وارتدت إحدى بيجاماته، طلب لها عشاء فاخرًا من المطعم وتحدّثا حتى الصباح عن طفولتهما. تركها ودخل إلى غرفة نومه، تمنّعت عن ممارسة الجنس معه في الأشهر الأولى لعلاقتهما، قرّرت أنّها لن تكون فتاة رخيصة كالتي يلتقطهنّ من البارات والشوارع. بعد تخرّجها في دورة المظليّين استمرّ بملاحقتها، بعد ستّة أشهر سافرت إلى دمشق، فاجأته بطلبها أن يجعل منها امرأة، أحبّت طفولته وأحاديثه التي لا تنتهي عن عائلته الفقيرة في جبال مصياف. ينسجان قصّة حبّ مجنونة، اعترف لها

أنّه لأوّل مرّة يشعر بالشوق إلى امرأة، ذهبت برفقته إلى عشاء خاصّ مع القائد الذي نظر في عينيها وأثنى على ذوق مرافقه الشخصي، أهداها مسدّسًا مطليًّا بالفضّة، كان فخرًا بالنسبة إليها، تضعه على خصرها وتدخل إلى منزل الرفيق فوّاز، تأمره وإخوته بالكفّ عن الضجيج، منتقمة من إهاناتهم لأمّها. يصمت إخوة فوّاز ويحاولون استرضاءها، أحسّت أمّها بالرضا لبعض اللحظات، تسير سوسن مع رفيقاتها في شوارع حلب فخورات ببدلاتهنّ المموّهة وقدرتهنّ على اختراق كلّ القوانين، يدخلن إلى المدرسة، يتجوّلن في الممرّات، يخبطن أقدامهنّ بقوّة حين ترديد نشيد الحزب، يتفنَّنَّ بمعاقبة أعدائهنّ، أمرهنّ القائد يوم تخرّجهنّ في دورة مظلّيات الحزب بانتزاع أغطية رأس الفتيات المحجّبات في شوارع دمشق، انتشرن كنمل في الطرقات، يوقفن السيّارات، ينزعن الأغطية عن رؤوس النساء، ويتحرّشن بالرجال، يبصقن على أيّ أحد يعترضهنّ، دبّ الذعر في المدينة، وفي الأيّام التالية أصبحت العاصمة مكانًا شبه مهجور.

أشواقها تجعل منها امرأة مجنونة، تطلب منه الحضور إلى حلب فورًا، يتحرّق للقائها. طلب من القائد إرساله في مهمّة إلى حلب، تفهّم القائد رغبته وكلّفه بالإشراف على شؤون المظلّيين هناك. أحسّ للحظات بحاجته إلى جنونها، تفاجئه جرأتها، يغرق أكثر في عطورها التي يقبلها كهدايا من تجّار كبار مقابل تسيير مصالحهم مع الدولة، تتدفّق الأموال على منذر الذي اشتهر في حلب، يصطحب سوسن إلى المطاعم الفاخرة، يقبّلها أمام الجميع، الزبائن يغضّون نظرهم، بدت لهما الحياة هانئة إلى درجة

أنّها لن تنتهي، قلائد فضّة وأساور ذهب، وألبسة فاخرة تكدّسها سوسن في خزانتها وسط نظرات الغيرة الشديدة من رفيقاتها المظلّيات اللواتي حاولن إغواء منذر، صدّقن أنّه مغرم بسوسن ذات الجسد الأسمر المشدود كحقل قمح ناضج تموجُ سنابله تحت شمس حارقة. في الليل تنفلت بين يديه كسمكة، تتنهّد وتذيقه مرّة أخرى طعم أنثى لا تُنسى، أشهر قليلة عاشها الاثنان مستسلمَين لحب جارف. أدخل لها الأجوبة إلى قاعة الامتحانات كما فعل أغلب المظلّيين، ولم يجرؤ المراقبون على اعتراض طريقهم.

تتحسّس جسدها المثقل بألبسة ثقيلة، تشعر بغربتها عن المدينة وزملائها في الجامعة، تبحث عن طعم عذريّتها المستعادة، تخبرني بأنّ رائحة الفطيس تفوح من مساماتها حين يعرق جسدها، تصلّي كي يرحل الشتاء، تتراءى لها أحلام يقظتها من جديد، تشعر بمرح مفاجئ أثناء جلوسها في قاعة الصفّ، مراقِبة زميلاتها اللواتي تحاشين الحديث معها في الماضي خوفًا من مسدّسها وبذلتها المموّهة، والآن تبدي فتيات قسم اللغة الفرنسيّة قرفهنّ من رائحة عرقها، تأتي بالفتيات المرتديات تيّورات أنيقة كأنّهنّ في عرض أزياء إلى سريرها، تعرّيهنّ وتتبادل معهنّ القبلات، تجمعهنّ في مشاهد جنس جماعي كالتي أدمنت مشاهدتها في دبي مع رفيقاتها، تعترف بأنها اشتاقت إلى حلمها القديم أن تصبح ممثلة بورنو شهيرة يحتفظ رجال العالم بصورها العارية، ويستمنون على وقع مشاهد تؤلّفها في أحلام يقظتها. مشاهد فلّاحة جميلة من العصور الوسطى تعيش وحيدة وتستقبل ثلاثة رجال لا يستطيعون السفر، أحدهم منذر، تأمرهم بالعناية بأحصنتها، وتضاجعهم على أكوام القشّ.

أحلام يقظتها عادت إليها قويّة، واضحة لا تتركها. تخبرني بأنّ أحلام اليقظة جحيمنا الذي يلاحقنا، أهزّ برأسي موافقًا، خلاصها أصبح مستحيلاً. غرقت في عفونة منزلنا الذي بدأت الرطوبة تغزوه، أمّي تتشكّى من نقص الأوكسيجين في الهواء، تسير ببطء سلحفاة عجوز، أحضر عوازل رطوبة من محلّات جادّة الخندق، تتبرقع بعد عدّة أسابيع، لا مفرّ من العيش مع طحالب بدأت تنمو في زوايا الصالون وغرف النوم.

لم تعد سوسن تكترث، وقفت أمام المرآة، تأمّلت جسدها من جديد، شعرت أنّ خلاصها بمغادرة هذا الجحيم كما سمّته، كرهت الجامعة ومقاصفها ودروبها، كرهت طلّابها وأساتذتها الذين يتحرّشون بها، يتعاطون معها كعاهرة تائبة، تتمنّى في لحظات لو تستعيد مسدّسها هديّة القائد كي تدخّل إلى القاعة، تفتح النار على نضال الأحمد، أستاذ الأدب الفرنسي الحديث الذي كان رفيقًا حزبيًّا وابن عمّ ضابط مخابرات كبير كان يفاخر بدوره في مجزرة حماه، أوفدته الدولة ستّ سنوات إلى فرنسا، لم يستطع بعدها التفريق بين موليير وآلن روب غرييه، يتحدّث بفرنسيّة تليق بطالب ثانوي كسول، يعترض طريقها ويطلب لقاءها في مكتبه، تأتي في موعدها. يحدّثها عن ماضيها الذي يعرفه، يُبدي أسفه لتحوّلها إلى امرأة مهزوزة الثقة، يطلب منها بلطف خلع الحجاب والمعطف والاسترخاء في شرب القهوة، يغلق الباب بالمفتاح ويخرج عضوه من فتحة البنطلون بثقة، تتجاهل طلبه وتنهض لتخرج، تجده وراءها يمسك بها من ثدييها ويحكّ عضوه في مؤخّرتها، شاتمًا منذر الذي خطفها منهم جميعًا، يصفه بالخائن وسوسن لا تتحرّك، يقذف على

ثيابها وبنطلونه. قدّمت شكوى رسميّة بحقّه إلى رئاسة الجامعة، استدعاها الرفيق جابر وأخبرها أنّها متّهمة بإغواء الرفيق نضال الأحمد، ساردًا عليها تاريخها الداعر المشبوه، يطالبها بالاعتذار للأستاذ نضال وإلّا سيتّخذ بحقّها الإجراءات القانونيّة. تبصق على الرفيق جابر وتخرج من مكتبه. تنظر إلى أمّي الممدّدة بصمت في سريرها كقتيلة، تنظر إلى رموشها وشفتيها اللتين لا تتوقّفان عن الحركة، تتذكّر كلمات الرفيق جابر الذي كان يدخل إلى منزلنا طفلاً خجولاً، يقاسمنا ألعابنا التي أصرّت أمّي على وجودها في حياتنا، دببة وأحصنة من خشب، قطارات تصدر صفيرًا وتتحرّك بقوّة زنبرك مشدود، سوسن لم تَخَفْ منه طوال حياتها، بقيت كلّما رأته تبصق عليه، تعيِّره بعائلته التي كانت تبيع الذرة المسلوقة في شوارع الأشرفيّة أصحبت الآن تتاجر بالحديد المهرّب من لبنان والقوّادة لضبّاط المخابرات الصغار والكبار، تتقاسم الأرباح مع أبناء مشايخ السلطة. جابر يخاف من جنونها وعلاقاتها الخفيّة. تحسّ بتعاطف كبير مع جسد أمهّا حين يكون ساكنًا كمياه راكدة، تعود إلى كراهيّتها حين تستيقظ بضع ساعات من نوبات هذيانها وتسأل عن نباتاتها، وناريمان لم تعد تأتي لزيارتهم، كي لا تفسد متعة تشفّيها بصديقتها التي كانت متكبّرة طوال عمرها. يعود كلّ شيء إلى طبيعته في المنزل، تُعيد تذكيرهم بأنّ الروائح التي يحضّرونها معهم من الشوارع كافية لإفساد الهواء النظيف، تلمّع أعمدة الأسرّة وتنفض الغبار عن الكنبات. لا يطول وقت صحوتها حتى تغرق في هذيانها من جديد.

فكّرت بأمّي حينْ تعود إلى صحوتها، يستيقظ حنينها لأشياء

قديمة، تؤنّب سوسن المرحة على إهمالها لنباتات الصالون، تسير متمهّلة في المنزل المظلم، تتشكّى من جفاف حلقها ويباس أطرافها، تستنجد بالخلاص من تفحّم القصبات، تتحدّث مطوّلاً عن هواء البلاد الفاسد، لا أحد يسمعها. تنظر إليها سوسن وتغادر كما لو كانت وجُدت في المكان الخطأ، تندب حظها العاثر وتتوقّف عند صور قديمة لم تعد تعني شيئًا لأحد. تقول لي سوسن مشيرة إلى أمّي: تريد أن تموت لكنّها لن تموت.

تحقّقت نبوءة سوسن، كانت تقول: أمّي ستموت وحيدة، لأنّها لا تريد لأحد أن يرى امرأة متكبّرة تلفظ أنفاسها الأخيرة. لم أفكّر في تلك اللحظة بما كانت تقوله سوسن في الأشهر الأخيرة، غيّرت رأيي وفكّرت بالدفن وطقوسه، للمرّة الأولى نقوم بدفن شخص قريب منّا إلى هذه الدرجة.

الفصل الثاني

عنق ملوكي وحذاء أحمر

لم أسأل كيف حدث الموت. عرفت أنّه حدث أوّل المساء، وهو وقت غير مناسب. غالبًا ما يموت الناس قبل الفجر أو آخر الليل، بطريقة توحي بأنّ النوم لولا أحلامنا بروفة للموت الذي غالبًا ما يتحقّق في عائلتنا بطريقة غير متوقّعة. جدّي لأمّي جلال النابلسي عاش سبعة وثمانين عامًا، وفي ذكرى يوم الاستقلال العشرين ارتدى بذلته الجديدة، وبهدوء رجل يحبّ الأفعال المكرّرة، علّق كلّ أوسمته وشارة السكك الحديديّة، وقبل الذهاب كعادته للاحتفال مع رفاقه باستعادة نضالات أبناء جيلهم في حفلة سنويّة يحضرها كلّ الرفاق يليها تناول غداء فاخر في مطعم الأندلس بعد وضع إكليل من الورود على ضريح المجاهد إبراهيم هنانو، بملابسه الرسميّة وكامل أوسمته، عرَّج على محطّة بغداد ليرمي السلام على موظّفين سئموه، فلم يمدّوا أيديهم لانتشاله حين فقد توازنه على الرصيف الأوّل ليموت تحت عجلات قطار بضائع بطيء. جدّتي لأمّي بهيّة الكاتبي، هي الأخرى قبل أن تكمل الخمسين من عمرها ماتت من الضحك، وبقيت جثّتها على كنبتها العريضة ساعات مبتسمة لا يجرؤ أحد على تصديق فعل موتها،

ينتظرون أن تكمل ضحكتها التي لم تنته، لكنّها لم تفعل. وحين استرخت ملامح وجهها، وقفت أمّي التي لم تكمل الثالثة عشرة من عمرها أمام جثّة أمّها الثقيلة، فكّرت بمشقّة دفنها، كما فكّرت بأنّها لم تخبرها ببلوغها، ولم تؤنّبها لعدم اهتمامها بما أخبرتها عنه مرارًا، أصبحت امرأة وتذكّرت حلمًا لم يفارق طفولتها بأنّها بجعة تطير، تشبّثت بحلمها، اعتبرت موت أمّها في نوبة ضحك طويلة غيرَ آسفةٍ رسالةَ القدر إليها، وقدّرت بأنّ خطأ تشبّث جدّتي الحالمة بمكانها قادها إلى موتها المرح، قرّرت كأنّها تقسم بينها وبين نفسها بأنّها بجعة لن تسمح لعفن الثبات بالتغلغل تحت جلدها الناعم.

حدّثت نزار في الليالي الطويلة التي قضاها الاثنان في آخر سنوات عمرها عن حلمها بالتحوّل إلى بجعة، أكملت بأنّ أمّهما كانت غير مبالية. تساوت لديها خيارات الحياة مع الموت بعد زواجها من جدّي جلال النابلسي الذي لم يرفع عينيه لينظر إليها ولم يطالب بحقّ الخلوة الشرعيّة. منذ اللحظة الأولى بدا لها خروفًا لامباليًا، تقوده عائلته لإكمال واجب يجب أن يتمّ بسرعة ودون جلبة، ليعود مرّة أخرى إلى عمله مع المسيو هنري سوردان الذي أفسد عقله برسوم قديمة لقطارات ومخطّطات محطّات رائعة مزيّنة بتماثيل رخاميّة لآلهة يونانيّة. يكرّر جدّي الحديث عن بحث طويل منشور في مجلّة «بيرسبكتيف» المعماريّة الشهيرة، ينتقد فيه هنري سوردان النظريّات الجديدة في بناء المحطّات من حديد وزجاج، ويطالب في كتب رسميّة ونداءات استغاثة يرسلها إلى مسؤولي بلديّة باريس بالوقوف ضدّ ثقافة جديدة ستدمّر الذوق العامّ، واصفًا المحطّة برحم المدينة، مطالبًا بوقف الاستهتار الذي يدافع عنه

مهندسون شباب لا يفرّقون بين الفخامة المطلوبة في هذه الأماكن لتبقى خالدة كأكروبول أثينا وبين بناء مراحيض موقّتة لجنود الحملات العسكريّة.

يفتح المسيو هنري سوردان الخرائط ويشير بعصا صغيرة إلى مخطّطات المحطّات التي يحلم ببنائها في أرجاء سوريا بعد اكتمال شبكة السكك الحديديّة التي يرغب برؤيتها تصل بغداد بباريس عبر حلب ـ المركز الذي يجب أن تتفرّع منه لتصبح قلب العالم كما تستحقّ، مهاجمًا مسؤولي الخطّ الحجازي في دمشق الذين يولّون الجانب الجنوبي الواصل إلى المدينة المنوّرة كلّ العناية اللازمة، مهملين خطّ حديد بغداد ـ حلب ـ إستانبول.

تدمع عينا جدّي جلال النابلسي، وينظر بإجلال إلى المسيو هنري سوردان الذي كرهته جدّتي في قرارة نفسها، لأنّه يشبه رجلها المثالي الذي لم يفارق أحلام يقظتها بطوله الفارع وثقته بنفسه، يتحدّث بهدوء وعيناه شاردتان في مكان آخر. خافت من غوايته، لا تريد إيقاظ حنينها عبر نسخة واقعيّة ومملّة لرجل لا يحبّ الضحك، وإن كان أكثر دماثة وجاذبيّة حين يتحدّث بجدّيّة عن المحطّات وأنواعها، ورغم رجاءات جدّي المتكرّرة لم تسمح باستضافته في منزلها الذي أحسّت به منذ أيّامها الأولى مكانًا مثاليًّا للكراهية، مقرفًا تفوح منه رائحة زيوت معدنيّة وبراغي القطارات.

تشرد جدّتي بعيدًا رغم ضجيج مستأجرات منزل صديقتها تريز. تتوقّف عن مرحها وضحكها، تبعثر آلامها، تزداد كآبة كلّما اقترب موعد عودتها إلى المنزل الذي أهملته، تاركة مهمّة ترتيبه لابنتها البكر خالتي ابتهال التي ورثت عن عمّاتها أنفًا يشبه منقار

غراب ممدود ببشاعة، وإعجابًا لامتناهيًا بتفاصيل الحياة العثمانيّة.

بالغت ابتهال بترتيب المنزل، أوغلت بنمط الحياة العثمانيّة التي استعارت مفرداتها بتقديس أزعج جدّتي في البداية، ثم تخلّت في قرارة نفسها عن فكرة الاحتجاج أو إعادة كلّ شيء إلى طبيعته، كأنّها تنهي العلاقة التي تربطها بمنزلها إلى الأبد. اعترفت لنفسها بأنّها لم تحبّ أيّ شيء يجمعها أو يخصّ جدّي. لم تدافع حتى عن سريرها حين استبدلته ابتهال بسرير حديدي عال مزنّر بآيات قرآنيّة، وبقربه بيت مصحف مطرّز وعلى الكومودينة البومبيه طاسة نحاسيّة وإبريق ماء رفيع الرقبة بغطاء متحرّك، فكّرت جدّتي بمنزلها كزريبة للنوم وإنجاب الأطفال، لم تكترث وبقيت ضجرة طوال سنوات حياتها، باردة في السرير كأنّها تعاقب جدّي الذي لم يسألها إن كانت تريد العيش معه. اكتفى بالحديث حول القطارات وأنواع المحرّكات، يتحدّث بجدِّيّة وشغف عن مواصفات القاطرة (henschel) معدّدًا مواصفاتها، بإعجاب بخبرهم بقدرتها على جرّ تسع عشرة عربة محمّلة بالحديد والسير بسرعة أربعين كيلومترًا في الساعة، ينتظر دهشتها، إلّا أنّها كانت تنظر إليه باستغراب.

كأنّه في عالم آخر بعيد عن التفاصيل التي تعني أيّ رجل فتح باب منزله متأبّطًا ذراع زوجة بقيت تتساءل طوال عمرها كيف حدث هذا؟ منذ اليوم الأوّل كرهت جدّتي اللاهية كلّ شيء، البلكونة الصغيرة المطلّة على شارع الجميليّة الرئيسي، والغرف الكبيرة المتداخلة، جدّتي أخبرت أمّي بأنّ جدّي لم ينظر إليها كلّ حياته، إلى درجة أنّه لا يعرف إن كانت شامتها تحت أذنها اليسرى أم فوق أنفها، تبصق بقوّة على الصورة التي جمعتهم كعائلة للمرّة الأولى

بعد ولادة أمّي، حاولت جدّتي أن تتحمّس لعنقها الطويل وأصابعها الرقيقة، لكنّها كانت قد وصلت إلى مرحلة اللاعودة مع غربتها الشديدة، التي جعلتها تجول في المنزل طوال اليوم تاركة طنجرة المحشي تحترق دون اكتراث، شاتمة الرجال الخونة الذين لا يدافعون عن حبيباتهم، ويخطفونهنّ على أحصنة كما حلمت بعد رؤيتها أفلام الويسترن وتعلّقها بعالم السينما الذي اكتشفته وهي تدخل الأربعين من عمرها، امرأة سمينة تتحرّك ببطء، لا تستمع إلى نصائح تريز بعدم تناول الدهون، مردّدة أنّه لم يتبقّ لهما سوى ذكريات الضحك مع مستأجرات منزلها، ولعب الورق حتى ساعة متأخّرة من الليل مع ابنتها ابتهال في طقوس عثمانيّة مبتكرة، تحضّر ابتهال الشايدان والمكسّرات ولوح التسجيل الثقيل، تغطّي الطاولة بغطاء مطرّز، وطبعًا لا تنسى موسيقى فرقة السلطانيّة التي تعزف ألحانًا موغلة في القدم. تبدآن اللعب بهدوء وتتحدّثان بهدوء عن أنساب العائلات وتتأفّفان من زواج أبناء العائلات الكبيرة من بنات عائلات ريفيّة.

اكتفت تريز بأسرار قليلة لم تحدّث أحدًا عنها سوى نزار. كان يزورها دومًا ويقضي الوقت مع الفتيات المستأجرات في آخر أيّامها، كما حين كان طفلاً ومراهقًا وشابًّا صغيرًا يجول بينهنّ ويدخل غرفهنّ دون استئذان، يعزف لهنّ على كمانه ألحانًا سريانيّة، يلكزهنّ برقّة كرفيقات ويجرّب حمرة شفاههنّ، تصرّفه هذا يرعب جدّتي التي تراقبه وتخضع لبكائه فتربط شعره بشرائط ملونة كالفتيات. لا تستطيع رفض طلبه بمرافقتها إلى منزل الستّ تريز التي بقي نزار صديقها الوحيد، يزورها في أيّ وقت، يحمل

لها صدور ديوك حبش وبسطرمة يشتريها خصّيصًا لها من محلّات سيروب. أحيانًا يدسّ في يدها نقودًا قليلة. ساكنات البيت المتجدّدات يعرفن نزار جيّدًا، يسألنه عن ماركات الكريمات الجديدة، يفردن أمامه ألبستهنّ الداخليّة، يسمعن انتقاداته الحادّة على إصرارهنّ على الدانتيل الرخيص الذي لا يستطيع امتصاص سوائلهنّ حين يتهيّجن، ولا يتعطّر برائحتهنّ التي يجب أن تبقى في أنوف عشّاقهنّ بعد مغادرتهنّ سرير الحبّ.

حين كنت صغيرًا رأيت الستّ تريز. اصطحبها خالي نزار لزيارة أمّي. استمعت إلى عزف رشيد وتناولت الغداء معنا. لم نفهم وقتها سرّ حفاوة أمّي بهذه العجوز التي تدخّن بشراهة، أسنانها صفراء غامقة وصوتها غليظ كالرجال، وتحتاج إلى ذراع نزار كي تسير خطوات قليلة، مرّة أخرى رأيتها في منزل خالي نزار. وضعت أخي رشيد في حضنها، مسَّدت بيدها على شعره ونزار عزف من أجلها مقطوعة تأثّرت بها كثيرًا، دمعت عيناها حين أخبرها بأنّها معزوفة مكتوبة خصّيصًا للتشيلو والكمان وعنوانها «الستّ تريز ذات العنق الملوكي والحذاء الأحمر» مذكّرًا إيّاها بحذائها الأحمر ذي الكعب العالي، الذي لم تعد ترتديه بعد اعتزالها الخروج إلى السهرات التي تُدعى إليها في منازل عائلات غنيّة من أصدقائها قبل أن تفقد حظوتها وتصبح عجوزًا لا يكترث أحد بها، يمازحها نزار بأنّ المقطوعة تحيّة إلى ذكرى حبّها الصامت، إذ لا يعقل أنّ هذه المرأة عاشت كلّ هذه السنوات الطويلة دون قصّة حبّ صامتة، يضيف نزار أنّها من ضمن مقطوعات مجموعته «ظلال الندم» ويصمت كي لا يخبرها باقي

التفاصيل التي يعرفها رشيد بمفرده. عرفت كلّ شيء من خالي نزار حين رأيته يبكي بحرقة، وهو يستمع إلى مقطوعات يبثّها الراديو تعزفها أوركسترا برلين، وخصوصًا مقطوعته المكتوبة لآلات النفخ المعنونة بظلال الندم.

المرّة الأخيرة التي رأيت فيها بيت الستّ تريز كان يوم اصطحبتني أمّي من يدي. وقفنا أمام كنيسة مار آسيا مع أناس قليلين لتخرج جنازة امرأة فقيرة، سمعت الأطفال يردّدون أنّها الستّ تريز التي ماتت ليلة أمس وتبرّعت بمنزلها للكنيسة التي طردت المستأجرات. رأيت ماري التي ما زلت أذكرها تهدّد خوري الكنيسة برفع دعوى فروغ على الكنيسة وتتساءل أين ستذهب بعد ثلاثين سنة قضتها في هذا المكان. بكت أمّي بحرقة، رافقت الجنازة مع مشيّعين قلائل إلى مقبرة الأشرفيّة لدفن تريز في قبر أرادت أمّي زيارته بعد سنوات فلم تعرفه، كما لم يتعرّف حارس المقبرة الجديد عليه.

كانت أمّي تجول على رؤوس أصابعها في منزل تخيّم عليه ظلال المساء المتسرّبة من النافذة، كلّ ما فيه يوحي بطمأنينة دائمة، كنبات مجدّدة وسقوف عالية، روائح عطرة، مناظر طبيعيّة مرسومة بألوان زيتيّة متناثرة بنظام على جدران الصالون الواسع، راديو «فيليبس» أصبح الآن قديمًا استطاع نزار إقناع أخيه عبد المنعم بالتغاضي عنه وعدم تسجيله في قائمة أشياء العائلة التي تقاسموها بعد موت جدّي تحت عجلات قطار البضائع البطيء.

أحبّت أمّي شوارع حلب النظيفة ومساءاتها الهادئة. تُعيد مع جدّي نفض الغبار عن شجرة العائلة المعلّقة في صدر الصالون،

تفخر بانتسابها إلى عائلة استوطنت حلب منذ ألف سنة، بحثت عن أجداد وأعمام لم ترهم إلّا في مناسبات عابرة، في عزاء أبيها الذي وصلته متأخّرة، لم ترهم واقفين بطقومهم النظيفة يتلقّون العزاء بوفاة قريب كرهوا أطواره الغريبة وتعلّقه بقطارات أصرّ على الموت تحت عجلاتها.

ببرود غادروا المنزل، شدّوا على أيدي خالي عبد المنعم الذي وافقهم حين شتموا نزار وهزّ برأسه غير راضٍ عن رغبته بتلقّي عزاء أبيه في مخادع النساء، ومجاهرته بإحساسه أنّه امرأة خلقت في لحظة فاصلة رجلاً نتيجة خطأ من الله. خالتي ابتهال طالبت بحبسه أو قتله بلهجة متعالية، معتقدة بأنّ شجرة عائلة أهلها المعلّقة في صدر غرفة أبيها تعود إلى سلالة النبي. تفاخر بكتب أجدادها الصفراء المحفوظة بعناية في زاوية الشيخ عبد السلام قرب حمّام باب النصر.

بعد العزاء تلاشى كلّ شيء. تقاسم نزار وابتهال وعبد المنعم أغراض المنزل، تركوا لأمّي بقايا كراسٍ مكسورة وطناجر نحاس صدئة تحتاج إلى تبييض، وبضعة فرش قديمة مهلهلة ولوحة سخيفة لنوافير ماء لم تستطع بيعها بخمسين ليرة. تركت كلّ شيء وراءها، وطلبت من نزار طاحونة قهوة نحاسيّة قديمة كانت تفاخر جدّتي بإحضارها أثناء رحلتها الوحيدة إلى إستانبول أواخر الثلاثينيّات من القرن العشرين، بقيت تتحدّث عنها طوال سنواتها الباقية قبل أن تموت من الضحك.

لم يتمسّك نزار بأيّ شيء سوى بالراديو الذي كان رفيق طفولته، يتجوّل بين محطاته باحثًا بشغف عن مقطوعات فيفالدي

وموزارت وشوبرت وموسيقيين غربيين. شغفه بأعمالهم قاده للانضمام إلى دروس أحمد المبيّض الذي علّمه الإصغاء إلى ذاته بعمق. ببساطة عزف نزار مقطوعة معقّدة بعد شهرين وتنقّل بين الآلات، كانت الموسيقى تجري في دمه، كما أخبره معلّمه أحمد المبيّض الذي عاد من برلين بعد نشوب الحرب العالميّة الثانية، ينتظر كلّ يوم نهاية الحرب ليعود مرّة أخرى إلى أوركسترا مدينة أحبّها وعشق أبنيتها الضخمة. كان ينظر بأسى إلى صور دمارها في صحف فرنسيّة يقرأها بانتظام رغم وصولها متأخّرة شهرًا إلى حلب، يتبادلها مع رفاق قلائل يجتمعون كلّ مساء في مقهى صغير قرب مدخل شارع التلل، يحتسون النبيذ ويتحدّثون بلغات أجنبيّة مع ضبّاط فرنسيين يقيمون حفلات في منازلهم كلّ يوم خميس، ويتحدّثون طوال الوقت عن عشقهم للطعام الحلبي.

انضمّ الطفل نزار إلى حفلات الخميس. تلقّى الثناء والحلوى والأسطوانات من زوجات ضبّاط فرنسيين أغرمن بأصابعه حين يتنقّل بين الكمان والتشيلو والفلوت بسهولة، بالشغف نفسه يعزف لساعات طويلة، يغادر آخر الليل مع معلّمه أحمد المبيّض الذي يترك في يده بضعة فرنكات يصرفها نزار ثمنًا لأشرطة حريريّة ملوّنة يربط شعره الطويل بها، يسير مبتهجًا في الصالون، مستعرضًا أنوثته المبكرة التي صدمت عائلته المولعة بالجلوس إلى مائدة الطعام والحديث عن الأخلاق الفاضلة.

بعد بلوغه، أحسّ بطيف يخطف بصره، مجموعة أحاسيس شبقه حوّلته إلى امرأة تشعر برغبة لا يعرف سرّها، ينتظر خروج ابتهال من غرفتها، يفتح خزانتها ويخرج تنّوراتها القصيرة، يرتديها

ويجلس ساعات أمام المرآة، يضع أحمر شفاه ويضطجع على سريرها يتحسّس جسده، يستدعي صور رجال يقصّها من مجلّة «المصوّر» المصريّة التي يحضرها أبوه بانتظام. بقيت الصورة الأثيرة لديه للرئيس جمال عبد الناصر في خطبته الشهيرة يوم تأميم القناة، تخيّل نفسه لفترة طويلة عشيقًا للرئيس الأسمر الذي أغرم بصوره، تبادلها مع رفيقه ميشيل وهما يقطعان كلّ مساء طرقات العزيزيّة الفرعيّة، مكملين حديثًا لم ينته طوال خمس عشرة سنة، غادر بعدها ميشيل إلى باريس، وأرسل له صورة يقبّل فيها عشيقه الفرنسي ويحتضنه في إحدى ساحات باريس علنًا.

بكى نزار وقلّب عشرات الصور في ألبوم سرّي لم يره أحد سوى أمّي. صور نزار في بارات بيروت الستينيّات التي عاش فيها سنة كاملة، يصفها نزار لصديقه رشيد بأيّام العسل والهناءة، يُعيد سرد خروجه ليلاً من منزل أهله بحقيبة ملابس صغيرة، تاركًا رسالة طويلة لجميع أفراد العائلة لم يقرأها الأب على مائدة الغداء كما رجاه نزار. شتم فيها جدّه الكبير الشيخ عبد السلام صاحب المقام الذي تأتيه النساء من كلّ أنحاء البلاد ليباركهنّ، لأنّه كان يسرق نقود الفقراء ويتجسّس لصالح الباب العالي على علماء أفاضل، يجول ليلاً مع الجنود الانكشاريين متخفّيًا بثياب امرأة منقّبة يدلّهم إلى بيوت المطلوبين إلى التجنيد في حرب السفربرلك، وصف عبد المنعم بحشرة يتجسّس على أخته ابتهال، ويستمني على رائحة ثيابها في الحمّام، وابتهال التي تترك نافذة غرفتها مفتوحة ليتجسّس عليها ابن جيرانهم وهي تتعرّى ببطء قبل أن تقرأ سورة البقرة وتندسّ في سريرها مثقلة بأثواب نومها العثمانيّة الثقيلة.

كتب بأنّه يكرههم ويحب أمّي، التي وصفها بنسمة عطر، لا تشتمه حين يتمدّد قربها في السرير مرتديًا شلحات الحرير، يحدّثها عن أحلام يقظته وطعم قبلات رجال غليظي الشوارب يشتاق إليها. عشر صفحات كتب فيها نزار سيرته كاملة، لم يُخْفِ شيئًا. اعترف بكلّ ثقة أنّه يحبّ أنوثته، ووصف منزل العائلة بمكان تفوح الكراهية من كلّ زواياه، شتم نفاقهم أيّام الأعياد وتسامح بعضهم مع بعض وادّعائهم الأكابريّة أمام الغرباء، حدّث والده لأوّل مرّة ووصفه بالرجل التافه الذي يهمّه المحافظة على صورته مع المسيو هنري سوردان أكثر من حياته، وأرشده إلى الاعتراف بحقيقة أنّهم عائلة مفكّكة تشبه كلّ العائلات التي لا يهمّها سوى صورتها خارج جدران المنزل، تحدّث بحرقة وألم عن تواطئهم جميعًا على تسليمه للشرطة وحبسه ستّة أشهر بتهمة اللواط بعد عرضه على طبيب شرعي تحسّس مؤخّرته بقرف وأكّد التهمة. قاده شرطيّان مكبّلاً إلى القصر العدلي صباح اليوم التالي، وضعا ملفّه أمام القاضي الذي استغفر الله وأمر بتوقيفه في سجن حلب المركزي. تحدّث عن آلامه بإسهاب حين رمى له شرطي عجوز بطّانيّتين قذرتين ومخدّة محشوّة بالقشّ، قاده إلى مهجع اللوطيين والمتّهمين بجرائم أخلاقيّة. دخل نزار إلى المهجع، جلس قرب الباب تنهشه رائحة خراء فاحت من المهجع المبني على شكل قبّة قديمة. أحسّ بالمهانة وخنقته دموعه بصمت.

نام ليلته الأولى في العتبة، لم يردّ على تحرّش المساجين به، في اليوم التالي أجبره الشيخ جمعة إمام صلاة الجمعة على تنظيف أرضيّة المهجع، وفي الليل قاده إلى المرحاض، اغتصبه بالقوّة

وطلب منه التأوّه كامرأة، محتفظًا به خادمًا يغسل له جواربه ويتحسّس عضوه صباحًا أثناء الوضوء. بكى نزار وحشته، وغرق في صمته طوال الوقت، يكتب على أكياس الورق نوتات موسيقيّة تتحدّث عن الفراق والألم والصمت، أعاد توزيعها بعد خروجه من السجن بكفالة دفعها معلّمه أحمد المبيّض، عاد إلى منزل عائلة تركته لأيدي السجين الشيخ جمعة، المتّهم باغتصاب سبعة أطفال أكبرهم في الثامنة من عمره. استمرّت محاكمته ثلاث سنوات خرج منها بريئًا، بحث عن نزار ليبثّ أشواقه لجسده الناعم الذي يشبه جسد نعامة ويدعوه لمعاشرته في منزله الفاخر في حيّ المحافظة، بصق نزار في وجهه، متذكّرًا قسوة الأشهر التي قضاها بين مجموعة شاذّين لا يعرفون معنى الحبّ الذي كان يبحث نزار عنه بكلّ جوارحه.

دخل إلى منزل أهله بعد ستّة أشهر زائغ النظرات، نحيل الجسد، وتحت إبطه مجموعة نوط موسيقيّة. جلس إلى طاولة الطعام قرب أبيه، استعاد مونولوجًا طويلاً تخيّل في ليالي السجن أنّه سيقف ويلقيه على عائلته متّهمًا إيّاهم برغبتهم في قتله، لم يستطع أن يجيب أباه إن كان السجن قد ربّاه وأعاده إلى الطريق القويم كرجل شريف لا يتحسّس أعضاء رجال يبحث عنهم في الأزقّة المعتمة.

نهض بهدوء وخرج من المنزل، سار في شوارع حلب. شعر بكراهيّة هذه المدينة. عاد ليلاً ودخل إلى غرفة أمّي ولم يخرج منها عشرة أيّام متواصلة، تعود من مدرستها وتحضّر له طعامه على صينيّة ألومنيوم، تشاركه الطعام وتنقل له ندم أبيه على قسوته،

وانجراره وراء رغبة عبد المنعم بقتله والتخلّص من عاره.

يندسّ نزار قرب أمّي في سريرها، يحدّثها عن طعم موت تشهّاه ورغب به طوال فترة سجنه، فحين كان يحلّ المساء في السجن، تطفأ أضواء الزنزانة، تحلّ العتمة وتتصاعد همهمات المساجين، يقترب منه الشيخ جمعة الذي أعلنه عشيقًا مقابل حمايته من بطش السجناء به، وتحويله إلى خادم يغسل ألبستهم الداخليّة بقرف ويشطف المهجع. يضيف بأنّ السجن مكان يشبه الغابة تتصارع فيه الحيوانات على البقاء. إفلاسه وعدم سؤال أهله عنه جعله هدفًا مباحًا للجميع، يبصق عليه الحرّاس كلّ صباح، يتحرّش به السجناء في الفرصة المعدّة للتنفّس. وفي المهجع يطلب منه المساجين تقليد العوالم المصريّات اللواتي يضعن على رؤوسهنّ الشمعدانات ويهززن خصورهنّ وأوراكهنّ العريضة. لم يجد أمامه سوى قبول عرض الشيخ جمعة لحمايته والصرف عليه، يدهن جسده بعطور المشايخ ويقوده إلى زاوية قريبة من المرحاض، يعرّي مؤخّرته ويضاجعه ككلب أجرب لا يجرؤ على رفع صوت بكائه.

تستمع أمّي إلى أحزان نزار وعلى صدرها يبكي برقّة، ينهض ويفرد أوراق الأكياس الورقيّة ويُعيد توزيع مقطوعاته، متحاشيًا الردّ على رجاءات أبيه، ينظر بحقد إلى ابتهال، يسمعها تطلب من أبيها قتله ورميه للكلاب الشاردة، متحمّسة لاقتراح عبد المنعم بطرده من المنزل. يقول نزار إنّه لم يعد يحتمل الحياة وسط كلّ هذه الكراهية، حمل بضع قطع من ملابسه، وضعها في حقيبة صغيرة وغادر إلى بيروت، التي وصلها مفلسًا وجائعًا، تفوح من جسده رائحة يكرهها ويشعر بأنّ رائحة الشيخ جمعة علقت به، يفكّر نزار

أنّ حياتنا مجموعة روائح مغتصبة نقضي عمرنا بأكمله للتخلّص منها. كان يطلب منه الوضوء والتطهّر قبل أن يقوده غصبًا عنه إلى صلاة الجمعة ليؤمّ سجناء باحثين عن الغفران.

جلس في مقهى المودكا، منتظرًا نديم الأغواني الموسيقي اللبناني الشهير الذي لم يتأخّر عن موعده. قدّم نزار نفسه باختصار بأنّه موسيقي مفضّل لدى أستاذه أحمد المبيّض ويبحث عن عمل، تأمّله نديم الأغواني وطلب منه الحضور مساءً إلى مكتبه في رأس بيروت. قضى نزار وقته في تأمّل المارّة والمحلّات، متحسّسًا نوَطه التي ألّفها في السجن، معيدًا إلقاء نظرة أخيرة عليها قبل دخوله إلى مكتب نديم الأغواني، الذي عرف من أوّل لحظة عزف فيها نزار أنّه لا يستطيع احتمال وجود هذه الموهبة العبقريّة في فرقته.

لم يضيّع نزار وقتًا، أخرج إحدى المقطوعات، وعرض بيع عشرين مقطوعة مثّلها مع توزيعها للكونسرفتوار مقابل ثلاثة آلاف دولار. فاحت رائحة المؤامرة من المكتب الأنيق. أرخى نديم الأغواني الستائر، صرف خادمه بعد إحضاره عشاء خفيفًا لشخصين، تأمّل النوَط القليلة، عزف نزار إحداها التي سمّاها «ظلال الندم» على الكمان، وأعاد عزفها مرّة أخرى على الفلوت. لم يحتج نديم الأغواني إلى وقت طويل لتخليص صفقة يدفع بموجبها نديم الأغواني ثلاثة آلاف دولار أميركي مقابل أن يسلّمه نزار النسخ الأصليّة كاملة مع توزيعها للكونسرفتوار، وتعهُّد خطّي أنّه عمل معه كمنوّط لأفكاره العبقريّة، وأن يغيب عن أوساط بيروت الموسيقيّة لمدّة سنة.

في الثمانينيّات اشتهر نديم الأغواني بأغانيه التي تبثّها محطّات

الإذاعة والتليفزيون السوري بشكل دائم، تمجّد الرئيس السوري الذي أمر بفتح أبواب التليفزيون والإذاعة لهذا المرتزق الذي استرخى سنوات طويلة في جناح محجوز بشكل دائم في فندق شيراتون دمشق، يؤلّف أغاني ثوريّة تمتدح الحزب القائد ومسيرته، يصطحب معه من بيروت فتيات صاعدات لمسؤولين أمنيّين يتفقّدون حاجاته بشكل دائم، إلى أن وُجد ميتًا في منزله البيروتي الفاخر في السبعين من عمره. نعته نقابات الفنّانين العرب وكتب ناقد كبير عنه دراسة مطوّلة، مزيلاً الغبار عن ذكرى أسطوانته «ظلال الندم» التي عزفتها فرقة برلين السيمفونيّة المسجّلة في ستوديوهات برلين، التي كان يستمع نزار إليها منتقدًا دخول الكمنجات بهذه الطريقة الفجّة دون مصاحبة التشيلو.

خرج نزار من مكتب الأغواني مصمّمًا على إنجاح حياته الجديدة، تحسّس النقود في جيبه، بحث عن فندق رخيص، عاد وحده إلى أمكنة ارتادها مع ميشيل في لحظات طيش زياراتهما القليلة والعابرة إلى بيروت. لم يطل به الأمر حتى اكتشف أماكن جديدة استهوته، استقرّ في بار الأولد هاوس، شعر بنفسه حرًّا في هذا المكان الذي يتجمّع فيه المثليّون مساء، يتبادلون كؤوس المشروب بحرِّيّة دون أن يزعجهم أحد، اشترى مجموعة ألبسة نوم نسائيّة شفّافة من محلّات فاخرة، ومجموعة عطور، بناطيل جلديّة وكتّانيّة وقمصانًا حريريّة ضيّقة تبرز جلده الناعم. انتقل إلى شقّة صغيرة مطلّة على البحر في الطابق السادس عشر قرب فندق سان جورج، استأجرها مقابل ثلاثمائة دولار شهريًّا. وجد ضالّته أخيرًا في بيروت، كتب لصديقه ميشيل يخبره بالسعادة التي يشعر بها،

شاتمًا حلب، التي وصفها بقلعة الندم. اختتم رسالته بقبلة طبعها بأحمر شفاهه ودعوته لزيارة بيروت. لم يتأخّر ميشيل عن قبول دعوة صديق عمره، الذي أخبره أنّه مضطرّ للعودة إلى حلب لاستكمال أوراقه الثبوتيّة، اتّفقا على موعد قدومه إلى بيروت. رغب بالتعبير لميشيل عن الامتنان لوجوده في حياته. أرسل له سيّارة خاصّة تقلّه من حلب إلى بيروت. قضيا أسبوعًا وصفه الاثنان بالعيش في الجنّة، لم يتركه نزار دقيقة، يشربان قهوتهما صباحًا في فندق السان جورج، ويتناولان عشاءهما في مطاعم غالية ويقفلان ليلتهما في بارات ترحّب بنزار كمتهتّك ثري وصاحب ذوق خاصّ، عاشا مغامرات عابرة ودّعه بعدها ميشيل متمنّيًا لصديقه حياة جديدة ملؤها السعادة وعاد إلى باريس منتظرًا صورهما التي التقطاها كدليل لا يقبل الشكّ على أنّهما حقّقا حلمًا راودهما أيّامًا كثيرة، إعادة التهتّك في مدينة بعيدة عن حلب دون أيّ التزام.

أحسّ بنفسه خفيفًا، يلامس الأرض حين يسير. أصبح لديه أصدقاء جدد رائعون، حدّثهم عن رغبته بالحبّ وتجاهل عروضًا لإقامة علاقات عابرة، لم يرد إفساد مزاجه وتقديم نفسه رخيصًا، دُعي إلى سهرات أصدقائه الخاصّة. يصطحبه حسين الفخور بجسمه الرياضي، لاعب فريق النجمة الشهير، أصبح صديقه المفضّل، فتح أمامه ما تبقّى من أبواب سرّيّة للمدينة، يصطحبه بسيّارته المرسيدس إلى شقّة وسط شارع الحمرا، يقضيان وقتهما في حفلات سرّيّة، يعزف فيها نزار على آلاته ويلهب حماس رفاقه، باحثًا عن صديقه حسين الذي يحسّ بقربه منه، بعد تبادلهما نظرات حارّة في أكثر من موقف وسهرة، صارحه نزار بحبّه وهو يوصله إلى شقّته بعد سهرة عيد

ميلاد تراشق فيها الجميع بالنبيذ والشمبانيا، قدّم فيها رفيقه كارو وصلات رقص شرقي إباحي مائلاً على حسين الذي بدأ يتجاهله. عزف نزار مقطوعات من سيرة الحبّ إكرامًا لرفاقه. في طريق العودة كان الفجر يتسلّل، يشعر نزار بقرب أنفاس حسين منه. وضع يده برقّة على يد حسين وصارحه بعشقه، لم يطل الأمر حتى تبادلا القبلات، انتقل حسين للعيش في شقّة نزار مثيرًا غيرة كارو الذي اتّهم نزار بسرقة حبيبه منه، لم يعد يذهب نزار إلى بار الأولد هاوس، اكتفى بسماع طرطشات تهديدات كارو بأنّه سيشقّه شقفتين ويرميه للكلاب. غرق حسين ونزار في غرام انتظره نزار وقتًا طويلاً، أحسّ بالتطهّر وتخلّصه من آثار الشيخ جمعة ولياليه القذرة التي حدّث حسين عنها وبكى على صدره، حسين بتعاطف داعب شعره الذي لم يعد يحلقه بناءً على رغبة حسين، أحسّ بالهناءة كلّها خلال ثلاثة أشهر لم يستطع نسيانها في حياته، تركه بعدها حسين واتّهمه بالبرود الجنسي، منتقلاً إلى شقّة صحفي ألماني أغراه بالنقود ورحلات يصطحبه فيها إلى قبرص لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، يتمدّدان على الشواطئ الرمليّة ويلتهمان السمك المشوي، يشتري لحسين هدايا كثيرة لم يعد نزار يستطيع شراءها بعد نفاد نقوده. ترك الشقّة وانتقل للعيش في شقّة فقيرة في حيّ البسطة التحتا. بحث عن عمل بعد رجائه لنديم الأغواني السماح له بالعمل في أحد بارات بيروت البعيدة في بنت جبيل. منحه إذنًا من النقابة لثلاثة شهور، ولم يجدّده له، بقي عاطلاً طوال شتاء ١٩٥٩، يجول على بارات رفاقه المثليين، باحثًا عن حسين يبثّه أشواقه التي لم تنته، يرجوه أن يذهب معه لليلة واحدة يعيد فيها الحرارة إلى جسده الذي أحسّ به نتنًا. قبّل أصابعه وبكى بحرقة، بينما عشيقه الألماني صامت ومتجاهلٌ لنزار

الذي لم يستطع جعل حسين يستمع إلى رجائه.

عاد إلى سيرة التشرّد. حاول كتابة مقطوعات موسيقيّة بقوّة مجموعته «ظلال الندم». انفعاله لم يكن كافيًا. ندم لبيعه مقطوعات ثمينة بهذا الثمن البخس. يستمع إلى مقطوعاته في الراديو تعزفها فرقة برلين السيمفونيّة ويتحسّر، يضع يديه في جيوبه حاملاً حقيبته الصغيرة، يجول في شوارع بيروت الغارقة تحت المطر، يبحث عن سائقي تاكسي أو حمَّالين في مرفأ بيروت، يصطحبونه إلى غرفهم الفقيرة، يضاجعونه ويطلبون منه الرحيل صباحًا دون أن يقدّموا له طعام الإفطار، يغرق في ظلام الرغبة، وحيدًا، مطرودًا من بارات أصدقاؤه، وشخص غير مرغوب به في حفلات سرِّيّة باذخة يقيمها أصدقائه القدامى، اتّفق الجميع أنّه رخيص لا يصلح للانضمام إلى المحفل السرّي لمثليي بيروت الأرستقراطيين، الذين رحّبوا به بداية الأمر حين رأوا أناقته وترفّعه وأصابعه الحرير حين تنساب على أوتار الكمان، ثم طردوه وتجاهلوا وجوده حين بدأ يشتم حسين ويلتقط زبائنه من على الرصيف.

نهشه الجوع والبرد ولم يعد يستطيع دفع إيجار غرفته الفقيرة، أحسّ بأنّه يرى حسين على أوراق أشجار الخريف المتساقطة، على الواجهات الزجاجيّة لمحلّات الموضة التي يقف أمامها، يتأمّل فساتين السهرة الحريريّة المفتوحة الصدر، يغرق في تفاصيل محلّات اللانجري لساعات.

حمل حقيبته الصغيرة وعاد إلى حلب، وصلها منهكًا ليجد أبا زهير العنّابي وأهله الواجمين جالسين في الصالون. كان جدي غارقًا في تفاصيل زواج أمّي، قُدّم لعائلة أبي كابن بار وموسيقي

كبير يعزف في فرقة فيروز، انسحب من الجلسة متحجّجًا بتعبه من السفر الطويل ودخل إلى غرفة أمّي، بارك لها وبثّها أشواقه طوال الليل، حدّثها عن طعم قبلات حسين التي لن ينساها أبدًا، الجميع غارق في المنزل برجاء أن لا يكتشف أهل العريس حقيقة الابن الضالّ الذي لكمه عبد المنعم على مائدة الإفطار، طالبًا من أبيه مرّة أخرى قتله إن لم يغادر المنزل الشريف.

يجول نزار في المنزل محبطًا بعد خروج الأب إلى رصيف محطّة القطار ليفاخر بوسامه كعادته، ويؤنّب العمّال المهملين، لم يبق أمامه إلّا العودة إلى أصدقائه الذين قبلوا توبته بعد بكائه أمامهم، وتوسّط ميشيل برسالة بعثها إلى أصدقائه متعهّدًا بعدم خيانتهم مرّة أخرى.

أفكّر بخالي نزار الذي بدا لي في آخر زيارة رجلاً عجوزًا لا يملك وقتًا للندم، يتحاشى الحديث مع الناس، يعود من عمله في الكباريه، يحضّر خضارًا ولحومًا تكفيه وقتًا طويلاً، يقضي ساعات يطبخ أكلات حلبيّة معقّدة بذوق خاصّ، يحضّر مؤن المخلّلات والأجبان منتظرًا عشّاقًا عابرين، آخرهم مدحت، موظّف الماليّة الذي التقطه من سهرة في كباريه الكاسبا. أعجبته رغبة الشابّ الثلاثيني واندفاعه. لم يعد نزار يغرق في الحبّ، يتذكّر ميشيل، الذي يرسل له البطاقات الملوّنة من مدن أوروبا المختلفة متأبّطًا ذراع عشيقه الذي أصبح زوجَه أمام المتاحف والمسارح، وصوَّره خارجًا من الحمّام بثياب نوم زهريّة شفّافة.

أكثر ما أغاظه صورة عرسهما التي أرسلها ميشيل ووراءها كتب جملة «حبيبي نزار عقبال عندك، صلِّ من أجلي أنا غارق في

حبّ أسرتي الجديدة» وكلمة أخيرة «تفو على حلب التي أشتاقها، تعال إلى زيارتي». رمى نزار بالصورة في حاوية القمامة وغرق في أحزان وحدته، يجلس ساعات طويلة يقلّب ألبوم صور بيروت. وفي السنوات الأخيرة يجلس على الإنترنت باحثًا في موقع غوغول عن صور قديمة لفريق النجمة ومبارياته، مؤرشفًا سيرة حسين الذي بدا له بعد أربعين سنة رجلاً مرحًا جديرًا بكلّ الحبّ والألم الذي عاناه من أجل نسيانه، غير مصدّق غزل الرجال، متحاشيًا إهانتهم، راغبًا بالحفاظ على مكانته كعازف شهير. ما زال الجميع يتذكّرون أصابعه الحريريّة وتقسيماته على الكمان، ومديح معلّمه أحمد المبيّض الذي أورثه أكثر من ألف أسطوانة بعثرها على عشّاقه العابرين دون إحساس بالندم.

استدرج مدحت إلى مقهى الموعد، وبدا الاثنان كصديقين يشربان قهوتهما بهدوء ويتحدّثان عن مشاغل الحياة، حدّثه مدحت عن أهله في قرية بيانون وعن أحلامه بمنزل كبير وزوجة من أقاربه، أحسّ بكبته الشديد، أُعجب بجسمه الريفي القوي، تكرّرت لقاءاتهما ونزار يتمنّع من الإفصاح عن رغبته. يبدو الاثنان صديقين تعارفا منذ زمن قليل وتعلّقت روحاهما ببعضهما. استخدم خبرته الطويلة في استدراج الرجال إلى فراشه، تعانقا بعد جلسة حشيش أحضره نزار خصّيصًا لصديقه، اكتشف جوعه للكثير من الأشياء، كتب لميشيل أنّه يحاول استعادة طعم الجنس القوي والأعضاء التي تخترق الأحشاء فتحيلها رمادًا، ساخرًا من شلّتهم القديمة التي بدأت أعضاء رجالها تتدلّى كعناقيد عنب ذابلة، ترك مسافة بينهما كي لا يغرق في العشق الذي لم يعرف كيف تسلّل إلى قلبه وحوّله

إلى مجنون لا يستطيع العيش بعيدًا عن مدحت الذي يضطجع في منزل نزار بأريحيّة زوج متوَّج، يمدّ قدميه لنزار يغسلهما بماء ساخن وصابون غار يصرّ مدحت على أن تفوح رائحته في الصالون الواسع، يأمره أن يحضّر طعام الغداء، يرسله في مهمّات إلى تجّار ليقبض الرشاوى بدلاً عنه. أصبح مفتاحه وقاده إلى مفاتيح المدينة وتجّارها، المدينة التي يعرف نزار أسرارها. كان نزار يفكّر بأنّ أروع أنواع الحبّ ذلك الذي يحوّلك إلى خادم وينهي حياتك كسيّد.

تحوّل بين يدي مدحت إلى خادم وعشيق وزوجة يدعوها «مها»، رجاه نزار الاحتفاظ باسمه «نهلة» الذي أطلقه عليه حسين في بيروت منذ أربعين عامًا ولم يتخلّ عنه نزار، يضربه إن أخطأ، يقبّل يده كزوجة مطيعة قبل أن يضطجع قربه في سرير غرفة النوم الفخم. يجول في المنزل الواسع في شارع فيصل المطلّ على شوارع ضيّقة مظلّلة بأشجار الكينا، منتظرًا قدومه في أيّة لحظة، مقسمًا بأنّه سيكون آخر عشيق. تجاهل إحضاره قحبات رخيصات بين وقت وآخر يقدِّم لهنّ نزار كخال عائد من البرازيل سيورثه كلّ أمواله، يبكي نزار وهو يسمع أصوات آهاته في غرفة النوم مع نساء يصفهنّ بالساقطات، لا يحتمل ويخرج من المنزل، عبر الهاتف يطلب رشيد في المنزل ويطلب منه اللحاق به إلى بار إكسبريس، ينتظر رشيد ولا يأتي. رشيد يتحسّس كلّ شيء من صوت خاله، يكره مدحت ويعتبره فضيحة لا تليق بخاله الحبيب. فكّر مرّات كثيرة بقتله، لكنّه لم يجرؤ. فكّر بضعفه وشرح لأمّي في نوبة هذيان أنّ العائلة التي تتمنّى الحفاظ عليها سراب ووهم يجب أن ينتهيا.

الفصل الثالث

جثث متفسّخة

أمّي التي ماتت أوّل المساء كانت تعتقد بأنّ كلّ شيء على ما يرام ما دامت تستطيع فتح نافذة منزلنا تراقب غروب الشمس على حقول الخسّ وتتفقّد شجرة التوت البعيدة، تسأل المدير عن علاماتنا وتطمئنّ، الأيّام القادمة ستكون مبهجة.. رائحة أزقّة ميدان أكبس انتهت الآن، ورائحة الزيوت والشحوم المعدنيّة وبراغي القطارات سننساها بالتأكيد، ما دامت أحاطت نفسها بكلّ هذه العطور والمنظّفات، أيقنت صواب قرارها ببناء منزلها في بساتين قريبة من وسط المدينة، يغلّفها صمت تحبّه وتعتبره دليل رقي.

انتهت سيرة أبي، لم نعد نذكره أو ننتظر رسائله التي لم يرسلْ أيًّا منها، نفاخر حين نُسأل عنه بأنّه يعيش في الولايات المتّحدة الأميركيّة، نقولها كاملة ولا نكتفي باختصارها إلى أميركا، نكمل: سيرسل في طلبنا حالما ننهي فحوص البكالوريا. ينظر إليّ رفاق صفّي في ريبة، يحاولون تخيّل كم هي بعيدة أميركا. لم تعد أمّي تكترث لبقايا لهجة ميدان أكبس الريفيّة في لغتي، تركتني لمصيري بيأس مردّدةً أنّ المدينةَ ستغزوني وتهزم الريفي في داخلي. لم تكن

تعرف حبّي لقوّة الكلمات في لهجات الريفيين، وشغفي بحقول القمح الواسعة وغابات الزيتون والرمّان. لم أنس طعم السير في ظلالها حين كنت أهرب مع أطفال العاملين في محطّة ميدان أكبس، نرقب الجسر الحجري الرائع والقطارات تعبره وسط الحقول، نشير بأيدينا لحرّاس الحدود الأتراك في محارسهم، نقذف لهم بعناقيد العنب والرمّان، محاولين إفهامهم باللغة الكرديّة التي تعلّمت بعض كلماتها أنّنا سكّان المحطّة، حين نكبر سنرتدي ملابس عسكريّة ونقف على الطرف الآخر من الحدود. يكتفي حرّاس الحدود الأتراك بتوجيه البنادق لنا حين يرون جموعنا تزداد بقيادة آزاد راعي الماعز الصغير، الذي يخبرنا حكايات خرافيّة عن اختراقه الحدود يوميًا، يوزّع علينا حبّات بندق مهرَّب لنصدّق بأنّه يعيش حياتين، حياة هنا وحياة أخرى هناك. يخبرنا بجدِّيّة أنّه حين يكبر سيتزوّج حبيبته التركيّة باريهان، التي تنتظره كلّ يوم خميس خلف المحطّة التركيّة، يضيف بفخرٍ أنّ أباها مهندس قطارات ينتظر ترقيته إلى مدير محطّات تركيا.

دومًا لدى راعي الماعز ما يدهشنا، أقدامه المتفسّخة، سيره حافيًا، جسده الضخم رغم عمره الذي لم يتجاوز الحادية عشرة، صوته الرائع حين يغنّي أغاني كرديّة نردّدها بصمًا ونحاول تلمّس معانيها.

أذكر صديق طفولتي الذي تفوح من جلده رائحة الماعز، بعد أكثر من عشر سنوات. رأيته مصادفة في مطعم كيليكيا في حيّ الميدان القريب من منزلنا، يعبّ كؤوس العرق ويحدّث رجلاً عجوزًا حواجبه كثيفة عن روعة التبغ المهرّب من تركيا. تقدّمت منه

وصافحته، لم يتذكّرني، أحسست بفخره بمصافحة شابّ يرتدي قميصًا أنيقًا وشعره مقصوص على الموضة، ذكّرته يوم قادنا بحماقة إلى الطرف الآخر من الحدود. وضياعنا في حقول اللوبياء والباميا التركية، وكيف أحاطنا جنود أتراك ببنادقهم، واكتفوا بشدّ آذاننا وإعادتنا إلى الطرف الآخر من الحدود. ضربوا آزاد حين حاول ممانعتهم بعقب البندقيّة، توعّدهم وشتمهم بالكرديّة، وحين وصلنا ليلاً إلى تخوم ميدان أكبس هرعنا مسرعين تاركين آزاد إلى حزنه. بقينا نصدّق حكاياته وحبّه المتعثّر لباريهان ابنة مهندس القطارات التركي.

ضحك آزاد، رأيت أسنانه الصفراء، قبّلني بقوّة من يلتقي صديقًا قديمًا، قدّمني إلى الرجل العجوز وقال باستعراض كبير: خالي شاعر الأكراد حامد بدرخان[1]، مضيفًا بفخر: صديق ناظم حكمت في السجن.

كان الرجل الستّيني خجولاً كعصفور في قفص أمام هيجان آزاد، قدّم لي كرسيًّا واقترح جلوسي قرب النافذة المطلّة على الشارع، اكتفيت بحديث عابر، أعطيته رقم تلفون منزلنا. أحسّ بفخر وهو يطوي الورقة التي كتبتها له، ووضعها في جيب بنطاله السموكن العريض. قبّلني باستعراضيّة مرّة أخرى وأوصاني بالسلام على أهلي، واعدًا بزيارتي حين يأتي إلى حلب.

لم تختلف صورة آزاد الحاليّة عن طفولته التي ما زلت أذكر

---

(١) حامد بدرخان: شاعر سوري كردي ولد عام ١٩٢٤ في قرية شيخ الحديد التابعة لمنطقة عفرين ـ حلب، كتب بالكرديّة والتركيّة والفرنسيّة والعربيّة، صدر له ديوان «على دروب آسيا» عن دار الحوار، توفي عام ١٩٩٦.

كلّ تفاصيلها، كما يذكره كلّ أولاد موظّفي محطّة ميدان أكبس، والزوجات اللواتي اشترين منه جبنًا طازجًا ما زال طعمه تحت لساني حادًّا يفوح برائحة جموع قطيع ماعز يعبرني.

تشهّت أمّي طعم تلك الجبنة، إلّا أنّها لم ترغب برجل ريفي وكردي في صفوف أصدقائي. ادّعت نسيان كلّ ما يخصّ ميدان أكبس وزمنها. أذكر تهرّبها من استقبال صديقاتها فلّاحات ميدان أكبس حين حاولن الوصول إلى عنوانها، أحببن الثرثرة معها على عتبة المنزل عن طريقة حفظ المخلّلات، تهرّبت بخفّة، كأنّها ترمي رأس هرّ مقطوع نغلته الديدان من النافذة، بتصميم من يقطع أصبعه كي لا يتذكّر ماضيًا مؤلمًا، رمت عشر سنوات عاشتها في قرية حدوديّة تفوح منها روائح الفقر والمصير المعتم لسكّانها المحاصرين بحرّاس الحدود وألغامهم، وقطارات تعشّش العناكب في عرباتها من قلّة الحركة، فتبدو مكانًا مثاليًّا لنفي موظّفي السكك الحديديّة.

بدا كلّ شيء هادئًا، سوسن تجلس في غرفتها، رشيد يعزف موسيقاه بملل، وأمّي تؤكّد أنّ المنازل المحيطة بمنزلنا علامات موقّتة ستزول، سيعود كلّ شيء إلى طبيعته. لم تستطع تصديق ما حدث حين أرادت السير في بساتين الخسّ التي أحبّتها. أصحاب الأرض الأصليين فاجأتهم المدينة بزحفها إلى حقولهم، تضاعفت أسعارها مئات المرّات. تحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى أثرياء لا يعرفون أين سينفقون نقودهم، تاركين شتلات الخسّ تموت وأشجار الجوز تذوي، تحوّلت الحقول الرائعة إلى منازل متراصّة تفوح منها رائحة التايد الرخيص، تتعالى صوت جنادب الليل حين

تتحوّل الطرق الضيّقة إلى مستنقعات في الشتاء. احتاجت أمّي إلى منديل تضعه على أنفها كي تقطع طريقها إلى مدرستها، محتملة نظرات سكّان جدد لا يعرفون المعلّمة المحترمة التي كانتها أمّي.

تضاعُف هوسها بالمنظّفات حوّل حياتنا إلى جحيم، أصبحنا بالنسبة إليها عربات قذرة ممتلئة بالميكروبات، يجب تنظيفنا قبل الدخول إلى منزل لم تلاحظ اتّساخ حجره من الخارج، واختفاء نقوشه الفاتنة.

لم يعد اجتماعنا على العشاء مناسبة رائعة لتبادل النكات والضحك والتعليق على خجل رشيد الذي يدسّ رأسه بغنج في حضن سوسن، يتحاشى أمّي ويدّعي أنّه لم يسمعها حين تطلب منه إعادة عزف مقطوعة نسيت اسمها. تذكّره بمناسبات قديمة عزفها فيها على مسارح جمعيّات أرمنيّة. ببرود يقول إنّه لا يتذكّر عزفه مثل هذه المقطوعة، يخجل من جهلها ويصفها لسوسن بأنّها مدّعية لا تفقه شيئًا في الموسيقى الكلاسيكيّة، ويكفيها ترديد أغاني صباح والرقص في الأعراس على أنغام أغنية الحجالة. تضحك سوسن، يعجبها النيل من أمّي. لا تعرف إن كانت تكرهها حقيقة أم تشفق عليها. تتذكّر سوسن بقلق رفيقاتها اللواتي انتسبن للحزب للانتقام من بشاعتهنّ وتأديب صديقاتها الرفيقات القديمات اللواتي رافقتهنّ إلى حيّ العزيزيّة للتسكّع أمام محلّات الأزياء، والتلصّص على الشباب الجميلين المتباهين بعطورهم على الأرصفة.

في اليوم التالي لاجتماع مع أحد أعضاء القيادة القادم من دمشق والذي ردّدت الفتيات اسمه بتبجيل، قرّرن الانتقام من هبة، اعترضن طريقها وقدّمن لها علم الحزب لتقبّله وتضعه على جبينها

شاكرة، بصقت في وجوهنّ وأكملت طريقها، ربضن لها بعد الانصراف ومزّقن غطاء رأسها، أدمين جسدها بأعقاب المسدّسات، وصفنها بالشرموطة الرجعيّة، مزّقن ثيابها وبقيت عارية وسط الشارع، سارعت امرأة للفّها بعباءتها وبقيّة المارّة نكّسوا رؤوسهم ومضوا في طريقهم كأنّهم لم يروا شيئًا.

لم تعد هبة إلى المدرسة. بقيت سوسن تتذكّر رقّتها ونكاتها الذكيّة. حين التقتها بعد سنوات في محلّ هبة للأزياء، لم تصدّق أنّ شريكتها في التسكّع والضحك هي تلك المرأة الأنيقة التي تبيع ألبسة فخمة للمحجّبات، تمتلك محلًّا من أفخم محلّات حلب يحظر على الذكور الدخول إليه. استغربت هبة ثياب سوسن المحجّبة، عرفت من معطفها الرخيص أنّ الأمور ليست على ما يرام. قادتها من يدها بمودّة إلى مكتب صغير أنيق تتوسّطه طاولة خشب جوز فاخرة. طلبت لها قهوة ثقيلة كما كانت سوسن تحبّها، وذكّرتها بأنّها كانت تحبّ كلّ شيء ثقيل، وعدّدت لها بمرح لم تفقده هبة، رائحة الرجال، رائحة الآباط، رائحة المني، رائحة الورد والقهوة. فتحت درج مكتبها وعرضت عليها ألبوم صور صغير له قفل، يضمّ صور الرفيقات اللواتي مزّقن ثيابها في التاسع من نيسان عام ١٩٨٢، قالت: أنتظر هؤلاء «الشراميط» هنا في محلّي. أخرجت من الدرج الآخر مسدّسًا مطليًّا بالذهب مرخّصًا، وأكملت: هذا يليق بالانتقام، فتحت الباب الخلفي للمحلّ المؤدّي إلى حديقة كبيرة، وأكملت: سأدفنهنّ هنا، ثم صمتت.

عشر سنوات لم تكفِ هبة لتنسى طعم ذلك العار، أخبرت سوسن أنّها بعد ذلك اليوم أجبرها أهلها على الزواج من زياد

الحياني ابن شريك أبيها في معمل النسيج القديم.

خرجت سوسن من محلّ هبة أكثر ثقلاً، تفكّر بأنّ الماضي الذي لا يتركنا يجب أن يموت، تذكّرت وجه هبة البريء، وهروبها من زياد الحياني الذي ينتظر خروجها من المدرسة، مكتفيًا بالنظر إليها من نافذة سيّارته المرسيدس الفاخرة نظرة مثقلة بالرومانسيّة ورجاء قبولها الزواج به.

تذكّرت بحزن شديد أنّ الرفيقات اللواتي تنتظر هبة الانتقام منهنّ جلسن قبل أسبوع في قاعة شعبة الحزب الباردة، استمعن بملل إلى رجل تفوح من كلماته رائحة اليأس، يلقي بيانًا مكتوبًا بلغة مكرّرة سمعوها للمرّة الألف، انتظر الرفيق أسئلة لا تأتي، لملم أوراقه ورحل، يبدو لمن ينظر إليه من الخلف يغادر القاعة متسوّلاً يرتدي بدلة قديمة وباهتة.

هؤلاء الرفيقات المظلّيات اللواتي أرعبن المدينة ومزّقن ثياب هبة، هنّ الآن نساء فقيرات إلى درجة أنّهنّ لن يرفضن صدقة محسن، تفوح ثيابهنّ برائحة البطاطا المقليّة، يتبادلن أخبار بحثهنّ عن طلّاب ابتدائي يرغبون بدروس خصوصيّة مقابل حفنة قليلة من الليرات، وأخريات يسألن عن عمل إضافي لأزواجهنّ كي يسدّدن أقساط البرّاد والغسّالة المتراكمة.

خرجت سوسن من ذلك الاجتماع. قرّرت أنّها لن تعود إلى مبنى شعبة الحزب الكئيب، إحباطها ازداد، لم يعرفها أغلب رفيقات حلقتها. أصبحت نكرة، شعرت بغصّتهنّ، تذكّرت وجوههنّ القاسية وصراخهنّ بصوت قوي بشعارات الحزب، يراقبن الفتيات المشكوك في ولائهنّ اللواتي لا يرفعن صوتهنّ قويًّا أثناء

ترديد نشيد الحزب، يكتبن التقارير إلى الفروع الأمنيّة بحماس شديد ما زالت تتساءل عن سرّه حتى الآن.

فكّرتُ كثيرًا بألم حياتي التي ارتبطت بانقلاب الحزب واستلامه السلطة، عشنا حياة موازية طوال عمرنا ولم نلتق. شعرت بإحباط سوسن وعدم رغبتها في الكلام، إلّا أنّها أضافت: أكثر من تسعين بالمائة من السوريين عاشوا حياة موازية مع الحزب والنظام الذي حكم بكلّ هذا البطش ولم يلتقوا، انقسمت البلد إلى ضفّتين، على الضفّة الأولى مرتزقة لا يعرفون شيئًا عن الضفّة الأخرى التي تتناسل فيها الحياة، تجري بهدوء وبطء وتعرف كلّ شيء عن ضفّة أهل النظام. لم تكمل نظريّتها، صمتت كأنّها أخطأت حين قالت بأنّها تريد العودة إلى ضفّتنا. نظرت إلى عينيها، رأيتهما لأوّل مرّة باكيتين، أحسست بهزيمتها وخشيت عليها من ردود فعلها، أنا أعرفها جيّدًا، لن تقبل أن تعيش كفأر محاصر، وهي الآن ضعيفة إلى درجة أنّ نسمة هواء تكسرها، وحديثها عن الضفّتين وحياتها الموازية هو استرداد للمعاني المفقودة في حياتها.

رمت شهادتها في درج خزانتها، لم تكترث حين رأتها مبقّعة برطوبة غزت بيتنا من كلّ جوانبه، غلّفتها بكيس نايلون رخيص، أعادتها إلى مكانها. أخبرتُ رشيد أنّ محبوبته سوسن فقدت مرحها وقد تنتحر، وصفت له منظرها تنفض الغبار عن الصقور الثلاثة المحنّطة، تردّد كلّ شيء قد ضاع. رشيد هزّ برأسه غير مكترث، ارتدى الطقم الأسود نفسه الذي يرتديه كلّ مساء قبل خروجه للحاق بموعد عمله، يكرّر الأفعال نفسها، الملابس نفسها، يخرج كلّ يوم في ساعة محدّدة إلى المكان نفسه، يعزف الموسيقى نفسها، وفي

طريق عودته إلى المنزل نفسه يسير في الطرقات ذاتها.

نهرب من لقاء بعضنا بعضًا في غرف المنزل، أمّي تتناول عشاءها وحيدة، يائسة من عودة الحرارة إلى مائدتها، تحدّق في التليفزيون، تنتظر برامج تتابعها بثبات، لا ترفع نظرها عن نشرة الأخبار التي قد تستمرّ ثلاث ساعات، يستعرض فيها المذيع نشاطات الرئيس وأقواله المأثورة، كما يستعرض بتفخيم زائد توجيهاته المقدّسة للمحافظين والوزراء وطبعًا عطاياه لشعبه. كلّ شيء عطاء وهبة من قدّس الله سرّه. تنتبه أمّي فجأة إلى عدم اعتراضها كما كانت تفعل من قبل، تراقب الخوف الذي ينمو كلّ يوم داخلها، تتماهى مع صور الرئيس، تقنع نفسها أنّها تحبّه ولم تكرهه في حياتها، متجاهلة وصفها له ولرفاقه يوم انقلابهم بمجموعة تفضح عيونهم عن عدم الثقة، ولا يميّزون بين عطر السوسن ورائحة اللفت المخلّل.

كلّ ما حدث في حياتها لم تتوقّعه. صديقتها ناريمان أخبرتها الشيء نفسه، ذات يوم بعد انقطاع دورتها الشهريّة واكتشافها أنّها ما زالت عذراء لم يمسّها رجل، لم يبق لها أحد تزوره سوى أمّي، تدخل إلى منزلنا امرأة عجوز رغم أنّها لم تتجاوز الخمسين، ترتدي معطفًا قديمًا ورثته عن أمّها، شعرها مشعّث، تجلس قرب أمّي، تهجس بالذهاب العام المقبل إلى الحجّ مع أولاد أخيها الحاجّ عبد اللطيف، تنتظران حلقات المسلسل اليومي، تتبادل الاثنتان وصفات البابونج، ولا تنتبهان إلى انتصاف الليل إلّا حين يغلق التليفزيون إرساله ويبقى صوت وشيش الشاشة.

أخرج من غرفتي. أغلق التليفزيون وأرافق ناريمان خانم إلى

منزل أهلها في الجميليّة، أودّعها قرب الباب. أختلس النظر إلى منزل جدّي الغارق في صمته، ينبعث من داخله صوت أنين خالي عبد المنعم الذي لم يتوقّف. الأمكنة التي لا تعنينا لا نسمع أنينها. أفكّر بالزمن في طريقي إلى منزل خالي نزار، أقدّر أنّه في هذه الساعة المتأخّرة من الليل يستعدّ للذهاب مع رشيد إلى عملهما في الكباريه. شوارع الجميليّة تغيّرت أيضًا، بيوت مهجورة، بنايات جديدة بنيت على عجل، فقدت الشوارع الضيّقة أشجار الكينا التي كانت رائحتها تزكم أنوفنا حين كنّا أطفالاً نأتي في زيارات قليلة إلى بيت جدّي، نحتمل خلالها نظرات احتقار خالتي ابتهال كوننا أبناء رجل ريفي.

ابتهال غادرت إلى السعوديّة زوجة ثانية لرجل سوري تجاوز الستّين، بعدما طلّقها زوجها هيثم صبّاغ تاجر الصوف الذي وقع في غرام ممثّلة مسرح كانت تقدّم دور أوفيليا، عبَّر عن ملله من ترفّع خالتي الذي وصفه بالتافه، أكمل بغضب: أنفها يشبه منقار إوزّة ويجلب الشؤم، أرسل لها ورقة الطلاق التي وقَّعتها ببرود وأَنفة، غير آبهة بكلّ ما ثرثر في مجالس العائلة، تشكّى من ولعها بامتداح أصلها، تردِّد حكايات تبدو له مضحكة عن أجداد كان يصفهم بالمرتشين وخدم السلطان، بصق على صورهم التي علّقتها خالتي ابتهال على جدران منزلها في سيف الدولة، متعالية على كلّ شيء لا يمتّ إلى حلب وحقبتها العثمانيّة بصلة، دون سبب تشتم الريفيين، وتعيد روْي سيرة أجدادها الملتبسة الحقائق.

هيثم صبّاغ كان نموذجًا فريدًا من الرجال، يحبّ الضحك، يحفظ كلّ الأمثال والحكم والنكات التي تحرّض على الضحك.

في شبابه الأوّل مثّل أدوارًا مسرحيّة قصيرة في مسرحيّات كوميديّة تجاريّة، يكتفي بدور الخادم الغبي الذي يصفعه البطل، ويشعر بسعادة غامرة حين يرى الصالة الغاصّة بجمهور يضحك ويتابع المسرحيّة بحماس، يفصّصون البزر ويتدخّلون في الحوار بفوضى يحبّها هيثم صباغ. يبحث عن الملذّات في كلّ دقائق عمره، يعتقد سنوات العمر القصيرة لا تكفي لشرب كأس ماء بهناء. شعر في أسبوعه الأوّل من زواجه بابتهال بتورّطه في العيش مع أنثى قنفذ، تكره البهجة وترغب بتكرار سيرة امرأة قرأت عنها ذات يوم في كتاب يروي سير زوجات السلاطين، كانت إحداهنّ امرأة حلبيّة من عامّة الشعب، شديدة الذكاء والجمال، وقع في غرامها السلطان وتزوّجها، وبقيت ذرِّيّتها تتحكّم في عرش الإمبراطوريّة العثمانيّة أكثر من مائة عام.

خالتي ابتهال تحبّ كلّ ما هو حلبي وعثماني. بشكل دائم تستعمل في كلامها بضع كلمات تركيّة، مطبخها يغصّ بطاسات نحاس مزخرفة وجاطات مثقلة بزخارف سخيفة، مطليّة بكروم تصلح للصمد في غرف طعام الأغنياء الجدد. ترتدي فساتين طويلة مثقلة بمجوهرات تقليديّة، أحاطت سريرها ببرادٍ مخرّمة ذات طبقات متعدّدة كان هيثم صبّاغ يشعر بثقلها يجثم على روحه. حين تأتيه إلى السرير ليلة الخميس تسير مثقلة بثياب نوم من القرون الماضية، تخلعها بفخامة ووقت طويل كان كافيًا لذهاب رغبته وقرفه من شلحات البرلون الثقيلة. يشتاق إلى أيّام شبابه اللاهي الذي قضاه في مجالس ظرفاء المدينة ومهرّجيها أبطال المسرح الكوميدي، يشتاق إلى بساطة العيش التي ورثها عن أمّه التي كانت

أوّل امرأة تقف على خشبة مسرح في مدينة حلب، تلقّت بابتسامة عريضة غير فزعة شتائم مشايخ خصُّوها بخطب كاملة في جوامعهم، وحثّوا أنصارهم على حرق المسرح الوحيد الذي أقامه أحد أثرياء المدينة على نفقته في منزله المطلّ على ساحة الحطب.

لم يثنها رمي المتشدّدين إيّاها بحبّات «بندورة» عفنة وتلويث فستانها الأبيض عن متابعة ولعها بالمسرح، تعلّمت الفرنسيّة وقرأت موليير، أورثت ابنها الصغير هيثم ولعها بالمرح والمسرح. ظنّنت أنّ ابتهال تشبه جدّتي التي كانت صديقتها، تشاركها الاهتمام بروي النكت البذيئة حين تلتقيان كلّ مساء في دار صديقتهما الستّ تريز في أمسيات يتناولن فيها البزر المقلي ومربّى البرتقال ويغرقن بالضحك.

لم يحتمل هيثم صبّاغ العيش مع خالتي التي تكرهنا وتصفنا ببقّ الصيف، تشتم أمّنا لقبولها الزواج من رجل ريفي. شمتت فيها حين هجرنا أبي، ومنعت نزار من زيارة خالي عبد المنعم لمواساته في عزاء أقامه سرًّا أصدقاء خالي بعد دفن ابنه يحيى.

أغرم هيثم صبّاغ بممثّلة فرقة أضواء المدينة للهواة، التي تقوم بجولات على المدن السوريّة، تقدّم مسرحيّاتها على خشبات جمعيّات ثقافيّة هجرها أغلب مؤسّسيها بعد سنوات الثمانينيّات، وبقاء المدينة سنوات طويلة تحت وطأة رائحة الموت والعار، الذي بقي جان يكتب عنه رسائل طويلة لمطلّقته كوليت في جنيف التي تكتفي بوضع الرسائل الواردة في صندوق بدأ يضيق بالرسالة المائة وأربع وستّين. استعانت بصندوق أكبر منتظرة عام ١٩٩٦ ليبلغ بيير عامه الثامن عشر، أو عودة جان التي غدت مستحيلة بعد اندماجه

بحياته الجديدة وإدمانه وجود أمّ عمياء لم تعد تخرج من غرفتها إلّا للحظات قليلة، يحملها فيها إلى كرسي كبير لتعريض جسدها للشمس كي لا يتعفّن، أَلِفَ رائحتها وشعر بالرضا حين عرف بفقدانها حاسّة الشمّ وعدم تمييزها بين رائحة العطر ورائحة الخراء.

هيثم صبّاغ كان متعاطفًا مع نزار، رغم شعوره بعار أنّه خال ابنه الوحيد نجيب الذي مات في نوبة ربو. لم يعد يشعر بعدها هيثم صبّاغ بأيّة ضرورة للبقاء مع خالتي ابتهال التي عندما عادت إلى منزلها من زيارة قصيرة وجدت قفل البيت قد تغيّر، وهيثم صبّاغ أرسل أخاه ليتّفق مع خالي عبد المنعم لينهي إجراءات الطلاق بسرعة كما يقتضي العرف العثماني والقانون والشرع الذي شدّد على ضرورة الاحتكام إليه كما تحبّ خالتي سليلة عائلة المشايخ.

ذهلت خالتي ابتهال، التي وجدت نفسها فجأة امرأة مشرّدة دون أولاد، دون منزل تفاخر بأغراضه الكثيرة التي خنقت بها روح هيثم صبّاغ. فهمت امتناعه عن تكرار إنجاب صبي آخر بأنّه تخطيط للهجر. في سنته الأخيرة لم يدخل إلى غرفة نومها، اكتفى بفراش مرمي في غرفة صغيرة وسط كتب باللغة الفرنسيّة ورثها عن أمّه كما ورث عنها أثواب أدوار صغيرة لعبتها أوائل الستّينيّات مع فرقة مسرح نادي العروبة. حملت خالتي أغراضها الكثيرة ولم تبك، معتقدة بأنّها ستجد زوجًا آخر أكثر ثراء وصلابة يشاركها الاهتمام بروعة الحياة العثمانيّة.

تتالت سنواتها وحيدة في منزل خالي عبد المنعم، لم يعد يحبّ ترفّعها متذكّرًا أوامرها الصارمة حين كانت تتحكّم في ألوان ثياب جدّي المستسلم لرغباتها بعد موت جدّتي. كان يخاف من

لهجتها القاسية حين تأمره بارتداء الروب دي شامبر الصوف أثناء جلوسه على بلكون منزله حيث يحبّ تناول إفطاره والتعرّض لشمس الربيع ومراقبة قطارات يراها من مكان جلوسه ويعرف مواعيد إقلاعها، يلوّح بيده للسائقين الذين يعرفهم ويصفهم بتلاميذه.

تذكّرت أنّني لم أدخل منزل جدّي سوى مرّات قليلة، آخرها يوم اصطحبتني أمّي لمواساة خالي عبد المنعم بوفاة ابنه. جلسنا في العزاء السرّي. مسجّلة تبثّ آيات قرآنيّة بصوت واطئ، ومعزُّون قلائل يتحدّثون عن أسعار الخضار، أغلبهم مدرّسون لامعون زملاء خالي الذي تحوّل بين ليلة وضحاها من أستاذ الفيزياء الشهير إلى أبٍ لمجرم، فُصِلَ فصلاً تعسّفيًّا من التعليم ومُنع من السفر إلى الخليج، اكتفى بالجلوس ساعات طويلة في مكتبته التي كان يقضي فيها أوقاتًا قليلة، يعطي فيها دروسًا خاصّة لطلّاب ينتقيهم من مجموعة كبيرة ترغب بالتعلّم على يديه، وضع طاولة كبيرة في صدر المكتبة، وعدّة كراسٍ يشغلها طلّابه من الساعة السادسة حتى التاسعة ليلاً. يبدو المكان مكتبًا أكثر منه مكتبة تضمّ قطع قرطاسيّة مغبرّة، وبضعة ملخّصات مناهج مدرسيّة يبيعها لتلاميذه، ومواعين ورق كانت تشتريها أمّي لتخطّ رسائلها التي لم نقرأها.

أمّي بكت ابن أخيها الفتى اللامع بحرقة، لم تمكث طويلاً خوفًا من أيّ خطأ قد ترتكبه خالتي ابتهال بحقّنا ولا تستطيع أمّي ضبط نفسها، فتحيل العزاء السرّي إلى فضيحة كبيرة لم تكن عائلة خالي المرتبكة تستطيع احتمالها. أحسّ الجميع أنّ كلّ ما فعلوه وطمأنينتهم إلى نجاحاتهم الصغيرة قد ذهبت أدراج الرياح، أصبح الحفاظ على حياتهم هدفًا أساسيًّا، سيكلِّف ولدَي خالي المتبقّيين

كلّ الأموال التي جمعوها من تجارات صغيرة، بعد اكتشاف أنّ أخاهما يحيى الحالم الذي يحبّ سقاية البقدونس المزروع في أُصُص على البلكون عضو في الجماعة المسلّحة للإخوان المسلمين.

أمّي لم تنفعل كثيرًا حين أعادت ابتهال شتم خالي نزار دون مناسبة. حملت حقيبتها وخرجت متأسّفة على شباب يحيى الذي كانت صورته الكبيرة قد وُضع على زاويتها شريطة سوداء، كأنّه مات في حادث سيّارة شاحنة ولم يُقتل في أحد منازل جماعة الإخوان المسلمين وتُنشر صورته في اليوم التالي في جريدة المدينة الباهتة الصفحات، مع اسمه الثلاثي وبجانبه هويّاته المزوّرة الستّ التي تحمل صورته وأسماء مختلفة، منها اسم أحد نوابغ الفيزياء التقاه ذات يوم ضائعًا في سوق المدينة، دعاه إلى منزل العائلة، رحّب يحيى بالضيف المندهش لمعرفة شابّ صغير لأبحاثه ومتابعتها، تركه يتجوّل بحرِّيّة ودخل إلى المطبخ لصنع شراب التوت، تبادل معه حديثًا ممتعًا عن اهتمامه بالفيزياء مستعرضًا بمهارة نظريّات الضوء وطرق قياسه.

لم يفهم أحد كيف انزلق الابن الصغير الحالم إلى ذلك الفخّ، طالب الفيزياء الذي كان يباري خالي عبد المنعم وينتقد نظريّات شهيرة كلاسيكيّة، يقرأ بإنجليزيّة طليقة ما تنشره مجلّة أميركيّة متخصّصة ورصينة تصله في البريد المسجّل، يعترض أحيانًا على خفّة بعض البحوث المنشورة برسائل مكتوبة بمنطق علمي متماسك، ويتلقّى ردودًا موقّعة من رئيس تحرير المجلّة البروفيسور مايك هاملتون الباحث الأساسي في وكالة ناسا، يناقشه خلالها

ويقدّم المبرّرات لنشر مثل هذه البحوث بعدم سماحهم بنشر أيّ شيء قبل اختباره وتسجيل حقوق ملكيّة أصحابه أو مكتشفيه. حلم خالي عبد المنعم أن يكون ابنه أحدهم، يسجّل اسمه بأحرف من ذهب، تستضيفه كبرى أكاديميّات الفيزياء في العالم، ذهب في الحلم بعيدًا وحلم به مرشّحًا لجائزة نوبل للفيزياء بل وأحد الفائزين فيها.

حين أعبر شارع باب النصر أتمهّل للحظات لرؤية وجه خالي عبد المنعم المتغضّن، يبدو لي رجلاً بائسًا ينتظر الموت، يحادث صورة يحيى منذ عشرين عامًا، فَقَدَ قوّته التي أتذكّر جبروتها، تصفه أمّي بالظالم، وأنّ كلّ ما حدث كان عقابًا على قسوته وتحالفه مع خالتي ابتهال في ترتيب شؤون الأسرة كما يريدان دون فلّاحين وشوّاذّ، لكنّه لم يعتذر أو يسمح لنزار بالبكاء على ذلك الشابّ الذي كان يؤمن أنّه لو تعلّم الموسيقى لأصبح عبقريًّا. يذكره طفلاً حالمًا وصاحب مواقف غريبة تردّدها أسرته بفخر دائم، قرأ فيها نزار بوادر عبقريّة لشابّ سيعاني طوال سنواته الثلاث والعشرين من عدم قدرته على الانسجام مع المجتمع والعائلة إلى اكتشافه أنّ القتال يقرّبه من الله أكثر بعد اقترابه للحظات كثيرة من الإلحاد.

لم يستغرب أنّ رفاقه في معسكر التدريب السرّي يشبهونه إلى هذه الدرجة. كانوا يتراشقون بالمسائل الرياضيّة وعلوم الطبيعة مازحين في استراحاتهم. في الليل يبحثون عن معاني وآيات الإعجاز في آيات القرآن مع مشايخ يأتون خصّيصًا لمباركتهم والصلاة فيهم جماعة، يحلمون بدولة اليقين الإسلامي، يصيبهم الرعب من اقتراب العامّة الجهلة من علوم الفيزياء والكيمياء

والطبيعة التي ستودي بهم حتمًا إلى نكران وجود الله. لا تكتمل نقاشاتهم قبل عودتهم إلى شكل الدولة التي يحتكر فيها السلطة المقرّبون من الله، الذي كانوا يرونه مسلّحًا يحثّهم على احتكار الحياة والآخرة.

لا يحبّ خالي نزار سيرة العائلة، يكتفي منها بأمّي التي يصفها بأخته الحبيبة وأمّه الرائعة، يجلب لها الهدايا في عيد الأمّ، يقبّل يدها بلطف يفرحنا. بمرح يقلّد ابتهال وهي تشير بيدها إليه وتطرده. لم يتأثّر حين سمع من أمّي وصفها لخالي عبد المنعم الصامت في زاوية الصالون، وخالتي ابتهال التي تستجدي الزواج من أيّ رجل بعد إحساسها بضيق شديد في منزل أخيها، الذي رتّب زواجها من رجل أرمل ستّيني يعمل حارس بناء في السعوديّة، يحترم التقاليد العثمانيّة التي لا يعرف عنها أيّ شيء سوى صورة رجال يقفون بقنابيز مقصّبة أمام محلّ حلاقة ورثها عن جدّته، أشار إلى أكبرهم في الوسط وقال هذا جدّي نظمي أفندي حامل مفاتيح جامع السلطان أحمد، لم تتردّد في قبوله. خافت في السنة الأخيرة من الموت في إحدى دور العجزة بعد تدهور أوضاع خالي عبد المنعم وهجرة ابنيه حسين وحسن إلى دبي للعمل صنايعيّة في مطعم حلبي لأحد أصدقائهم القدماء، فكّرت بقسوة أن تدفن البلديّة في مقبرة الغرباء امرأة مولعة بالتقاليد العثمانيّة حلمت مرارًا بأنّها زوجة سلطان أو أحد قادة جيوشه كحدّ أدنى.

اكتفت بصورة جدّ زوجها الموهوم دليلاً على عراقة نسبه، حملت حقائبها ورحلت معه إلى السعوديّة. فوجئت سوسن حين أخبرتها هبة أنّ خالتي التي كنّا نسمّيها «فاتنة الحرمين» ساخرين،

تخدم أسرة أردنيّة لتعين زوجها، تصلّي كلّ ليلة قيام الليل ولا تغادر في أوقات فراغها مجلس الأميرة رجاء بنت عبد الكريم النجدي الدّاعية الشهيرة، التي تدعو الفنّانات إلى التوبة، يذهبن في طائرات خاصّة إلى مكّة، يخرجن من مجلسها بلا دنس، محجّبات وفي حساباتهنّ ملايين الريالات. هبة أخبرت سوسن أنّ رؤية طواف خالتي حول الكعبة ورميها بنفسها تحت أقدام الأميرة رجاء النجدي في مجلسها، أثار ضحكها الذي لم تستطع كتمه، قبل إشارة الأميرة رجاء بالذهاب إلى الغرفة الأخرى، متفرّغة لسماع شريكتها هبة ومراجعة حسابات أعمالهما في حلب وباقي مدن بلاد الشام، التي تدير فيها هبة تسع محلّات فاخرة موزّعة على بيروت وعمان ودمشق وحلب والقاهرة ودبي بحنكة ودراية كبيرين.

لم تتمهّل سوسن برفض عرض العمل مع هبة، اكتفت بزيارة صديقتها القديمة وشرب القهوة ولملمة ذكريات ماضٍ استغربت شغف هبة به. مرحةً تستعيد سيرتها مع بسّام الديري، الذي اعتقل عام ١٩٨٤، وما زال في سجن صيدنايا يلعب الشطرنج مع رفاقه الذين حاولوا هدايتها إلى الماركسيّة التي أحبّت حروف اسمها، تعلّقت بعيون غيفارا الذي كانت تظنّه ممثّلاً أميركيًّا يحبّه بسّام ويعلّق صورته الكبيرة في صدر الغرفة، تاركًا زاوية الكمودينة المهملة لصورة أبيه مدرّس التاريخ الذي غرق في نهر الفرات أثناء رحلة صيد مع رفاقه أثناء فيضان النهر المفاجئ في ربيع عام ١٩٦٦ بينما بسّام لم يكمل عامه السابع. تقبّلت سوسن هديّة صديقتها بخجل، فردت الكيس الكبير المغلّف بأناقة تليق بزبونات محلّ هبة نساء الطبقة الغنيّة المحافظة. فوجئت بعباءة موشّاة بخيوط الذهب،

وفستان حرير وقرط ألماس صغير مع معطف فاخر وغطاء رأس أسود، مع ورقة صغيرة كتبت فيها هبة بخطّها الذي تعرفه سوسن هذه العبارة «الأميرة تبقى أميرة حتى لو بلغت في ١٨ كانون الأوّل عام ١٩٩٥ عامها الثلاثين. قبلاتي الحارّة».

تأثّرت سوسن باحتفالنا بعيد ميلادها الثلاثين. خالي نزار أهداها سوارًا ذهبيًّا، وأنا أحضرت لها قبّعة صوفيّة جميلة بدل الحجاب السميك الذي تلفّه على رأسها، يجعلها امرأة أخرى لا أستطيع تخيّلها، رشيد فتح هديّته وسط صرخات إعجابنا. كانت كاميرا كانون جديدة، قبّلتنا وبكت حين رأت أمّي تستعيد عافيتها وتقترح دعوة بقيّة أصدقائنا.

أصابتنا الدهشة حين اكتشفنا أنّنا دون أصدقاء. طبخت أمّي يالنجي ويبرق وتبّولة وأطباق طعام كثيرة. فوجئنا أنّها لم تنس أطباقنا المفضّلة. لم تمانع حين فتح رشيد زجاجة ويسكي «بلاك ليبل». رفع كأس سوسن أميرة العالم كما أسماها. اكتفينا بنصف احتفال. لم تعد سوسن مجنونتنا التي تلهب مناسباتنا القليلة بوصلة رقص شرقيّة. اكتفينا بتقطيع التورتة التي أحضرتها أمّي من محلّات سلورة في الجميليّة، تحاول استعادة مكانة عائليّة قديمة. سمعت سوسن المقطوعة الأولى من أغنية سيرة الحبّ التي عزفها نزار بعشرة طرق إكرامًا لسوسن التي كانت تحبّها. استأذنتنا بالنوم، دخلت إلى غرفتها، فكّرت بكلمات هبة المكتوبة، تذكّرت حين كانت تزورها في منزل أهلها في حيّ الشهباء، تدخلان إلى غرفتها الواسعة، تضع الخادمة صينيّة عليها عصائر وقطع حلويات وبيتفور وصحن كبير فيه فواكه الموسم. تغلق هبة باب الغرفة بالمفتاح،

تتمدّد الاثنتان على السرير العريض، تدلي هبة ثمرة التوت الناضجة في فم سوسن، تلتقطها بمرح وتلوّث شفتيها بطعم الثمرة الرائع، تمسح هبة بإصبعها شفتي سوسن، تكملان تحديقهما في السقف والتحدّث عن بنات صفّهما، تتذكّر لمسة أصابعها الناعمة حين تمرّرها بهدوء على شفتيها، تترك خصلات شعرها الطويل كشلّال ناعم، تلعب به سوسن وتغمض هبة عينيها متذكّرة طعم عضو بسّام الذي أغرمت به في الأيّام الأخيرة لعلاقتهما، تصف بهدوء طعم توته، تكمل بصوت مغتلم وصف طعم حليبه الذي يسفحه على صدرها الأبيض، تشبّهه بحليب الجنّة.

فكّرت سوسن أنّ هبة كانت تحبّها. استدرجتها في أوقات كثيرة إلى تقبيل شفتيها كأيّة عاشقتين. براءتها وقتها لم تجعلها تصدّق لحظة بأنّ هبة المحجّبة وابنة العائلة المحافظة تستهويها علاقات النساء. استعادت تفاصيل قديمة، جمعت الصورة، اقترابها منها حين ترقصان على أنغام فرقة البكارا لوحدهما في الغرفة الواسعة المنسدلة الستائر، تجبرها على ارتداء بناطيل جلد أصلي كان ملمسها يثير سوسن، ويجعلها قريبة من الإغماء. حين ترقصان تصرّ هبة على احتضانها من الخلف والالتصاق بها إلى درجة تشعرها بالاختراق.

أحبّت في تلك اللحظات أفكار هبة المجنونة، وذوقها المجنون في انتقاء لانجري تحضره من بيروت أو ترسله إليها أختها منى المتزوّجة من ابن دبلوماسي سعودي في باريس. اشتاقت سوسن إلى براءة تلك الأيّام قبل أن تفكّر في يوم قائظ من أيّام أيلول عام ١٩٨١ بالدخول إلى غرفة الحزبيّات. طلبت ورقة

انتساب، كتبت بسرعة المعلومات اللازمة، وقّعت ثم خرجت دون أن تلتفت إلى «الرفيقات الفقمات»، كما كانت وشلّتها يسخرن منهنّ حين يرسلن رسائل معطّرة إلى راديو مونتي كارلو بأسماء مستعارة، يطلبن أغاني يهدينها إلى الفتيات الحزبيّات ساخرات منهنّ. كنّ يرفعن صوت حكمت وهبي وهو يذيع طلباتهنّ «من سيسي بنت حيّ السبيل إلى فاتنة مدرّسة المحبّة دلال السمراء، ومن سيسي أيضًا إلى صديقتها المخلصة ذات أجمل عينين في العالم سعاد الشقراء بمناسبة عيد ميلادها». في الأيّام التالية دُعيت إلى أوّل اجتماع حزبي. ارتدت تنّورتها القصيرة وبلوزة سترتش ضيّقة، أثارت الرفيق القادم من دمشق لاستقبال رفيقات الحزب الجديدات والتحذير من خطورة المرحلة التي تمرّ بها البلاد. تجاهلت هبة انتسابها إلى الحزب. لم تنقطع عن دعوتها إلى منزل أهلها وحفلات أعياد ميلاد كانت تحضرها صبايا قريبات وصديقات عائلة هبة. ترى سوسن البذخ البرجوازي، وتفاجأ ببراءة بألبسة الفتيات اللواتي يدخلن محجّبات مرتديات معاطف طويلة مع أغطية رأس سوداء قاتمة، وفي الغرفة يخلعنها وتتبدّى مفاتنهنّ كعرض أزياء فاحش في كباريه. كرهت سوسن الفتيات اللواتي كنّ يقرصن صدرها أحيانًا، ينظرن بفجور إلى جسدها المشدود داخل بنطلون الجينز الضيّق، تقرأ في عيونهنّ رغبتهنّ باغتصابها، تسخر منهنّ هبة وتشاركها مرحًا لا يوفّر أحدًا، الأساتذة والمدرّسات وفتيات المدرسة. تسخر من أمّها التي تخلع أساور الذهب حين تقرأ القرآن بصوت فخيم تعلّمته من منشدات يحللن ضيفات على استقبالاتها المتكرّرة. تصف أباها بالأرنب اللطيف، تتراجع وتتحدّث عن روعته كرجل متسامح لا يرفض لها طلبًا، رجل ورع حقيقة، يغرق

طوال الليل في الصلاة، يخرج فجرًا إلى معامله ويتابع شؤونها بنفسه، مردّدًا أنّ كلّ شيء زائل.

بعد أربعة عشر عامًا أفصحت هبة بكلمات قليلة عن رغبتها بسوسن كعشيقة أبديّة. كرهتها في تلك اللحظة، حملت هداياها، أعادت تغليفها ورمتها في خزانتها التي تضمّ أسمال فتاة فقيرة، لا عطور، لا كريمات، لا ألبسة لانجري فاحشة، لا نظّارات شمسيّة وجاكيتات جلد دون أكمام. ما زالت تتذكّر أنّ هبة تحبّ ارتداءها وتقليد مغنّيات أجنبيّات، تفتح أزرار جاكيتها زرًّا زرًّا لتكتشف سوسن أنّها عارية الصدر. تضحك ببراءة وتصفّق لها كجمهور هستيري تتشهّى هبة كلّ ليلة اغتصابه، حدّثت سوسن مرّة عن حلمها ببسّام ورفاقه يغتصبونها جميعهم في الوقت ذاته على سريرها العريض.

ما زالت أصواتنا تتعالى من الصالون، تسمع سوسن ضحكات أمّي، تكتشف أنّها تضحك أيضًا، تتعاطف معها، تستغفر الله على كراهيّتها لأمّها التي لا تخفيها عن أحد. تسمع موسيقى نزار التي تتوقّف، نغرق جميعًا بهمهمات تنذرنا أنّنا لا نستطيع إكمال ليلة مرح كاملة، مثقلين بالخيبات، فاقدين للأمان، جرذان خائفة من كلّ شيء.

سوسن تراجع بحدّة كلّ سنواتها الثلاثين الماضية. تصف نفسها الآن ابنة عائلة فقيرة تقطن حيًّا عشوائيًّا، يسكنه عساكر ورجال مخابرات فقراء مع فلّاحين أكراد وعمّال نسيج مياومين، يحكمه الرفيق فوّاز الذي رأته على التليفزيون يتحدّث عن الوطن، وإخوته يطلقون الرصاص ابتهاجًا بفوزه بانتخابات مجلس الشعب

عن قائمة الحزب، يقطنون أحياء المدينة الفاخرة، ويحوّلون منازلهم القديمة إلى مستودعات حديد مهرّب وبضائع تنقلها شاحنات كبيرة من لبنان تخترق الخطّ العسكري دون أن يسألها أحد عمّا تحتويه. ضجيج هذه الشاحنات وأصوات الحمّالين يمنعنا من النوم لأيّام طويلة.

تتصالح مع ذاتها وتعترف. عمليّة رتق بكارتها لم تمنحها اليقين الذي بحثت عنه، لا يليق بها البحث عن رجل يشتري بيتًا صغيرًا بالتقسيط، يفرشه من الجمعيّات التعاونيّة ببرّاد محلّي وفرن كهرباء صغير ومكواة يتلقّاها هديّة من عائلته وأصدقائه الفقراء. خلعت ملابسها كاملة، أشعلت شمعة ووقفت أمام مرآتها، لأوّل مرّة اكتشفت بأنّ مرآتها قد صدئت كجسدها، لمست ترهّلاً بسيطًا في ثنية ساقها، أرعبتها فكرة المرآة الصدئة، لامست شعرها، إهمالها له قد زاده خشونة. في السنوات الأخيرة تغتسل على عجل دون إضافة أيّة كريمات أو مليّنات لتنعيم الشعر لم تفارقها حين كانت عاشقة منذر. كانت تحتفل بجسدها بحمّام طويل تفوح منه رائحة عطور وصابون مخلوط مع أعشاب طبيعيّة مغليّة، تتمهّل في ارتداء سوتيانها متخيّلة أصابعه الرقيقة تفكّ أقفاله، تفكّر الآن بأنّ الحموضة التي في حلقها هي نفسها التي شعرت بها تنضح من جلد الأمّ حين كانت تنظر بكراهية إلى جسدها الممشوق وصدرها الناهد.

فكّرت بأنّنا نصنع الخوف ليخاف الآخرون منّا، لكنّنا نكتشف أنّه يلازمنا ويجعل منّا بشرًا خائفين أيضًا، كأوهام المجد الذي حلمت به سوسن ذات يوم وهي تتأبّط ذراع منذر في شوارع حلب،

ترى خوف الناس حين يلتقون بهما فترتعش. لماذا خوف الناس يجعلها ترتعش؟ وفي اللحظة ذاتها تشعر بحرارة جسدها تتصاعد، انتقل الخوف إليها، تحاول الهرب من هذه الفكرة. اعتقدت بأنّها ستصبح سيّدة منزل منذر الدمشقي الواسع، تتجوّل فيه بحرّيّة، تأمر المجنّدين الخدم بتحضير الإفطار، تشتم السائقين لتأخّر الأولاد عن المدرسة وتدخل إلى حمّامها الخاصّ، تغرق في أحلام يقظة وروائح عطورها. لم يخطر في بالها للحظة واحدة وهي تتجوّل بحرّيّة في قميص نوم خفيف تحضر إفطار منذر أنّها ستصبح امرأة على حافّة الفراش، مهملة. كان كلّ شيء يوحي بأنّها ستكون سيّدة الزمن المقبل. بحماس شدّت شعور فتيات معارضات. كتبت التقارير بزميلاتها حين يهمسن بأيّة كلمة عن الحزب، والمظليّين، والله، والقائد. كانت تظنّ بأنّها تدافع عن حزبها وبلادها، وحبيبها الذي تنتابه نوبات حنين إلى جرود قريته في جبال مصياف، يتحوّل إلى طفل صغير يريد هجر الجيش والعودة لزراعة الصبّار ومطاردة العجول في حقول الجلبان، يهذي بصور القتلى ووجوههم. تشعر بخوفه، لم تلتقط إشارات خوف الجلّاد من الضحيّة. تشعر بالفخر حين تخرج من منزلها، ترى الرفيق فوّاز وإخوته يخفضون أنظارهم بعد أن كانوا ينظرون إليها بعيون وقحة مشتهية اغتصابها. تفكّر حين تعيش في غابة يجب أن تكون وحشًا. لا تفارقها صورتها زوجة ضابط كبير، تقرف من زوجات رفاق منذر اللواتي يكتفين بهزّ أساور الذهب في أيديهنّ والتحدّث بلهجة ريفيّة آمرة مع السائقين، يفتخرن ببروشات ألماس كبيرة، تفوح من ثيابهنّ قلّة الذوق وبقايا ماضيهنّ الريفي، تشعر بالفخر حين يثني رفاق منذر على ذوقها باختيار عطورها وملابسها البسيطة. تشعر بالرضى حين يهمس منذر

في أذنها أنّه يحبّها وحين يحتضنها بقوّة ويمزّق ثيابها، تعلّمت بأنّ الغنج واستحضار نساء أخريات إلى سريرها يثير منذر، تأتيه بهبة التي لمحها مرّة وأعجبته، تلمّست سوسن بطن هبة لتخبره عن طعم جسدها، ناعمًا كريش نعام. انتابتها أفكار كثيرة أنّ منذر لا يستطيع هجر امرأة تخلط لياليه برائحة نساء مدينة يحكمها الاثنان. كانت تشعر بالفخر حين ترى سيّارات المخابرات تطوّق المدرسة وتعتقل طالبة للتحقيق في مضمون تقاريرها. لساعات طويلة تجلس الطالبة في غرف المحقّقين، ترتجف خوفًا، تنهشها عيون المجنّدين، يواجهها المحقّقون باتّهامات لا تجد سوى البكاء سبيلاً للدفاع عن نفسها. تعود إلى المدرسة فتاة أخرى إن لم تغب في غياهب السجون، تتحاشى صديقاتها القديمات خائفة وذليلة، تدقّق في كلّ الأصوات المحيطة بها ومعانيها.

بعد انقطاع هبة عن المدرسة تحاشت سوسن كلّ فتيات المدرسة ما عدا رفيقاتها الحزبيّات اللواتي كانت تنظر إليهنّ بريبة، تسخر من قصّة شعرهنّ، تسير في ممرّات المدرسة وبنطال عسكري مرقّط ضيّق يلفّ جسدها. تقلّد صور مجنّدات أميركيّات تراهنّ في الأفلام. في الأيّام الأخيرة لعام ١٩٨٢ كانت تدخل إلى فندق رمسيس، تصعد إلى غرفة منذر، تأمره بالنهوض، يخرجان، وينتظر جنونها الذي لا يُحدّ. تطلب منه قرع باب القلعة، يفتح الحارس العجوز الباب الكبير، يدخلان وسوسن تفاجئه بسؤال سألته أكثر من عشر مرّات عن غرفة نوم سيف الدولة الحمداني وزوجته، يقلب الحارس يديه في الهواء خائفًا، يثيرها خوفه. تأخذ مفتاح قاعة العرش وتدخل مع منذر، ترى المدينة صامتة من خلال زجاج

النوافذ الملوّن، يخطر لها للحظة أن تأتي بجان كي يراها كيف تعرّي صدرها، تترك ثدييها المنتصبين يتدلّيان كثمرة درَّاق كبيرة ناضجة. منذر لا يغلق الباب، تجعله خلال لحظات يشعر أنّه سيّد العالم، يضيف: ماذا يريد الرجل أكثر من امرأة تجعله يشعر بأنّه سيّد العالم، وفحل ينكح نساء مدينة بأكملها؟ تصيبه غيبوبة لذيذة، تنتابه إثارة شديدة حين تلتقط عضوه وتمرّغه على وجهها وصدرها قبل قذف سيوله على جسدها، لا تترك له أيّة فرصة ليفكّر بأيّ شيء. تتماهى مع شخصيّات تقرأ عنها في كتبها المدرسيّة، تحلم بالمجد، يقينها أنّها تمسكه بيديها ولن تفلته حتى لو أحرقت المدينة.

شعرت بغصّة بعدَ وصولها إلى دبي. اكتشفت أنّها خادمة خارج القصر وعشيقة خادم يستطيع دخول القصر لتلقّي التعليمات، تحوّلت الصفات. لم يعد منذر ذلك الرجل الثلاثيني الطموح والمرح. توقظه صباحًا وتطلب منه حلاقة ذقنه والجلوس إلى الطاولة وربط الفوطة كشرط لتناول الفطور الذي ينسيه طعم البيض المسلوق والمربّى ذي الطعم الحامض في ثكنات الجيش.

بعد سنتهما الأولى من إقامتهما في دبي، بدأت عصبيّته تزداد كلّ يوم. ضربها لأوّل مرّة حين عاد من القصر مخمورًا. نزع حزامه الجلدي، شتمها وانهال على جسدها ووجهها بضرب مبرح، مردّدًا أنّه لم يخلق ليكون خادمًا ويتزوّج من امرأة ساقطة. لم تفهم سرّ تهيّجه أبدًا، لم تستمتع بضربه الوحشي، كانت تظنّ بأنّه سيكون مثيرًا لو انهال على جسدها بالضرب في سوط جلدي ليّن. انهارت من البكاء ولم تغادر غرفتها. رفيقتها اللبنانيّة أحضرت لها ضمّادات

وأدوية «أنتي بيوتك»، نصحتها بعدم الذهاب إلى المشفى، البوليس الإماراتي لن يفلّتها حتى تعترف بأنّ منذر ضربها إلى درجة الموت، وحبيب الموصلي صاحب القصر لا تنقصه مشاكل مع الأمراء والحكومة. جلست في سريرها، اكتفت ببعض الأدوية، بعد ثلاث ليالٍ دخل منذر وجلس قربها منكّس الرأس، اعتذر بكلمات قليلة، وردّ وجبة عشاء أحضرتها طبّاخة القصر لسوسن بعدما أخبرها أنّها تعاني من نوبة كريب شديدة.

شعرت بوحشة ولم تستجب لمداعبات منذر، لأوّل مرّة منذ سنوات لا تستجيب لمداعباته. مارس الجنس معها، شعرت بقرف كبير من رائحة جسده. في الصباح نهضت وسارت في الشقّة الصغيرة. أحبّت وحدتها، فكّرت بكلّ شيء فعلته خلال السنوات الخمس، تذكّرت أمّها ورشيد وخالي نزار. كتبت لي رسالة طويلة، لأوّل مرّة تشعر أنّها كائن زائد على الحاجة، تشبه خادمات القصر اللواتي يأكلن فضلات الموائد، يذهبن إلى البنك كلّ شهر ليزدن على حساب توفيرهنّ بضعة دراهم، وفي أيّام العطلات يقبلن دعوات رجال مثلهنّ إلى بارات فقيرة، ينتظرن الهابي أور ليوفّرن بنسات قليلة.

غابت لهجتها المرحة عن رسائلها التي كانت ترسم فيها وجوهًا وتعلّق عليهم بمرح، تدسّ في الرسالة ورقة من فئة المائة دولار وتوصيني أن لا أكترث إن سرقها سعاة البريد.

سألت كيف يتحوّل الحبّ إلى كراهية. لم تتوقّف طويلاً عن الإجابة، فكّرت بأنّها يجب أن تنسى صورة السيّدة التي تأمر الجنود الخدم بسقاية ورود الحديقة، واصطحاب الأولاد إلى مدرسة

الفروسيّة. عادت لها القوّة وهي تسير في الشقّة الصغيرة شبه عارية، صنعت قهوة قويّة، عادت إلى سريرها، فكّرت بأنّها لا تحتاج إلى أيّ شيء ينتهي، النهايات تفزعها. خطرت لها فكرة الموت، وأيقنت أنّه نهاية لا نملك وقتًا للاحتجاج عليها. آمنت بعدالته، تخيّلت أنّ صاحب القصر لن يموت، وضحايا تقاريرها سينظرون إليها بعيونهم المليئة بالانتقام المؤجّل، تخيّلت عالمًا خرافيًّا لا يموت فيه أحد، تنضح الحكمة من أفواه الجميع، لم تعد ترغب بأفعال مستحيلة لجذب منذر الذي أفصح عن ندمه لاستقالته من الجيش والعمل خادمًا لصاحب القصر الذي بدا له عاجزًا، محاصرًا بتاريخ صفقات مشبوهة. كتب منذر لرفاقه في المخابرات والجيش يستعطفهم التوسّط لدى القيادة للعودة إلى الجيش، لم يردّ عليه أحد وبعد إلحاح اتّصالاته التي لم تتوقّف أخبره رفيقه عبّاس أنّ خدمته في القصر أفضل من بيعه الدخان على أرصفة دمشق أو العمل كسائق أو خادم يرافق أولاد أسياده إلى حفلات ميلاد أصدقائهم. حسم خياره وبدأ يتعاطى مع كلّ شيء برؤية جديدة.

ككلّ أبناء الفلّاحين الذين تنتابهم أحلام شراء أراضٍ في قراهم واستعباد أبناء الإقطاعيّين الذين أذلّوا آباءهم قبل انقلابات العسكر، بدأ يراكم نقودًا ويرسلها لأخيه جعفر يوصيه بشراء أراض. نقود قليلة، لكنّ مراكمتها عبر الزمن اشترت له أرضًا زراعيّة يستطيع العيش من زراعتها بندورة شتويّة وحمضيّات. الرعب الذي تجمّع داخله من العمل كخادم مرّة أخرى جعل لياليه باردة، وقال: رمية خاطئة كافية كي تقتلك. قضى معظم سنواته التالية يتحاشى تلك الرمية الخاطئة.

نظر منذر إلى سوسن الجالسة قربه صامتة على كراسي بار المونتانا، شعر بحنين جارف لأيّامهما في حلب، تعاطف معها، فكّر للمرّة الألف بعرضه الزواج عليها، لكنّ خوفه في الأشهر الماضية جعلته يُعيد نقاش فكرة انتمائه. أحسّ بأمانه ضمن طائفته. وأوصى جعفر باقتناء كتب مشايخها، كدّسها في شقّته، يقضي أغلب أوقاته مع صفحاتها الصفراء، يفكّر بطفولته الخائفة في الجبال الجرداء، بسيره حافيًا للذهاب إلى المدرسة. شعر براحة كبيرة وتمنّى السير حافيًا للوصول إلى مزار الشيخ خضر والاستلقاء سنة كاملة قرب قداسته. لم يعجبه تعليق سوسن أنّ المزارات هي المكان الوحيد الذي لم يجرّبا فيه طعم الجنس الحارق.

تَخفّف من أعبائه وقرّر الزواج من أيّة فتاة سيحسن أخوه جعفر انتقاءها من بنات طائفته. استعرض صور صديقاته في المدرسة الإعداديّة، داهمه وجه أخت سحر، رآها قبل مغادرته قريته للمرّة الأخيرة تتأبّط كتبها المدرسيّة وترتدي ملابس طالبة صفّ سابع. أثاره الشبه بينها وبين سحر، عيناها الخضراوان، صدرها الكبير ولهجتها الحادّة. تذكّر مغامرته الوحيدة مع سحر حين واعدها واصطحبها من يدها إلى كروم التين، رفع كنزتها التي تفوح برائحة التبن، التهم ثدييها، تأوّهت بلهجة شاميّة أضحكته. شرحت سحر باقتضاب أنّ أولاد القرى مثله يحبّون نساء الشام، لذلك قرّرت التحوّل إلى امرأة شاميّة. أختها الآن تتمّ الثامنة عشرة، ولن يرفض أهلها الفقراء تزويجها من ضابطهم الفخورين به. عندما أغلق ظرف الرسالة الطويلة التي كتبها لأخيه جعفر وقدّمها لموظّف البريد، شعر ببرودة تغزو أطرافه، فكّر: سيتزوّج أخت سحر لأنّ رائحة التبن

الفوّاحة قويّةً من أثدائها ما زالت تغزو أنفه، سوسن أعادت تشكيله كرجل، امرأة مثلها لن تقبل العيش مع خادم.

تحوّلات منذر أثارتها. فكّرت بالسلاحف حين تمضي غير آبهة بالكائنات المحيطة. قالت إنّها تشبه السلحفاة ولن تأبه لمنذر، جرّبت للمرّة الأولى في حياتها البحث عن طعم الحبّ القديم. أرشفت ذاكرتها، ركنت صورًا قديمة لعائلتها في ركن من كومودينة صغيرة في غرفتها، شعرت بشوق لا يقاوم لرشيد حين يتمدّد قربها في السرير، يحتضنها ويستمدّ القوّة منها، صور صديقاتها في المدرسة، بقيت صورة هبة بمفردها نقيّة، طاهرة غير ملوّثة. باقي البنات أتت صورهنّ مشوّهة، ضحايا تقاريرها لم يفارقن مناماتها. شعرت لأوّل مرّة بشفقة كبيرة تجاه رفيقاتها الحزبيّات حين تخيّلتهنّ كما شاهدتهنّ تمامًا، فقيرات يبحثن عن أحلام سلطة قويّة حلمن بالتمتّع ببطشها، لكنّهنّ الآن كأرامل لا يحقّ لهنّ ندب رجلهنّ الميت. أقنعت نفسها بأنّها أكثر هشاشة من التفكير بالسلطة. صورتها غير الحقيقيّة التي عاشت بها كلّ هذه السنوات كانت ظلًّا لمنذر، كما كان منذر ظلًّا لرجل أكبر. تخيّلت صورة كلّ الذين شعروا بالقوّة وروّعوا البلد، فيما هم ظلٌّ للرئيس وعائلته التي تحكّمت بكلّ شيء في البلاد. هي ترفض الآن البقاء ظلًّا لخادم لا يجد يقينًا إلّا بالعودة إلى طائفته.

في بار المونتانا استجابت لرجل دانماركي يشرب بكثرة من أوّل المساء، يمازح ببرود الخادمة البرتغاليّة التي تغمز له مبتسمة. فكّرت به عاريًا في أحضانها، تمنّت استعادة سلطة جسدها، شعرت بضرورة تقبيل رجلٍ لقدمها كي تتمسّك به، يبكي على صدرها،

يصبح كلبًا تركبه في سباقات الكلاب، حدّثته بالفرنسيّة، ودون مقدّمات سألته إن كان ألمانيًا، أجابها بفخر أنّه دانماركي. قرعت كأسها بكأسه، ثرثر لأكثر من ساعة عن وجهة نظره بالشرق. لم تعنها كلماته، كانت تتأمّل قامته الطويلة وبياض بشرته، فكّرت بأنّها لن تغادر دبي قبل تذوُّق طعم الأوروبيين. قالت إنّها طالبة مسرح تزور أختها المقيمة في دبي، حدّثها دون توقّف عن هنريك إبسن النرويجي، وافقت على كلّ آرائه ولم تتوقّف عن إغرائه، توقّف فجأة عن الثرثرة ودعاها إلى شرب كأس في غرفته، هزّت برأسها موافقة، حملت حقيبتها ومضت معه.

حين دخلت إلى غرفته في الفندق وجدت امرأة أربعينيّة تشبه أمّها بمنخارها المتعالي. أحسّت بورطة حين قدّم لها زوجته سوزانا، صافحتها بلطف وصبّت لها كأس فودكا مع شرائح ليمون، تحدّث الثلاثة بملل عن الملل في دبي. استرخت حين التقطت نظرة سوزانا إلى زوجها وضحكت في سرّها. فوجئت بمغامرة لم تكن تنتظرها، بادرت إلى فتح زر قميصها العلوي، لمست بإصبعها طرف قميص نوم سوزانا، عرفته غالي الثمن. نهضت تريد المغادرة، فوجئت بالرجل يعرض عليها البقاء ومراقبتهما أثناء ممارسة الجنس، طلبت منه تقبيل أصابع قدمها، هرعت سوزانا بقوّة نحو قدمها وقبّلتها، تلمّستها بيدين خبيرتين، مسحت على جوربها الناعم، صبّت لها كأس فودكا جديدة، بينما زوجها يلاحقها من الخلف ويتعرّى، رأت عضوه كبيرًا وخاملاً. أحبّت أن تقود اللعبة، أمسكت بعضوه وشعرت بالرضا حين وثب من خموله، أمرت المرأة بلهجة قاسية بالتعرّي والتمدّد على السرير.

المرأة المهتاجة من أوامر سوسن ركعت مرّة أخرى، رجتها بلغة خادمة ذليلة إعادة ملامسة عضو زوجها. ذهبت سوسن أكثر في اللعبة. شعرت برأسها ثقيلاً، فقدت حماسها فجأة، قبّلت المرأة من شفتيها قبلة طويلة وخرجت من الغرفة دون وداع.

فشلُ مغامراتها الأخرى أعاد صورة منذر إليها. عادت لانتظاره كخادمة تستجدي سيّدًا، بكلمات مباشرة طلبت منه الزواج، بكلمات أقلّ بساطة أخبرها باستحالته، تلقّت ببرود تبريراته، لم تنفعل لكنّها رجته بحرارة أن لا يتركها. استغربت حين كرّرت كلمات المرأة الدانماركيّة لها أنّها خادمة وهو سيّدها. أضافت أنّها لن تعترض طريقه، لحيته الطويلة أشعرتها بقرف، وكأنّها طلبت الزواج من رجل آخر تتعرّف إليه الآن.

كانت بحاجة لهذا الدمار كي تشعر بأنّها لن تندم على هجر دبي، والذهاب إلى مكان آخر للبحث عن رجل آخر وروائح مدن أخرى.

لم نعرف سوسن حين وقفت في باب البيت حاملة حقيبة صغيرة ممزّقة. أمّي نظرت طويلاً في عينيها، رغم تعاطفها أحسّت بأنّها تكرهها، فعلت ما كانت تحلم أمّي به، السفر والتشرّد. احتضنتها ببرود احتملته سوسن حين رأتني أقبّلها وأبكي بحرقة، ورائي رشيد ينتظر احتضانها باكيًا بصمت. شعرت أنّها أمّنا التي تركتنا لتلاحق نزوة، عادت تطلب منّا الغفران والسماح بالعودة إلى حياتنا التي بدأت تدخل في نفق العزلة اللامتناهي.

جميعنا نسير في البيت غرباء أحدنا عن الآخر، حياديين تجاه الأثاث الذي بدأ يتهالك. أمّي في السادسة والأربعين من عمرها،

امرأة هرمة كفاية كي لا تشعر سوسن بكراهيّتها. دخلت إلى غرفتها، وجدت آلات رشيد الموسيقيّة، الكمان والتشيلو والساكسفون الذي بدأ يعزف عليه مؤخّرًا مقطوعات جاز رائعة تذكّرنا بوجوه فلّاحات ميدان أكبس وموظّفي محطّتها، أمّي بقيت مصمّمة على إعادة عزف مقطوعة الموت والعذراء لشوبرت، يعلّق رشيد ساخرًا بأنّ أمّنا ولدت على درج أوپرا ڤيينّا. رجت رشيد أن يبقي آلاته في غرفتها، يعزف لها أغنية فرنسيّة لجاك بريل ترجمتها له ومضت تشرح بحماس معانيها.

كأنّها لم تغادرنا ثلاث سنوات. اعتذرت عن فقرها الذي منعها من شراء هدايا كانت تتأمّلها في محلّات دبي وباريس. استعدنا مرحنا وأمّي أصبحت أكثر كآبة، أفلتنا من صرامتها وتشكّيها الدائم من نقص الأوكسيجين في الهواء، لم تعد ترغب باستقبال زميلاتها في المنزل بعد انتساب أغلبهنّ إلى الحزب. خوفها من التصريح جعلها مثقلة بهموم كثيرة، مكتفية برسائل تكتبها وتتركها على طاولة الطعام التي بهتت ألوان أغطيتها المطرّزة كي نقرأها. لا شيء يثير اهتمامنا، أنا في سنتي الأخيرة من الجامعة، ورشيد موسيقي محترف يعمل مع خالي نزار، يوزّع علينا النقود القليلة ويحتفظ لنفسه بمصروف شابّ لا يخرج من المنزل طوال النهار، يغيب لأشهر ينام خلالها في غرفته في منزل خالي نزار الفاخر الذي تذكّر بعد أسبوع من عودة سوسن عيد ميلادها الثاني والعشرين. دعانا مع عائلات موسيقيّي فرقته إلى عشاء فاخر في مطعم الشلّال، اهتمّ بضيوفه، أمر لهم بأفضل أطباق أقراص اللحمة بالنعنع والفطر باللحمة والكبّة النيّة، تذوّق كلّ شيء، أعطى

تعليماته بحيويّة للكراسين كي ينبّهوا الشيف إلى قلّة البهارات. رأيناه في صورة مختلفة، رجل محترم من الجميع، يأمر ويدسّ نقودًا كثيرة في أيدي الخدم ليتسابقوا على خدمتنا. زوجات الموسيقيين تبادلوا المجاملات مع أمّي، شعرنا بأنّ عودتنا عائلةً لا تخاف المستقبل ممكن، عائلة مرحة ولديها أسرارها الحميمة. تفاءلنا ليلتها، وقفت سوسن وأطفأت شموع قالب كاتو كبير كُتب عليه بالكريما ألف سنة لأميرة القلوب سوسن. طلبت أمّي من نزار تكرار الدعوة والاهتمام بصورتنا كعائلة، لم يتوان نزار عن تلبية طلبٍ بسيط كهذا لأخته الحبيبة، كلّ أسبوع يدعونا إلى مطعم جديد، ونفاجَأ بمعرفته أسرار المدينة.

الدعوات التي استمرّت طوال شتاء ١٩٨٧ لم تنقذ أمّي من إحساسها بالهجر، لم تُنسها رائحةَ جسدها الذي يفوح برائحة الأقبية، ولم تقرِّبْ سوسن منها. دون سببٍ ترفض سوسن في اللحظات الأخيرة الذهاب معنا، تبقى وحيدة في البيت تعيد ترميم ذاتها التي تناثرت إلى شظايا، كما أخبرت رشيد، الذي يلحّ عليها لتروي له تفاصيل سفرها.

الآن في عيد ميلادها الثلاثين حاولنا استعادة ما تبقّى من حرارة علاقتنا، نتحدّث بصوت منخفض خوف أن يسمعنا إخوة الرفيق فوّاز الذين تركوا خدمهم في المستودع الكبير وانتقلوا إلى شقق فاخرة في أحياء بعيدة. مكبّرات الصوت صدئت لكنّها ما زالت معلّقة مكانها، مكتفيةً ببثّ أغاني الحزب الثوريّة في مناسبات لا تنتهي، في السنوات الأخيرة تُسمع أثناء سيرك مسجّلاتٌ عتيقة تبثّ آيات من القرآن الكريم تنبعث من شبابيك شققٍ في الحيّ تشبه

القبور، بُنيت على عجل بموادّ مغشوشة وبيعت بمبالغ طائلة لفلّاحين فقراء ما زالت حلب تجسِّد حلمهم بالثراء والعيش المدني، رغم تحوّل أكثر من ثلاثة أرباع أحيائها إلى عشوائيّات غير صالحة للحياة فيها، فيها انتشرت الجريمة، ملتحون يلاحقون بكبتٍ في وضح النهار أيّة امرأة ترتدي ملابس قصيرة، يذهبون إلى المحاكم إن قبض عليهم، ويخطبون في جموع القضاة عن الشرف والانحلال الأخلاقي وحقِّهم في محاسبة المستهتِرين بتعاليم الدين الحنيف. مهرجانُ جنونٍ حقيقي، وروائح غريبة، أصبحت حلب مدينة مستباحة لخوف لم يتوقّف، مدينة معاقَبة، تئنّ تحت رغبات رجال مخابرات ومسؤولين فاسدين لا يتقنون شيئًا إلّا الولاء وعقد حلقات الدبكة في استفتاءات الرئيس التي جعلت جان يكتب لابنه بأنّه شعر لأوّل مرّة في حياته بعار لا حدود له.

عبّرت سوسن عن ضيقها من صورة حلب الجديدة. الخوف الذي ساهمت مع رفاقها في نشره بدأ يحاصرها. لم تعد تجرؤ على ارتداء التنّورات القصيرة، ولحماية نفسها من المتحرّشين تضع في حقيبتها سكّينًا كبيرة وحادّة، بعد تسليم مسدّسها لفرع الأمن.

أرادت محو صورتها القديمة من ذاكرتها. تقاريرها المثقلة بالوشاية أودت بالعشرات إلى غرف التحقيق، ودمّرت مستقبل الكثيرات من زميلاتها. فكّرت بأنّها ورفيقاتها قد بعن أنفسهنّ مقابل لا شيء. نقود قليلة يقبضنها في نهاية كلّ شهر لا تكفي لشراء حذاء، ووظيفة تافهة راتبها لا يطعم ثلاثة أشخاص لمدّة أسبوعين. تساءلت عن الضجيج الكافي للقتل المنبعث من نفوذ جابر وفوّاز وإخوته وباقي مسؤولِي المدينة. أدركت بأنّها تغيّر ضفّتها السابقة

وتقفز من المركب الخاسر. ندمت على إيمانها الذي انتابها للحظات قليلة بفكر الحزب القومي الذي جمعت كرّاساته من مقولات مختلفة بصياغات إنشائيّة مضحكة لمفكّري الحزب نفسه، الذين فصلهم الرئيس وراقبهم بعد وصوله إلى السلطة وأعلمهم ببساطة بأنّ المطالبة بتجديد فكّر الحزب يتوقّف عند الكلام فقط، كما تحرير فلسطين تمامًا.

جابر أُوفد إلى رومانيا على حساب الدولة سبع سنوات، قضاها في تجارة العملة وكتابة تقارير بالطلّاب والجالية السوريّة. عاد حاملاً شهادة دكتوراه في تخطيط المدن الذي يعني له هدم كلّ الأمكنة الرائعة التي تعشعش في ذاكرة المدينة، في جدرانها القديمة، والشراكة مع تجّار بناء لم يتركوا بناءً واحدًا في حيّ الجميليّة الرائع والمنشيّة القديمة إلّا خرّبوا رموزه، يستخرجون ببساطة رخصًا للهدم وطرد السكّان بشتّى الوسائل من منازلهم الرحبة والدافئة، وارتجال أبنية رخيصة، غرفها تشبه منازل الفئران. يدافع الدكتور جابر عن التحديث في مؤتمرات الحزب التي أصبحت في الآونة الأخيرة مكانًا رائعًا للتثاؤب، تمرّ دون أن يشعر بها أحد من السوريين الذين اقتنعوا بحياتهم الموازية التي يعيشونها مع الحزب الحاكم ورئيسه. جابر يردّد بين الجملة والأخرى كلامًا مكرورًا من شعارات الحزب وأقوال الرئيس القائد ووصاياه، وهنا ينتهي أيّ كلام. ببساطة يطالب بفصل أساتذة ينتقدون خراب المدينة، مبرهنين بأنّ روح المدن العظيمة تطارد مخرّبيها إلى قبورهم. لا يبقى أمام هؤلاء الحالمين ضدّ خطابة الدكتور جابر سوى حمل أمتعتهم والهجرة خارج المدينة التي عشقوها، يقضون

بقيّة عمرهم في الولايات المتّحدة ودبي وباريس يطبخون في نهاية الأسبوع أطعمة مدينتهم، صاحبة أعظم مطبخ في التاريخ، يتحدّثون لزملائهم الأجانب عن تاريخ كلّ طبخة بإسهاب، يعودون إلى صمتهم، يتمدّدون في أسرَّتهم، غرباء العواصم هؤلاء.. ويموتون بمرض الحنينِ هادِئين.

بعد تفرّغه في قيادة الحزب، استدعيت سوسن إلى الفرع ووقفت أمام الرفيق جابر، الذي نظر إلى هذه الفتاة البائسة أمامه، بثيابها الطويلة وغطاء رأسها الذي بالغت في سماكته. طلب لها قهوة، تحدّث كأيّ صديق يتذكّر طفولته البعيدة معنا ومع أمّي التي قال إنّه يحترمها، وتدخّل لدى القيادة أكثر من مرّة كي لا تفصل من المدرسة بعد رفضها الصريح التوقيع على طلب انتساب إلى الحزب. أخرج دزّينة أوراق بيضاء وقلم حبر جافّ، طلب منها أخذ وقتها وكتابة كلّ شيء عن منذر ونشاطاته. أردف بأنّها رغبة قيادة الحزب لإعادة الاعتبار لها. تمنّت لو أخرجت مسدّسها الذي سلّمته للمحقّق في فرع المخابرات من حقيبتها وأطلقت عليه الرصاص، فكّرت.. روح المدينة وضحاياها قد يسامحونها. شعرت برغبتها في التقيّؤ، حملت حقيبتها وخرجت من المكتب دون التفوّه بأيّة كلمة.

سارت في الشوارع لوقت طويل، بحثت عن مدينتها في مدينتها التي خافت أن تخنقها روحها ذات يوم، تخيّلت نفسها واقفة في صفّ طويل مع رفاقها وروح المدينة تسألهم عمّا فعلوا. دخلت إلى الجامع الأموي، اختارت ركنًا بعيدًا، صلّت عشرات الركعات، قرأت كلّ ما حفظته من أدعية، بعينين مغرورقتين

بالدموع طلبت الرحمة لروحها، ومن ضحايا تقاريرها الغفران.

لفحها هواء كانون الأوّل البارد، خرجت من الجامع، تساءلت ماذا يعني أنّها لم تنه جامعتها بعد وأنّها تعمل معلّمة وكيلة في مدرسة قرية بيانون، تتلوّث ثيابها في الطين شتاءً والغبار صيفًا، تسافر في باصات مكتظّة بريفيين يدعسون على قدمها دون الالتفات إليها والاعتذار عن خشونتهم.

تركتنا نحتفل بعيد ميلادها الثلاثين، شعرت بهزيمتنا جميعًا، خوفنا من كلّ شيء، تواطأت معنا بابتسامة يتعلّق رشيد بها كي لا يموت من كآبته. تلك الليلة نظرت طويلاً إلى الصقور الثلاثة، بحثت في ثباتها عن معنى لحياتها في اليوم الأوّل للعقد الرابع من عمرها. عادت إليها ظلال مرحها وسخريّتها المُرّة، قرّرت: لن ترى هبة مرّة أخرى، ستعيد ترتيب حياتها من جديد، ستذهب في العيش على حوافّ المغامرة ولن تقبل هذه النهاية المسكينة، معلّمة وكيلة في الأرياف، يحاصرها رفاق حزبها القدامى لتعود إلى صورتها القديمة كمخبرة صغيرة، بكلّ قوّتها تريد حذف هذا المقطع من ماضيها كأنّه لم يكن أصلاً، لا حزب ولا فروع مخابرات ولا ضحايا، تريد العودة إلى صورتها الحالمة، امرأة تثير الرجال برائحة عطرها، يتفتّق ذهنها عن أفكار مجنونة ومتهوّرة. منحت منذر أقصى لذّة ممكنٌ أن يحصل عليها رجل في حياته، فكّرت في أنّها بعد منذر أصبحت امرأة لا معنى لها، لا معنى لأفكارها، تمتحن خيالها لتسعد حبيبها الذي يتمدّد الآن قرب زوجته، يبحث في جسدها البليد عن روائح نساء أخريات، يبحث عن رائحة الحموضة الحارقة في ذكرى نهدَي أختها سحر. يئِسَ من الأسبوع الأوّل من

محاولة البحث عن رائحة سوسن في هذه الجيفة الباردة التي تكدّس الأثواب في خزانتها، غرق أكثر في قراءة الكتب التي يرسلها جعفر أخوه بطرود بريديّة تصل بشكل منتظم كلّ ثلاثة أشهر، قراءات في التجربة الإيرانيّة، اجتهادات في الفكر الشيعي وسِيَر الشهداء. يبكي حين يُعيد قراءة سيرة الحسن والحسين، يحفظ مقاطع كاملة من نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، خصّص في منزله الزوجي الجديد زاوية صغيرة، فرد فيها سجّادة صلاة أصفهانيّة طلبها هديّة من أحد أصدقائه الإيرانيّين، وجرّة ماء فخّاريّة، خزانة كتب كبيرة، بدا راضيًا حين بدت زاويته مكانًا مثاليًّا للتأمّل في مصير الكون والإنسان.

لم تعد سوسن تؤرقه إلّا حين يتمدّد في بانيو الحمّام الفاخر، تغمر جسده المياه الساخنة، تفكّكه وتعيد الدم إلى عروقه، ينتفخ عضوه ويتذكّر سوسن. أخطأ حين لم يدعها قربه، كان واثقًا أنّها لن ترفض، تخيّل حياته معها من جديد. عزلته تحتاج إلى حياة سرِّيّة جنسيّة تجعله بعيدًا عن انتكاسات رغبة في عروقه حاول قتلها، فاجأته تحوّلاتها وإصرارها على البقاء في عروقه. يفضّل استحضار صورة سوسن وممارسة العادة السرِّيّة على مضاجعة زوجته. يخرج من غرفته مثقلاً بذنوبه، يغرق أكثر في صومعته، قانِعًا بمهمّات قليلة اكتفى سيّد القصر بتكليفه بها بعد أن رأى زوغان عينيه الدائم، واستشهاده بآيات القرآن وأبيات الحكمة التي حفظ أغلبها عن ظهر قلب.

لم يحتجّ على إسناد أغلب مهامّه السرِّيّة لـ «غليوم» الفرنسي خرِّيج معهد الدراسات الشرقيّة في دمشق، الذي يتقن العربيّة بأكثر

من لهجة، والفارسيّة والقليل من الكرديّة، تعلّمها حين أُغرم بفتاة كرديّة تعيش في غرفة فقيرة في حيّ الشيخ محيي الدين مع صديقتها دلال المولعة باصطحاب طلّاب أجانب إلى سريرها، تلتقطهم آخر الليل من البار بعد سهرة الخميس الصاخبة، تحدّثهم عن ولعها بالحياة الأوروبيّة، متماهية مع كلّ تفاصيلها ببناطيل الجينز المقطّعة والقذرة التي ترتديها والبلوزات البدويّة المطرّزة. تشتم تخلّف أسرتها في مدينة السويداء، تتحدّث بإنجليزيّة متواضعة عن ولعها بعروض الرقص الحديث. اصطحبت غليوم ذات ليلة إلى غرفتها، تركته غارقًا في نومه وسافرت صباح يوم الجمعة إلى مدينتها السويداء. حين استيقظ غليوم بعد صلاة الظهر، فوجئ بنارين وضآلة جسمها تصنع القهوة في المطبخ الصغير. سألها عن صديقتها التي نسي اسمها، أخبرته بسفرها الاضطراري، وبلطفٍ دعته إلى مشاركتها القهوة. حدّثته عن خطيبها المقيم في القامشلي مهندس الميكانيك الموظّف في رحبة مؤسّسة الحبوب، وعن ولعها بأغاني الأكراد. ترجمت له أغنية لجوان حاجو وغنّت له مقطعًا طويلاً من أغنية محمّد شيخو (Aman dilo) الشهيرة، ردّدت بفتنة (ji derde yare tu bi kulo)، غنّى وضحك الاثنان وتحدّثا بتلقائيّة وبساطة. دعته إلى غداء حضّرته من بقايا بطاطا وباذنجان. لم ينتبها إلى ظلال المساء، فهم أنّها تترك الغرفة يوم الخميس لصديقتها وتنام في غرفة صديقةٍ أخرى تدعى شيرين في المدينة الجامعيّة، مقابل ترك دلال الغرفة حين يأتي خطيبها وليد من القامشلي، شعر بقربه من هذه الفتاة الضئيلة التي تحافظ على عذريّتها ليوم زفافها بعد ثلاث سنوات. في الأيّام التالية فوجئت دلال حين رأت غليوم على باب الغرفة يطلب رؤية نارين، اصطحبها إلى حفلة سيسيل،

زميلتِهِ في المعهد، التي وقعت في هوى دمشق واستوطنتها، نسجت علاقات مع أغلب مثقّفيها الكبار. كانت موضع تقدير كبير لدفاعها الدائم عن المكان الذي استهواها ضدّ جهل الأوروبيين بمستعمراتهم القديمة، قصّة حبّ غليوم ونارين نُسجت ببساطة، فوجئت نارين حين وجدت نفسها تفكّر بغليوم وتشتاق إليه، شعرت بالذنب، توتّرت علاقتها مع دلال التي زادت مواعيدها وتعدّت إلى كلّ الأوقات ولم تعد تكتفي بيوم الخميس، حملت نارين حقيبتها وتركت الغرفة لدلال التي لم يطل الوقت حتى فوجئت بإخوتها الأربعة واقفين على باب غرفتها. أمروها بلهجة قاسية بلملمة أغراضها خلال نصف ساعة، زُفّت بعد أيّام إلى أحد أقربائها المغتربين في فنزويلا. فكّرت في يوم عرسها أن ما عاشته يكفي لتكتب كتابًا عن طعم الرجال الفرنسيين والبريطانيين واليابانيين، تضحك حين تجلس في منزلها الكبير في جزيرة مارغريتا تطبخ لزوجها الذي رغم عيشه لعشرين سنة في فنزويلا بقي يطلب الملوخيّة نفسها التي تطبخها أمّه. تشرب دلال قهوتها وحيدة وتتذكّر وجوه عشّاقها العابرين، تفكّر بالكتاب الذي ستكتبه عن رجالها، متفحّصة في الوقت نفسه أهدافها الجديدة من الرجال الفنزويليين والمكسيكيين والبوليفيين. لم يتأخّر الوقت حتى يكتشف أقرباؤها وأولاد عمومتها مواعدتها عشيقًا مكسيكيًّا في إحدى شاليهات الجزيرة السياحيّة. قيّدوها وحجزوا لها بطاقة طائرة إلى دمشق، استقبلها إخوتها الأربعة صامتين، اقتادوها إلى خارج مدينة السويداء، أطلقوا النار عليها من أربعة مسدّسات وحملوا جثمانها إلى المنزل طالبين من أمّهم الزغردة. اعترف الأخ الأصغر الذي لم يبلغ السادسة عشرة من عمره بإطلاق النار عليها من أربعة مسدّسات

ومن كلّ الجهات ماسحًا للأبد جريمة أخته التي لوّثت شرف العائلة، كما أفصح لقاضي التحقيق الثالث في السويداء الذي منحه العذر المخفّف في القانون السوري، واستبدل عقوبة القتل العمد إلى القتل بدافع الشرف. خرج بعد سنتين من السجن يتبختر في شوارع السويداء بطلاً قوميًا.

خافت نارين من مصير مشابه لصديقتها دلال. أخبرت غليوم أنّها لن تراه مرّة أخرى، محتفظة بقبلات ملتهبة كانت تلتهم شفتيه بشبق لا يستطيع غليوم مقاومته. بعد لقاءات قليلة طلب منها اعتباره صديقها الحميم وتَقَبُّل هديّته زجاجة النبيذ الفاخرة هديّة أخيرة أحضرها لها خصّيصًا من كهف في إحدى قرى إكس إن بروفانس، قبّلها على خدّها وودّعها.

تنفّست نارين الصعداء لمرور مغامرتها الصغيرة دون فضيحة، احتفظت ببضع صور جمعتهما في منزل سيسيل التي أحبّت هذه الفتاة اللطيفة دون أن تسأل عن سرّ علاقتها مع غليوم المغرم بالشرق. بعد ثلاث سنوات اضطرّ غليوم للمفاضلة بين انضمامه للعمل في وزارة الخارجيّة الفرنسيّة أو العمل مع حبيب الموصلي الذي أعجب بفيض معلوماته الهائلة عن العائلات وقراباتها ونفوذها التاريخي في بلاد الشام. لم يحتج غليوم وقتًا طويلاً للصعود إلى الحلقة الضيّقة المؤتمَنة على أسرار سيّد القصر، حاول الاقتراب من منذر مادحًا ذوقه في اختيار صديقة جميلة كسوسن المرحة التي كانت تتبارى معه في تبادُل مفردات قاموس الشتائم والكلمات البذيئة في اللهجة الحلبيّة، وسط ضيق منذر الذي فوجئ بأنّه يستشير غليوم في بعض المسائل الأساسيّة في الفقه الشيعي، ويجيبه غليوم

مفنّدًا حجج فقهاء كثيرين خالفوا النصّ الأصلي في اجتهادات تداخلت إلى درجة أصبح من المستحيل الإلمام بها.

تتذكّر سوسن وجه غليوم الضاحك، وأحاديثهما عن العبث ومسرحه. تصفه بالصديق الرائع الذي فوجئت بعدم ردّه على رجائها بمساعدتها للبقاء والعيش في باريس. اكتفى بإرشادها إلى منزل صديق فرنسي استقبلها بلطف ثلاث ليالٍ، وقبل أن تحمل حقيبتها وتغادره عرض عليها خمسمائة فرنك فرنسي كانت مضطرّة لأخذها، عادت مرّة أخرى للنوم على أريكة قذرة وسط روائح توابل مغربيّة في مطعم زهرة وهران البعيد عن مركز باريس التي حلمت بالتهتّك في أحيائها الراقية حين كانت ترسم صورتها كزوجة ضابط صاحب نفوذ كبير.

قبل الفجر نهضت من سريرها، توقّفت ضجّتنا في الصالون، خرجت إلى الحمّام الذي أشعلت مدفأته منذ ستّ ساعات، سمعت صوت المياه المغليّة في قاظانه، جلست في البانيو الذي اصفرَّ من تراكم الأوساخ خلال السنوات الماضية، وتقشّر دهانه ككلّ غرف المنزل. أحسّت بهزيمة أمّها حين تذكّرت الصورة القديمة.. حين كان الحمّام يلمع وتفوح منه روائح الصابون المعطّر، غرقت في الماء الساخن أكثر من ثلاث ساعات في استرخاءٍ فتح مسامات جسدها، خرجت ملفوفة بمنشفة. رأت أمّي جالسة على كرسي خشبي تخلّعت قوائمه، لم تنظر إلى جسدها الملفوف بمنشفة، اكتفت بدعوتها إلى القهوة. كانت أمّي مرتدية ثيابها الكابيّة، شكرتها ببرود على دعوتِها، وقبل أن تمضي إلى غرفتها فتحت باب غرفتنا. رشيد غارقٌ في النوم ونزار مدّ فراشًا قطنيًّا تمدّد عليه.

حبّ كبير تكنّه لنا نحن الثلاثة الذين نقتسم الغرفة. أغلقت الباب بهدوء، صلّت للمرة الأخيرة صلاة الفجر، وبعد استيقاظها فوجئتُ بها ترمي ملابسها الثقيلة في حديقة المنزل التي ماتت أغلب أشجارها. رمت ثوبها الطويل وأغطية رأسها، كفوفها وسجّادة الصلاة، أشعلت النار، ابتسمت وقالت لرشيد: ستعود سوسن المرحة، لن تقبل الهزيمة بهذه البساطة. كان تصميمها ينقصه اليقين في صوتها، قرأت الخوف في وجهها الصافي تلفحه ظلال نار تحوّلت إلى رماد. عشرات الوجوه المطلّة من الأسطح والمناور المحيطة بنا راقبوا نارًا تخمد بهدوء، لا يعرفون أنّها حوّلت سنواتها السبع إلى رماد نثارُه لفح وجهي وأعادني مرّة أخرى إلى القلق الذي ينتابني كلّما رأيت سوسن تخسر يقينها.

قضت وقتًا طويلاً في المنزل، تناقش رشيد في الفكاك من الماضي الذي أثقل روحه أيضًا، يتحدّث بكلمات غير مترابطة عن سعاد، يشير إلى زجاجة رمادها الموضوعة فوق الخزانة كأيقونة، يكمل ويحدّثنا عن شوقه لأبي، لرؤية وجهه مرّة واحدة قبل موته، يتحدّث رشيد بحرقة ولهجة جدِّيّة عن الموت، شاتمًا مدحت الذي طرده من منزل خالي نزار الضعيف أمام بطشه، متجاهلاً كلّ الكلمات البذيئة التي شتم فيها أمّنا. رمى مدحت حطام الكمنجة على الدرج وأفرغ خزانته من ملابسه وأشيائه الحميمة التي يحتفظ رشيد بها في بيت خالي نزار. لم تردّ سوسن على هذيان رشيد الذي لم يتوقّف. نظرت إلى رماد سعاد وأيقنت أنّنا عائلة ذاهبة إلى هاويتها السحيقة، نحتاج إلى معجزة كي تنقذنا من خوفنا وهلعنا أمام أيّ شيء.

حين يكون أيّ شيء قادرًا على هزيمتك يجب عليك استجداء الموت، قال رشيد مشيرًا بقرف إلى كمنجة جديدة أحضرها خالي خجلاً لابن أخته المحبوب، الذي ربّاه يومًا بيوم. فقد في الأيّام الأخيرة نظرة النسر حين يمسك بالكمنجة ويبدأ تقاسيمه، نزار ما زال يراهن عليه مردّدًا أمام موسيقيي حلب: يحتاج إلى محنة كي تروا عبقريّته. انتظر الجميع مقطوعات رشيد التي لم يؤلّفها، اكتفى بالصمت غير آبه بأمّي التي بدأت تكتب رسالة كلّ يوم ترسلها إلى عناوين خاطئة وتنتظر جوابًا لا يأتي.

ماذا تبقّى لنا إذا ضيّعنا العناوين؟ العبث الذي غرقت فيه المدينة صدمني، بحثت عن عمل، توسّط لي أحد أصدقاء نزار للعمل كمترجم نشراتٍ تخصّ صناعة النسيج بالقطعة. أذهب إلى معمل النسيج في السفيرة، أنتظر ساعات حتى يعطوني النشرات، أقضيها في التلصّص على موظّفي وموظّفات المعمل الضخم. عقدت صداقة بريئة مع فتاة كانت تقول لي: الوجوه المتقابلة لا يمكن لها أن تتصادق. لم أفكّر كثيرًا بريبتها من الأشخاص. إنّها حالة طبيعيّة في هذا المكان، كلّ الناس تخاف الانزلاق بأيّة كلمة سهوًا عن وضع البلاد والغلاء والعنف الذي بدا واضحًا. إذا قلت البقدونس غالٍ فهذا يعني للمخبرين أنّك تتشكّى من سياسة الحزب، وإذا قلت بأنّك تفكّر بالموت فهذا يعني أنّك لا تحبّ الحياة تحت وطأة أحكام الحزب. كلّ شيء مرتبط بالحزب الذي أعجبَ الرفيق جابر ورفاقه في القيادة جرُّ الناس إلى الشوارع في مسيرات تأييد مليونيّة له لا تنتهي، يغرق جان بالعار وهو يراقب من أباجور منزله في الطابق الأوّل زملاءه ما زالوا يدبكون كما كانوا منذ عشر

سنوات، إلّا أنّ ظهورهم قد انحنت أكثر.

أجلس في الممرّ وأنتظر مسؤول العلاقات العامّة. يراني كأنّي وصلت للتوّ، يناولني النشرات وأمضي في طريقي دون سماع ملاحظاته المتكرّرة عن دقّة وضبط المصطلحات النسيجيّة. أسهر طوال الليل أترجمها لأشعر بأنّني أقوم بفعل مهمّ، أُعيد صياغة الجمل، أفتح القواميس وأبحث للمرّة الخامسة عن أنسب معنى. أفكّر بأنّ العمل في النشرات أفضل من الوقوف ساعات طويلة أمام سبّورة لتعليم تلاميذ أغبياء سيكتبون تقارير للمخابرات حين يكبرون. أثمّن حرّيّتي، لا أعرف ماذا أفعل ببقيّة يومي، أفكّر بإعادة ترجمة الأرض اليباب لـ «تي.إس. إليوت»، لا لشيء إلّا للإحساس بتلك الأبيات العظيمة التي تتحدّث عن الخراب. أُخبر سوسن أنّني أتمنّى لو أفكّر بالموت. تبقى ساهية، تخبرني أنّها رأت جان بعد هذه السنوات، ندمت لاستهانتها برغبته التي استدرجتها لسنتين. وحينما اكتملت غلمته فرّت كأنثى نسر تعاقب حبيبًا لتأخّره عن موعدها الذي حدّدته.

أخاف من تجمّعات تقود إلى الهستيريا، كأن يجتمع مجموعة شباب وصبايا يغنّون بصوت واحد بعد مشاهدة فيلم سينمائي. تقول أمّي إنّ المخبرين سكنوا أوراق الشجر، توصينا بالصمت وهزٍّ رأسنا برضا كما بدأت تفعل منذ سنوات بعد اختفاء زميلها مدرس الجغرافيا، مضيفة: ماذا تفعل الفئران حين تحاصرها المصائد؟ تصمت. كلّ الناس صمتوا إلى درجة أنّهم أثاروا ملل الفروع الأمنيّة التي لم يعد لديها شيءٌ تفعله سوى لعب طاولة الزهر، وفتح ملفّات مؤجّلة استبق معظم أصحابها الاستدعاءات وهاجروا خارج البلاد.

سوسن تراقب المدينة بصمت من القلعة حين تغرب الشمس، مع مصوّر أرمني لاحقها سنوات كي يصوّرها عارية، ويفتتح معرضه الأوّل عن الجسد في باريس. بدا لها الصمت ثقيلاً، حبست أنفاسها، لأوّل مرّة خافت من الظلام. ينظر قره بيت إليها ويطقّ لها صورًا. حين علّقها على الجدار شعر بالفرق بين ذلك الوجه الذي لم ينس تقاطيعه الحادّة الشهوانيّة، وهذا الوجه الذي يبدو مسالمًا بأكثر ممّا يحتاجه مصوّر محترف يطمح إلى العالميّة، قدّر أنّ جسدها أيضًا، لم يعد يصلح موديلاً يستأهل دفع نقود ليتعرّى.

صدق ظنّه في اليوم التالي. أتت سوسن، قرعت باب منزله الساعة السابعة مساء، دخلت إلى غرفة التصوير المعدّة كـ «ستديو» فيه لمبات إضاءة وشمسيّة عاكسة للضوء وأريكة وسجّادة فارسيّة بيضاء اشتراها خصّيصًا لتجربته من مزاد في كالكوتا. سوسن فكّت أزرار قميصها، خلال دقائق تعرّت وسألته أين يريدها أن تتمدّد، نظر إليها، رأى تجاعيد ساقيها وانتفاخًا صغيرًا في بطنها. أشار لها بالتكوّر على الأريكة، التقط بضع لقطات وأعطاها حسابها. شعرت بأنّها لم تعجبه، أعادت له النقود واشترطت عرض الصور وحسب الاتّفاق عدم تصوير وجهها بشكل مباشر، اعتذر منها وقال لها إنّه يبحث عن جسدها القديم الذي أغرم به وابتعد عنها خوفًا من منذر. استكانت وطلبت كأس فودكا مع ليمون. الجميع يريدون ماضيها، قرّرت: لن تخسر معاركها مع رجال خصيان، طلبت نيغاتيف الفيلم بلهجة حاسمة أخافته، يعرف أيّ نوع من النساء هي. تناسى صورتها في المعطف الطويل حين تجاهلته وسط سوق التلل. أخذت الفيلم وخرجت تاركة النقود على الطاولة الصغيرة،

ندم قره بيت ولم يجد وسيلة تنقذه من إحساسه أنّها لم تكن سيّئة إلى هذه الدرجة، شعر في تكوّرها على الأريكة بحالة امرأة خائفة وحزينة وخصبة لم يألفها من قبل.

حمّضت الصور العشر بمساعدة مصوّر كردي مجنون، يهذي طوال الوقت بضرورة قبول طلب انتسابه إلى حزب البعث، يتحدّث مع روّاد خمّارة الشباب عن أمّه التي لا تعرف العربيّة وتحلم بتسع لغات. نظر إلى وجه سوسن المطمور على الأريكة. طلب منها نسخة عن الصورة كأجر عن تكاليف التحميض والطباعة التي سجّلها على حسابه، أرسل الصورة إلى مجلّة «صورة» بمساعدة فتاة أميركيّة تدرس اللغة العربيّة في دمشق، تزور حلب كي تلتقي المصوّر المجنون، لا يخرج من غرفتها في الفندق إلّا بعد ثلاثة أيّام تاركًا إيّاها مصابة بدوار قوي من قوّة النكاح الذي يصل إلى ركبتيها، يذيبهما ويجعلها غير قادرة على الوقوف أو السير لأمتار قليلة، تتغزّل في عينيه بإنجليزيّة لا يفقه كلمة واحدة منها، تقف أمام كاميرته وعينه الساحرة، يلتقط لها بضع لقطات قرب نافذة الفندق الطويلة المطلّة على سينما رمسيس، بعد أن تحوّلت إلى مقهى يرتاده الفلّاحون وصنايعيّة بستان كلّ آب. يفرغ كلّ كبته في جسدها مقابل وجبات طعام فاخر تأتي بها خصّيصًا من مطعم وانيس، وزجاجات نبيذ فاخر تطلبها من بار الفندق، تترك له بضع مئات من الدولارات بحجّة ثمن صورها، ينفقها في بار الشباب ويتحدّث لأصدقائه المفلسين والمكبوتين عن وجهها المضيء كالقمر، وجسدها الذي لا يجد توصيفًا أفضل من أنثى فهد تتمطّى في غابات أفريقيا.

نشرت صورة سوسن في مجلّة «صورة» الفرنسيّة الشهيرة موقّعة باسم رشو داود إلى جانب صور كبار مصوّري العالم. أرسلت المجلّة إلى عنوانه ألفي فرنك فرنسي وستّ نسخ من المجلّة، عرض الصورة في المقاهي مدّعيًا أنّها صاحبته الأميركية التي اشترت له سترة جلد بألف دولار، مظهرًا دعوة موقّعة من رئيس التحرير لإرسال صور أخرى لنشرها، والوعد بدعوته إلى باريس في حال استمرار التعاون بينهما مستقبلاً.

الصورة المنشورة أعادت الثقة إلى سوسن بجسدها، تأمّلت الصور العشر الملصقة على حائط غرفتها، سألت رشيد عن معنى الجسد حين يتكوّر، ببساطة أجابها: يجب أن تصبحي أمًّا.

لم يعد رشيد يندسّ في سرير سوسن، يغفو بين نهديها. لم تعد تمسّد شعره كأنّه ابنها. خروجها من غرفتها في يومها الثالث لدخولها العقد الرابع مرتدية تنّورة قصيرة تحت بالطو مطري قديم وحذاءً جلديًّا فاخرًا موديلاً قديمًا أعادت صَبْغَه ولمّعته بقطعة قماش نظيفة، لم تمنحها الدهشة التي كانت تتمنّاها في عيوننا، امتدحنا ذوقها الرائع وصمتنا. عادت بعد دقائق مشعّثة الشعر، قميصها ممزّق، تبحث عن سكّين المطبخ الكبيرة للانتقام من شلّة زعران لا يفارقون لمبة البلديّة على زاوية الشارع، أثارهم منظر ثدييها المحبوكين بسوتيان حرير تركت لونه الزهري مرئيًّا، هاجموها وتلمّسوا صدرها، أمسكت بواحد منهم ودقّت رأسه على الحائط. هربت من أيدٍ تريد اغتصابها أوّل المساء، حملت السكّين وخرجت باحثة عنهم، وجدت أمّهات يفتحن الأبواب، يشتمنها ويصفنها بالعاهرة.

لم تنس ذلك اليوم، لم تعد للظهور في الحارة إلّا محتشمة، تلفّ شعرها بمنديل تخلعه فور مغادرتها الحارة، رأت عجزنا وخوفنا. لأوّل مرّة تشعر أنّها وحيدة، لم يبق لها إلّا الذهاب إلى الرفيق جابر وكتابة ما يريده من تقارير واستعادة مسدّسها، إلّا أنّها لم تفعل. لن تعود مرّة أخرى إلى ذلك العار الذي حدّثها عنه جان دون خوف، سمح لها بقراءة رسالته الأخيرة الموقّعة ٢٦ شباط من عام ١٩٩٨، حدّث بيير عن جدّته التي لم تعد تريد الخروج من غرفتها، مكتفية بتلمّس مخطوطات قصائد شاعر يُدعى أورخان ميسر، لا تريد سماع صوت عاهراته اللواتي لم يعد يبحث فيهنّ عمّا يشبه سوسن بعد رؤيته لها في ملابسها القديمة، يترك لهنّ حرِّيّة الحركة في المنزل الواسع، وسط غبار يغطّي مساند الكنبات الإسطنبوليّة، وصور عائليّة تبدو كأنّها من قرن مضى، مركّبة عن أزمنة لم يعد أحد يصدّق وجودها ولم تعد أمّي فخورة بأنّها قد عاشتها، متناسية صورة زميلاتها المتظاهرات بثيابهنّ الأنيقة وشعرهنّ المصفوف والمثبّت بزيوت معطّرة.

يكتب جان لابنه بيير، يشرح بإسهاب نظريّته حول العار التاريخي، يُعيد رسم سكّان مدينة واحدة يتقاسمون هواء مدينة واحدة خائفين بعضهم من بعض، المسيحيّون خائفون من المسلمين، الأقلِّيّات الطائفيّة خائفة من الأكثريّة. والأكثريّة خائفة من بطش الأقلّيّة، قوميّات وأديان وطوائف خائفون من الرئيس وضبّاط مخابراته، والرئيس خائف من أعوانه وحرّاسه، وأعوانه يبحثون عن طرق مبتكرة للوشاية بعضهم ببعض وتقديم ولائهم اللامتناهي، ينكّلون بأعدائه ويشون بعضهم ببعض أيضًا، يرفعون

الرئيس إلى مرتبة القداسة والألوهة. رغم ذلك يبقى في قصره خائفًا من حرّاسه، لا يجرؤ على السير في الشارع عشرة أمتار دون مئات الحراس رغم صور يبثّها التليفزيون مرارًا وتكرارًا عن ملايين البشر يهتفون له في مسيرات التأييد. يعيد جان الكتابة عن صورة طالباته الذليلات اللاتي يردّدن نشيد حزب لا علاقة لأغلبهنّ به، عشن معه حياة متوازية ولم يلتقوا به، كغرباء يتقاسمون الطريق وأرصفة المدينة. يلمّح بجمل مواربة إلى سعادته بعيدًا عن زوجته كوليت الجاهلة، التي لم تترك وسيلة لم تستخدمها لتشعره بعار انتمائه إلى بلاد تقول إنّ سكّانها ما زالوا يركبون الجمال، ساخرًا من جهلها بتاريخ مدينته الرائعة، قبلة القناصل وفاتنتهم. في الليالي الشتائيّة يسهب في كتابة الرسائل متذوّقًا طعم فاصولياء مجفّفة تطبخها عاهراته، يتحرّكن بحرّيّة ويستخدمن الطناجر نفسها التي فاخرت أمّه بنقوشها الأسطوريّة التي تظهر الإلٰهة ديانا ربّة الصيد عارية الصدر، أبهى حلّة لأنثى. يختتم رسائله دومًا ببيت من الشعر الفرنسي وحكمة شرقيّة يريد لابنه المزج بينهما ليصبح نصف شرقي ونصف غربي. يكمل سرد نصائحه بوصفه مواطنًا عالميًّا يحارب الشعور بالعار أينما وجده في العالم، كمخلصين كبار تحتاجهم مدينته في سنواتها الصعبة.

تستعذب سوسن تحوّلات جان، تستمدّ منه القوّة. فعل التكرار وغرقه في ترجمة أعمال بلزاك جعله يكتشف أنّ الزمن الذي لا يُنتظر لا قيمة له، يمرّ ببرود تاركًا ندوبه على أرواحنا. يمسح جسد أمّه بالكولونيا، يخبرها أنّ زمنها لم يمض ومرشّحها كابرييل الشامي عاد إلى مجلس النوّاب، تبتسم غير مصدّقة، ممتنّة لوجوده

قربها، ترفض أيّ اقتراح بالخروج من منزلها، لا تريد أن يراها أحد امرأة عمياء وعجوزًا ثقيلة الحركة. توصيه بالتأكيد على جورج حنّوش صانع التوابيت إعادة تجهيز تابوتها وجعله واسعًا من الجهتين لتتمدّد براحة، مستلقية على خشب الجوز والمسكات المذهّبة، يسمع تنفّسها المنتظم. يغلق باب الغرفة، يخرج إلى الشوارع الفارغة، يصل إلى بار الشباب، يتحاشى الجلوس مع الرعاع والمدمنين، يختار زاوية بعيدة، على عجل يشرب كأس عرق ويخرج مسرعًا، يسلك الطريق الذي كان يسلكه أبوه بعد عودته من سينما رمسيس، ويتذكّر حين كان يقوده طفلاً من يده، يشرح له كلّ تفصيل في تاريخ الأبنية والعائلات التي سكنت شققها العالية السقوف، تتدلّى من شرفاتها الورود، يفكّر بالثبات الذي يغرق قدميه في الطين. لم يعد يحلم منذ زمن بعيد، طمأنينته أثارت فيه أفكارًا سيّئة عن شبهه بأمّه في كلّ شيء، ينتظر الموت مثلها، يتخيّل ابنه بيير جالسًا قربه ينتظره أن يموت، ويقرّر أنّه سينتحر وينهي كلّ شيء. لن يسمح للعار بالتسرّب إلى جسده، لن يتفكّك قطعة قطعة. شعر برعب تفكيره بالانتحار، يتشمّم عبق أشجار الحديقة العامّة ويترك لفوضى أفكاره أن تنهش سكينته، يعود بهدوء إلى منزله الغارق في الصمت، يخبر سوسن في اليوم التالي أنّ الموت ليس سيّئًا إلى الدرجة التي نتصوّرها.

لم تعد سوسن تأتي كلّ يوم، تحتاج إلى التأكّد من أنّ صالونه لا يغصّ بالعاهرات. تستأذن بالهاتف، يحدّدان موعدًا، يعجبه عدم اشتياقه إليها، لا يعاتبها على تأخّرها بضعة دقائق، يصبّ لها فنجان قهوتها وينتظرها أن تخبره عن حياتها. تشعر بملله وتفكّر بأنّها لم

تعد تجذبه، تتذكّر حرارة كلماته وسعادته في زياراتها القديمة، تصاب بالرعب أنّ خمس عشرة سنة مضت على تلك الزيارات. هرم قليلاً لكنّه استطاع إيقاف الزمن، يخبرها فرحًا عن كتابته لبيير مباشرة بعد الاحتفال بعيد ميلاده الثامن عشر في الربيع الماضي، تشعر بغصّته أنّ بيير غير مهتمّ بمراسلته، مكتفيًا ببطاقات بريديّة عاجلة وكلمات باردة تقتصر على الأمنيات برأس سنة وميلاد مجيد. يكتفي جان بهذه الكلمات القليلة، يفكّر أنّهما سيمتلكان الوقت الكافي للذهاب إلى السينما والتسكّع في أسواق حلب القديمة، بيير أيضًا سيهرم، يرتاح حين يفكّر بالحكمة المتأخّرة التي تمنحك الانتماء مرّة أخرى إلى كائنات تفترض أنّهم خارج حياتك.

التفكير بأبي يثير سوسن، ماذا لو بحثت عن عنوانه؟ كتبت له عن إحساسها بالعار حين خرجت من عيادة طبيب نسائي رتق لها بكارتها ولم ينجح بإعادة طعم البراءة إلى جسدها، عن منذر الذي كتبت لها رفيقتها اللبنانيّة واصفة مرحلته الأخيرة التي بدا فيها رجل دين متشدّد، يكتفي براتب سيّد القصر التقاعدي. أعجبها عجز منذر إلى هذه الدرجة، ينتظر المريدين، مستعرضًا علومه، معيدًا روْي سيرة حياته من فتى قروي يقبّل يد مشايخه، طموحه كأغلب أبناء صفّه في التخرّج ضابطَ مشاة في الكلِّيّة الحربيّة، إلى ضربة الحظّ، التي تلقّاها حين اختاره القائد ليكون قريبًا منه، ثم نقله إلى قطعة عسكريّة في صحراء دير الزور دون أيّة مهمّات بعد الطلب من قائد المظلّيّين مغادرة البلاد، واستقالته متمنّيًا على أصدقائه التوسّط لدى الرئيس كي يسمح له بمغادرة البلاد للعمل مع حبيب موصلي، الذي غادر البلاد في ظروف ملتبسة بقيت سرًّا حتى الآن، ويُهمس عن

تورّطه في خطأ قديم ببيع أسلحة استخدمها الإخوان المسلمون في صراعهم مع السلطة.

ما ظنّته سوسن ضعفًا لا يليق بمنذر. كان سلامًا يغرق نفسه في راحة لا يزعجه في هدأتها سوى صورة سوسن مرتدية بيجامة من بيجاماته تعدّ عشاءً خفيفًا، لم يستطع نسيان طعم جسدها الذي كان يستطيع استفزاز رجولته في أيّة لحظة تختارها. خطؤه الأكبر كان سيتحوّل إلى ثواب عظيم لو تحلّى بالصبر وتزوّجها ثم حوّلها عن طائفتها لتنتمي إلى طائفته، عبّرت مرارًا عن إحساسها بدماء غريبة تجري في جسدها، تشعر بانتمائها إلى تلك الجبال أكثر من رائحة الأقبية في سهول العنّابيّة، يوصي نفسه بالصبر مرّة أخرى، كي لا يندم إن طلّق زوجته الصابرة رغم غبائها غير المحتمل. كان ليفعل لولا صبرها على هجره إيّاها ليالي طويلة يقضيها وحيدًا. الوقت ما زال مبكرًا للعودة إلى قريته، رغم أنّ أملاكه أصبحت تكفيه للعيش كأيّ شيخ قوي يؤسّس سلالة مشايخ. لمعت في رأسه فكرة لم تتركه، شيخ مقاتل، بعد رؤيته للسيّد حسن نصر الله يخطب في جموع حزبه مهدّدًا بإحراق إسرائيل، علّق صورة كبيرة له، رافعًا قبضته في الهواء كثائر عظيم، عرف أنّ إحساس المقاتل لم يفارقه.

اكتفت سوسن بالردّ على رفيقتها برسالة قصيرة مجاملة، لا تريد أيّ شيء يذكّرها بمنذر. أعجبتها صورته كرجل مسكين ودرويش بعيدًا عن صورته التي كان يطمح إليها كقائد فوج مظليين.

شعرت بالتفاهة تحيط بها، نظرات الجيران الخائفة من فجورها، رغبات الاغتصاب تلتمع في عيون أغلب الرجال الذين تلتقيهم مصادفة، سائق تاكسي ثيابه قذرة. حين خلعت منديل رأسها

ووضعته في حقيبتها، عرض عليها دون مقدّمات ترك الكرسي الخلفي لترى حجم عضوه. فكّرت لدقيقة أنّها ستصبح مجرمة لا محالة. طلبت منه إيقاف السيّارة إلى جانب الرصيف. نزلت بهدوء، خلعت حذاءها وانهالت على رأسه ضربًا، حاصرته وراء المقود وعضوّه يتدلّى من فتحة بنطاله، شتمته أمام المارّة الذين تجمّعوا خلال ثوان، بصقوا عليه، وأحسّت فجأة نفسها وسط جموع كبيرة لرجال مكبوتين يريدون اغتصابها، شقّت الطريق بصعوبة وسط حموضة عرقهم وثيابهم القذرة.

التجأت إلى منزل خالي نزار وهي تبكي، قرعت الباب، فتح لها مدحت الباب، نظر إليها بفجور عارضًا عليها الدخول وانتظار خالها الحردان عند أهله، قالها بوقاحة من يتحدّث عن زوجته، أكمل أنّه منذ زمن ينتظر زيارتها، وطلب من نزار أن يأتي بها إلى هنا لتشاركه الفراش، بصقت في وجهه، نزلت الدرج مسرعة خوفًا من اغتصاب محقّق أفصحت عنه عيناه العنيفتان ويده القويّة التي مدّها لجرّها إلى داخل المنزل.

بكت بحرقة حين رأت وجه خالي نزار مدمّى، وجسده أزرق من آثار الضرب بالعصا التي انهال بها مدحت على جسده شاتمًا أمّه وأخته وسلالته. لم تكن المرّة الأولى التي يضربه فيها مدحت. كان يعتقد بأنّ لطمه عدّة كفوف وركله مرّة في الأسبوع حقّ مقدّس من حقوقه كزوج لـ «مها» التي أصبحها نزار، لكنْ هذه المرّة رأى في هيجانه رغبة كبيرة بالقتل تجاوزت مرحلة الإثارة بكثير. عاد مدحت من عمله غاضبًا لتحويله إلى لجنة تفتيش وسؤاله عن تقارير مقدّمة إلى وزير الماليّة مشتكية من سخف هذا الموظّف الذي لم

يعد يقبل بالهدايا بل تحوّل إلى بلطجي يفرض الخوّات كقاطع طريق، عائلته ليس لديها ضابط كبير يحمي بلطجتها.

حين استلم مدحت مذكّرة الدعوة إلى التحقيق غضب، حمل أوراقه وخرج من مكتبه، حاول نزار التخفيف عنه وخرج للتوسّط لدى تاجر من سمِّيعته الذين يدعمون مشاريع فرقته، بكى أمامه راجيًا التدخّل لدى أصدقائه بسحب الشكاوى ضدّ حبيبه، فردّد الرجل: لا يستطيع العيش بعيدًا عن هذا التافه، كما وصف صديقه. عرف نزار من لهجته أنّه لن يتدخّل. كذب على نزار في محاولة لتهدئته أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

ليلتها كافأه مدحت واعدًا إيّاه بحفلة مجون خياليّة إن طوي ملفّ التحقيق. في اليوم التالي كانت دوريّة أمن تنتظره، دخل إلى الفرع وبقي سبع ساعات يحلف على مصحف صغير اصطحبه معه أنّه بريء من كلّ التهم، وأنّ التقارير كيديّة، ملمّحًا إلى أنّه سيدفع ما يترتّب عليه، المحقّق أفهمه باختصار وبكلمات جافّة أنّ التحقيق فُتح بأمر من الرئيس، الذي تلقّى أكثر من ألف وأربعمائة تقرير تتحدّث عن العنف والتحرّش في الشوارع، والفساد الذي أصبح منظومة تحكم كلّ شيء، بالإضافة إلى أشخاص مقرّبين من سيادته زاروا حلب وفوجئوا بالإهمال الشديد للمدينة التي بدأت تغرق تحت أوساخها، وبأخبار أكثر من ألف قضيّة قتل وسرقة وسطو مسلّح سُجّلت ضدّ مجهول، والتحقيق سيشمل أكثر من خمسمائة موظّف كبير وصغير ولن ترحمهم كلّ وساطات الكون، أحسّ بالعرق البارد يتصبّب من جسمه، طلب منه المحقّق العودة في اليوم التالي، ودون أن يصافحه أشار لعنصر باقتياده إلى خارج الفرع.

أحسّ بوقوعه في فخّ تحاشاه، سيدفع الثمن الذي يجب أن يدفعه الكبار. لم يجد سوى جسد نزار الذي كان في المطبخ مرتديًا الروب دي شامبر، يحضّر له شيخ المحشي، أكلته التي تذوّقها لأوّل مرّة في حياته من يديه الرقيقتين، مسترخيًا إلى سعادته بأنّ مدحت لم يفارق منزله منذ أسبوع. جسده العجوز يكافَأ في نهاية حياته برجل سيقضي معه شيخوخته، لن يتركه للبحث في الشوارع الخلفيّة عن رجال مأجورين، علّمه ارتداء البذلات الأنيقة والاستماع إلى موسيقى كلاسيكيّة اختار منها ما يعجب الهواة، سونيتات بيانو، مقطوعات مشهورة لكلايدرمان. فتح مدحت الباب بمفتاحه، كثور هائج انقضّ على نزار بالكفوف، لم يهدأ ورأى نزار شهوة القتل التي يعرفها أكثر من أيّ رجل آخر. اختبر عنف رجال كثيرين في حياته، دفعه بكلّ قوّته واستطاع الوصول إلى باب المنزل. هرب وانتبه إلى نفسه في الشارع ممزّق الثياب، والروب دي شامبر ملوّث بالدماء.

يئنّ نزار طوال الليل. رشيد وسوسن بقربه يبكيان بصمت، يمسحان جراحه بخرقة بيضاء نظيفة. أحضرتُ أدوية أعرف فاعليّتها، يهذي نزار بأسماء غريبة، بأبيه وأمّه وأخيه عبد المنعم، بميشيل صديقه الذي لم يتوقّف عن إرسال صور الطفل الذي تبنّاه مع زوجه الفرنسي، أمّي تنظر إليه بثبات مكتفية بالتشكّي من نقص الأوكسيجين، متابِعة نوبات هذيانها التي تشتم فيها بكلمات سوقيّة كلّ ما يخطر على بالها، الرفيق فوّاز وإخوته، رفيقاتها في المدرسة، الحزب الذي دمّر حياتها وجعل من منزلها الرائع قبرًا لا يمكن العيش فيه، تسير في المنزل غير مصدّقة أنّ رائحة العفونة لم

تقتلنا بعد، متسائلة ماذا نفعل في منزلها. فجأة تغرق في صمت، تنظر ذاهلة إلى اللوحات المعلّقة على الجدران، اصفرّت ألوان المناظر الطبيعيّة، كنباتها الرائعة بهتت ألوانها وراصوراتها ارتخت، أصبح الجلوس عليها مغامرة. كلّ ما صنعته يداها أصبح مدمّرًا لا يغري شحّاذين بحمله لو رمي في الشارع. ندمت على عدم الرحيل حتى إلى جهنّم. موت أمّها حذّرها من المكان الثابت الذي يحيل الورود إلى قشّ، بوادر هسترتها تحوّلت معها إلى المدرسة، تشكّى زملاؤها وزميلاتها من جملها غير المترابطة، وصوتها العالي الساخر من الحزبيّات اللواتي يحاولن استعادة الحياة إلى نشيدهم الذي مللنَه وتراخَيْن، لم يعودوا يعاقبون الطلّاب على صوتهم الناعس وهو يردّد كلماته. تسير في ممرّات المدرسة وتطلب من التلاميذ الخَرَس. ثيابها أصبحت مهملة، تترك الحصّة في منتصفها وتغادر المدرسة دون إذن، تتجوّل على المقاهي باحثة عن أبي، ثم عن الرسّام الشهير الذي دعاها ذات يوم إلى مرسمه. تذهب إلى المرسم وتقرع الباب، تفتح لها امرأة عجوز، تسألها بإلحاح عن رسّام كان يقطن هنا، تطلب الإذن للدخول وإلقاء نظرة باحثة عن الأريكة الحمراء التي حلمت بالاضطجاع عليها مرتدية فستانها الليلكي القصير الذي أحضرته خصّيصًا لترتديه في مواعيدها الحميمة، تخرج الفستان من حقيبتها وتبكي حين ترى الفئران قد قضمت دانتيلّه ولوّثته بخرائها.

المرأة العجوز التي تعيش في المرسم وحيدة تكدّس ثيابًا قديمة، تقصّها قطعًا وتصنع منها بسطًا تبيعها في سوق باب جنين، فوجئت بزيارة أمّي، تكرّر الجواب ذاته لمن يسألها عن ابن أختها

أنّه هاجر منذ سنوات طويلة إلى باريس. تشفق على أمّي وتقدّم لها الشاي، محاوِلة رسم صورة ماضيها الذي ما زال وجهها يشي بترفّعه، تكمل طريقها نحو بار الشباب وتطلب الجرسون نفسه الذي يخبرها بالكلمات نفسها أنّه جديد هنا ولا يعرف ذلك الرسّام والجرسون القديم الذي رسمه في لوحة شهيرة وأنّه مات غرقًا في شلّالات ميدانكي.

بدت أمّي واحدة من النساء اللواتي يتثاءبن ولا يتوقّفن عن الكلام والثرثرة. لم يتأخّر فصلها من سلك التعليم، الذي افتخرت به وجعل سوسن تشعر بأنّها تكرهها، لإصرارها رغم كلّ بؤسها على تسريحة شعر كانت سائدة بين صبايا الستّينيّات، مصمّمة على ماضيها والتحضير يوميًّا لدروسها التي عُرفت بحيويّتها وعلومها المختلفة، ممّا جعل منها امرأة فريدة ومحبوبة. طبعها الهادئ والأرستقراطي الذي بالغت بالعناية بصورته سمح للكثيرين باحترامها. ألدّ أعدائها غفر لها هفواتها وقال كلامًا حياديًّا عنها للمخبرين المكلّفين بإعداد التقارير السنويّة عن المدرّسين كافّة، بعد ستّة أشهر لم يعد مدير المدرسة يستطيع تحمّل مسؤوليّتها. طلب تحويلها إلى طبيب الصحّة المدرسيّة الذي كتب تقريرًا يوصي بإحالتها إلى التقاعد لسيرتها الحسنة وخدماتها الكبيرة في سلك التعليم.

كانت في لحظة صحو حين خرجنا من مبنى الصحّة المدرسيّة. طلبت الذهاب للمرّة الأخيرة إلى المدرسة، بصقت على جدرانها، أنا وسوسن أمسكنا بذراعيها، سرنا وسط بيوت فقيرة التهمت كلّ حقول الخسّ، رائحة المجاري المكشوفة أثارت غثيانها، طمأنتنا

إلى أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، لكنّنا لم نصدّق، وخصوصًا حين رأيناها تتبادل الشتائم مع جارنا الذي قتل زوجته بعد رؤيتها في أحضان عشيقها بائع الغاز. كلّ يوم يقف على باب منزله مساءً محاطًا بأولاده الستّة شاتمًا النساء، عارضًا بيع أطفال العاهرة، مردّدًا دروسًا في الأخلاق على مارّة لا يكترثون به، منظره يثير الشفقة وقميصه القطني الداخلي يفوح بقذارة تزكم الأنوف.

لم نستطع منعها من الخروج من المنزل، تشعر باختناق لم تنفع بتهدئته الأدوية التي أحضرْتُها بعد استشارة أطبّاء توسّط لي أصدقائي لاعبو الشطرنج في المقهى باستشارتهم مجّانًا، تترك وراءها الباب مفتوحًا. منزل لا يوجد فيه سوى الأسى لا يحتاج إلى باب لحمايته من اللصوص الصغار، تشرد في الشوارع وتعود آخر الليل، منظرها يوحي بمتسوّلة، تتقلّب في سريرها ولا يتركها القلق، تهمد لأيّام وتنام ساعات طويلة، تنهض بعدها وتسير ببطء، تسترد عافيتها، تصنع قهوتها وتجلس إلى طاولة الطعام، تخبرنا أنّها رأت في منامها الرؤساء العرب يصلون في القدس، تستبق تعليقنا بالقول: المنامات لا تخطئ. تبدو امرأةً عجوزًا ينقصها أحفاد كي تكتمل صورتها.

سارت إلى غرفة رشيد ورأت نزار ممدّدًا على سريره، بجانبه سوسن تطعمه شوربة عدس ساخنة. نزار أيضًا كان رجلاً عجوزًا يتمدّد على شاطئ بحر، ينتظر مراكب الصيّادين ليسألهم عن الساعة كي يذهب إلى عمله في قطف سلال الهواء. عبث يحيط بنا، يرمينا إلى مصير لن نستطيع الخروج منه جماعة، بجدِّيّة تفكّر سوسن بمصيرها، ترى نزار مرميًّا على السرير، حزينًا كما لم يكن من قبل،

يفكّر بطمر شهوته وقتلها لإنقاذنا جميعًا وتجنيبنا عارًا احتملناه كعائلة سنوات طويلة. لم يعد راغبًا سوى بالدفء، ساعدته سوسن على النهوض وخلع ملابسه، جهّزت له الحمّام الساخن، أعدّت عشاءً دسمًا من لحم مقلي وشرائح بندورة، تصرّفت كسيّدة منزل نحتاج إلى قوّتها في هذه اللحظات، تحلّقنا حول طاولة الطعام، تحدّثنا بهدوء عن مواضيع بعيدة عن كلّ ما يذكّر نزار بمأساته. فاجأنا بتصميمه على طرد مدحت وكلّ الرجال الآخرين من حياته، قال: تكفيني الذكريات، سيطلي منزله بدهان جديد، ويغيّر فرشه، التفت إلى رشيد يرجوه التفرّغ لتأليف مقطوعاته الموسيقيّة التي ينتظرها العالم كي يعرف معنى الألم، أعاد سيرة مقطوعات «ظلال الندم» التي عزفتها كبرى أوركسترات العالم وبقي له ظلالها والندم، اعترف بأنّه خرب حياته هنا، كان يجدر به الذهاب إلى باريس مع ميشيل، لكن عدم قدرته على الابتعاد عن أمّي وحلب سرق عمره. يتحدّث كرجل عجوز، رغم حيويّة الكلمات وحركته الرشيقة بدا لنا لأوّل مرّة عجوزًا، وكأمّي ينقصه الأحفاد أيضًا لتكتمل صورتهما العائليّة.

طلب من رشيد مرافقته إلى منزله، في طريقه اصطحب عامل أقفال. فتح خزانته وأخرج منها كلّ أغراض مدحت، وضعها في كيس زبالة بلاستيكي أسود، انتظر مع رشيد اللحظة المناسبة لانتقامه. عادت صورته القديمة التي يحبّها رشيد، قائد أوركسترا لا يقبل أيّ خطأ من أيّ عازف، يؤنّبه أمام الجميع بكلمات قاسية، كان ينقصه حياة أكثر علانيّة ليكون واحدًا من عباقرة مدينة عوقبت عبر التاريخ من قبل حكّامها فعاقبت أبناءها العباقرة، في دورة تبادل عنف واضحة.

فوجئ مدحت الذي حاول فتح الباب بمفتاحه بتغيير القفل. قرع الجرس، فتح له نزار الباب طالبًا منه الدخول بهدوء والجلوس إلى كرسي بلاستيكي، بهدوء أخبره بقرار طرده من حياته للأبد، مشيرًا إلى أغراضه المرميّة قرب الباب. كان رشيد يتحسّس السكّين الكبيرة لقتل مدحت في أيّ محاولة منه لإهانة خاله الحبيب، لم يصدّق مدحت أنّ نزار يطرده من حياته، لم يصدّق لهجته الجدّيّة والباردة. حاول نصف اعتذار ولمس يده، فوجئ أكثر حين وضع نزار أمامه شيكًا بستمائة وخمسين ألف ليرة كان مدحت قد اقترضها منه خلال خمس سنوات، مرفقًا الشيك بدفتر حساب سجّلت فيه تفاصيل كلّ الدفعات، أضاف أنّه يسامحه بكلّ الهدايا الثمينة، مشيرًا إلى ساعته الذهبيّة التي اشتراها له من مجوهرات بونجة الشهيرة في حلب.

راقب رشيد بقرف وجه مدحت الذي فكّر للحظة بكارثة ستلحق به لو تحدّث نزار بكلّ ما يعرفه عنه، شعر بنفسه ضعيفًا، سخيفًا، آبقًا يحتاج إلى التطهّر. لم يحترم نزار الذي كان يحدّثه في الليالي الطويلة عن الصداقة كمفهوم مقدّس ضروري للتحايل على الحياة. يعرف كلّ وجوه نزار إلّا هذا الوجه المرعب القادر على الانتقام لكرامته التي داسها مدحت بقدميه عشرات المرّات. ردّد نزار بأنّه أخطأ حين سمح لرجل جائع بالدخول إلى منزله. حاول مدحت الاعتذار بكلمات لم يتخيّل منذ عدّة أيّام أنّه يستعملها لإرضاء هذه الحشرة التي قادته إلى عار سيجلّله طوال حياته، يعرف تمامًا أنّ نزار ليس «مها» التي فتق مؤخّرتها مئات الليالي. يعرف علاقاته القويّة مع كبرى العائلات التي تبجّله رغم معرفتها بشذوذه،

بنات عائلات يستشرنه بألوان ثيابهنّ، وزوجات رجال مهمّين يحتسين معه أقداح الشمبانيا، كان يمنعه من حضور هذه الجلسات، تذكّر الآن بأنّه كان العاشق وليس المعشوق، تخبّط للحظات ظانًّا نزار يمازحه ليستثيره. حاول التطاول عليه، حذّره نزار بأنّه قادر على إرساله إلى المشنقة، مضيفًا: هذا المنزل للحبّ وليس للكراهية. عاد إلى لهجته المعتذرة، عرض عليه التفكير بقراره النهائي لأيّام، وإذا أراد يتزوّجه في أيّ بلد في العالم، يعده بحياة سعيدة يكون فيها خادم شيخوخته. كلّ الكلمات الحلوة التي قالها لم تثن نزار عن جدّيّته، انحنى مدحت إلى قدمه وأمسك بها، قبّلها بشهوة. ببرود أمسك نزار بشعره ورفسه بقوّة على وجهه، وقتها عرف مدحت بأنّه جادّ بكلّ ما قاله، سار خطوات قليلة نحو كيس زبالة يضمّ أشياءه القذرة التي احتفظ بها نزار لمثل هذه اللحظة، ذكّره بالشيك المرمي على طاولة السفرة وبجانبه قلم، قرأ تاريخ الاستحقاق ٢١ ـ نيسان ـ ٢٠٠٠، أمسك بالقلم ثم تذكّر بأنّه لن يستطيع تأمين هذا المبلغ في هذا الوقت. طلب من نزار تأجيل تاريخ الاستحقاق إلى شهر آب، غيّر نزار التاريخ، وقّع مدحت الشيك وخرج بعد سماع نزار يخبره بأنّه سيقتله إن اعترض طريقه في أيّ مكان أو أتى على ذكر اسمه على لسانه.

خرج مدحت يتصبّب عرقًا. فتح الكيس وفوجئ بقميصه القديم المخطّط تفوح منه رائحة قذارة لم يعد يحتملها بعد عيشه مع نزار كلّ هذه السنوات. ابتسم بحزن حين رأى علّاقة مفاتيحه المصنوعة من خرز رخيص، رمى بكلّ الأشياء في حاوية القمامة، لم يستطع منع دموعه، وحيدًا ومثقلاً بالمشاكل. برد آذار ينخره، وجد نفسه

يسير نحو فندق رخيص في باب الفرج، استأجر غرفة ليومين، تناول من على بسطة شواء عشاءه وحيدًا، يراقب زبائن آخر الليل ويعرف دون أيّ شكّ أنّه طرد من جنّة نزار. في اليوم التالي استأجر شقّة صغيرة في الميدان محاولاً إقناع نفسه بأنّ الأمور ستكون على ما يرام حين ينسى نزار ويعود إلى حياته الطبيعيّة.

في الأسبوع الأوّل شعر بشوق لا يقاوم إلى نزار، الذي كان قبل أيّام حبيبته «مها». شعر برغبة التماهي مع نزار وتبادل الأدوار كي يعرف مصدر اللذّة التي كان نزار يلهج بها، فكّر بالسعادة وحياته السابقة، حرمانه، وجسده الذي أعاد اكتشافه نزار عبر سنوات. في الشهور الأخيرة اكتشف عدم شغفه بالنساء، أصابته الصدمة حين تمنّى حياة نزار. لم يستطع إغلاق التحقيق بعد بازار طويل مع محقّقي فرع الأمن. دفع كلّ ما جمعه من نقود خلال سنواته الخمس للتساهل معه في توجيه التهم. شعر بسعادة للتخفيف من أعباء التحقيق، والذهاب إلى ذلك المكان المرعب كلّ أسبوع مرّة بدل ذهابه كلّ يوم وانتظاره ساعات في الممرّات المعتمة. تذكّر أنّه منذ أشهر لم يزر أهله، شعر بعدم رغبته في العودة إلى قرية بدأت تتداول سيرته سرًّا كمرتشٍ وشاذّ يجول شوارع المدينة بحثًا عن عشّاق. انتابته رغبة التجريب والبحث عن اللذّة. راقب في أيّام قليلة زبائن محتملين في المقاهي وأماكن تجمع المثليين آخر الليل، لم يمتلك الشجاعة الكافية للانخراط في حياته الجديدة. حلم ذات ليلة بنزار يقوده كخروف مربوط برسن حريري إلى حفلة اغتصاب جماعي. جلس في سريره، وأيقن أنّ الفجر أنسب الأوقات لاتّخاذ قرارات مصيريّة. اختلف كثيرًا عن ذلك الشابّ الذي كانه قبل لقائه

نزار، تصاعدت رغبات الأنثى داخله، تجرّأ على الدخول في أحاديث جانبيّة مع مجموعة مثليين فقراء يبحثون عن زبائن قرب دور السينما المهجورة وبائعي المشروبات في بستان كلّ آب، لم تهجره صورة نزار الأنثى السعيدة التي ملأت كلّ حياته.

ظُهرًا خرج من منزله، جلس ساعات طويلة في مقهى باب الفرج. أوّل المساء التقط شابًّا يحمل حقيبة، عسكري يضيّع وقته ليلتحق ليلاً بمدرسة المشاة، ذكّره بصورته القديمة، كأنّه يلتقط نفسه من ماضيه، تشمّم رائحة إبطيه حين اقترب منه، ولم يستغرب شوقه إلى رجل كهذا يخترقه. تذكّر مرّات كثيرة أحلام يقظة تمنّى فيها التحوّل إلى «مها»، ينظر إلى عضو نزار الرخو والصغير ويقدّر أنّه لن يكفيه لفقد عذريّته. أخبره العسكري ببساطة أنّ اسمه جاسم من إحدى قرى الميادين، يعمل في الحياة المدنيّة عامل بناء، دعاه إلى بار الشباب، يحتاج إلى مشروب قوي يفقده وعيه كي يستسلم له، جاسم التقط رغبته فيه، حدّث نفسه أنّ هذا الرجل الأنيق أفضل من الحمير والأغنام. استعار مدحت سيرة نزار، وأخبره أنّه موسيقي لديه فرقة تعزف الألحان الكلاسيكيّة وتدور العالم من شماله إلى جنوبه. في الليلة الأولى لهما رجاه مدحت استعمال مليّنات كي لا يخرج أحشاءه من بطنه، أثاره بما فيه الكفاية، وفي الصباح ظنّ نفسه قد تحوّل إلى نزار، اختار اسم «مها» مرّة أخرى كي تداهمه أوهام لذيذة، كان يشعر بها في الأشهر الأخيرة من علاقته مع نزار. لم يعد يرغب بمضاجعة النساء، فكّر مدحت بأنّه يعرف الحدود الفاصلة بين الفضيلة والخطيئة، بين الحبّ والدعارة. لن ينسى بكاءه الطويل حين غادره جاسم على موعد اللقاء في الأسبوع

المقبل، قبل مغادرته دسّ في يده ألف ليرة سوريّة، وضعها جاسم في جيبه رافضًا تقبيله قبل الخروج كما يفعل الأزواج، فكّر بألم أحشائه، أحسّ بأنّه إذا أراد تقليد نزار يجب أن يتمهّل، ويلتقط عشيقًا أكثر ذوقًا وخبرة، شعر بسعادة غامرة بقطعه الخطوة الأولى في طريق تحوّله إلى أنثى.

لم يستطع نزار إعادة الحيويّة إلى وجه رشيد، يراقبه حين يعزف، لا ينتبه إلى الإيقاع، ينفرد دون أيّ إذن بتقاسيم مملّة وسمجة مستعارة من جمل موسيقيّة متداولة من أغانٍ لا يحبّها نزار، يبدو كعازف هاوٍ، ينتهي العمل كالعادة في الثانية صباحًا. لا ينتظر خاله كي يعودا إلى منزلنا الذي انتقل إليه نزار ريثما يعيد طلاء جدران منزله وتجديد فرشه، يسير رشيد في الشوارع الخالية يفكّر بوحدته، يتساءل كيف يحتمل الناس كلّ هذا الضجيج، كلّ هذه المجاملات والنفاق، يفكّر في معاني الأشياء، معنى العيش حتى تبلغ المائة، معنى أن تصبح أبًا، معنى أن تبقى وحيدًا. تساءل إن كان قادرًا على تأليف مقطوعة تتفوّق على «ظلال الندم» بتعقيدها الوجودي وأسئلتها التي تطرحها حين تخفت أصوات الكمنجات تاركة الفضاء للطبول والمزامير التي استبدلت بنسخة فلهارمونيّة برلين بأربعة ساكسفونات. تحمّس للفكرة وبدأت الأصوات تغزوه، لم ينم ليلتها، ذهب إلى مقهى كراج انطلاق الباصات الذي لا يغلق أبوابه، جلس وحيدًا في زاوية بعيدة عن صراخ السائقين ومعاونيهم، طلب قهوة ثقيلة بكأس كبير، أخرج أوراقًا خطَّطَها وبدأ يكتب غير منتبه إلى جرسون وقف قربه يراقب العلامات الموسيقيّة على الورق الأبيض المسطَّر. شطب رشيد ما كتبه وأعاد

من جديد الكتابة، لم ينتبه إلى ضجّة الصبح وحركة المسافرين، شعر بنفسه متورّطًا بمجموعة حشود مسرعة للحاق بمواعيد السفر، لملم أوراقه وطواها، هرع مسرعًا كهارب يتفادى النظر في عيون الجموع الذين تراءوا له وحوشًا ستنقضّ عليه، دسّ نفسه في أقرب سيّارة تاكسي. لم يعرف لماذا يريد العودة إلى منزل يكره عفنه ورائحة جدرانه الرطبة. يشعر بأنّه يتنفّس كلسًا رائبًا، وحين يستيقظ يشعر بأنفه مليئًا بروائحِ جثث بعيدة. الهواء ساكن والبرودة شتاءً تنخر عظامه، لكنّه لم يجد مكانًا آخر يذهب إليه. انتابته حمّى التأليف ولم يخبر نزار أين يذهب كلّ ليلة، خشي من تشجيعه المفرط. أحبّ العيش واختبار ذاته بمفرده. كلّ ليلة يجلس في المقهى نفسه إلى الطاولة ذاتها التي يحجزها له الجرسون الذي أخبره بأنّه يغنّي في الأعراس لكنّه غير محظوظ، يهرب رشيد من أيّ تعليق، يرتشف قهوته الثقيلة بهدوء ويبدأ الكتابة، يعرف حمّى الأشياء حين تستبدّ به، ينفصل عن العالم وحيدًا، كما تمنّى دومًا. أطلق على إحدى المقطوعات اسمًا لم يخطر على باله «رجل وحيد في مقهى كراج الانطلاق ينتظر جسده ليطير». لم يتمهّل حتى شطب الاسم وأعاد تأليف المقطوعة التي تتحدّث عن رجل وحيد لا يحبّ السقوف الواطئة. شعر براحة كبيرة حين رأى مجموعة أوراقه التي تجاوزت المائة، مرميّة في دُرج خزانته التي يحرص على إغلاقها بمفتاح دون أن يدري سبب خوفه، رغم أنّه تقريبًا الوحيد بين أفراد العائلة الذي لا يمتلك أسرارًا، يخاف أن يقرأ إحدى القصائد والخواطر التي كتبها حين كان مراهقًا واصفًا ألم العيش. ثلاث سنوات سجّل كلّ تفاصيل حياة عائلته، وبالأخصّ حياة سوسن، حركتها، إيماءاتها، ألوان أحذيتها، فساتينها وكلماتها. لقد سجَّلَ

سوسن بكلّ تفاصيلها. ربّما كان يخشى وقوع هذا السجلّ الذي حفظه عن ظهر قلب في يد أمّنا التي كانت تكره تعلّقه بها. رمى بأوراق مقطوعاته إلى جانب دفاتره الحبيبة، وضع المفتاح تحت سريره، فكَّر بإعادة تأليف مقطوعته عن سوسن المرحة التي تشبه القطارات في سهول ربيعيّة رائعة، حيث المدى لامحدود، المكان الوحيد الذي رغب بخطف سوسن إليه، يعيشان من خشاش الأرض ككلّ أجدادهما البدائيين.

كأنّه رمى بأثقاله وعاد شابًّا طبيعيًّا، يعزف مع الإيقاع بحماس يتطلّبه العمل في النوادي الليالي كلّ ليلة. يوصيهم نزار بحزم بأنّ عليهم إيجاد شيءٍ يحبّونه في المكان كلّ يوم والعزف له، امرأة، كرسي، طاولة، ظلال أضواء... يضيف: كي لا تنتحروا أو تموتوا قبل أن تكملوا الأربعين. يتأبّط ذراع خاله ويخرجان من الكباريه، فخورًا بأناقة هذا الرجل الذي يدخل السبعين، حزينًا كما وُلد ومرحًا كما عاش، كأيّ شغوف في الحياة.

سوسن تعرف عن سجلِّها. حين كانت مسافرة خطر لها كثيرًا الكتابة إلى رشيد ترجوه إرسال ما كتبه ذات يوم في دفاتره الزهريّة. كانت تريد قراءة تفاصيلها الماضية حين كانت امرأة مطمئنة إلى مستقبلها، تفكّر أنّها ستمتلك حديقة كبيرة ومنزلاً فاخرًا وأطفالاً رائعين. لم يخطر في بالها للحظة أنّ كلّ قوّتها كانت حلمًا مضى ولن يعود. بعد عيد ميلادها الثلاثين حاولت الاختلاط بمجموعة الأجانب القلائل المقيمين في حلب، يقضون أوقاتهم سعداء متحدّثين بدهشة عن المطبخ الحلبي ولا ينتابهم مرض الحنين، يبحثون عن موسيقيين شباب يعزفون لهم القدود ويشرحون لنسائهم

المقامات. رافقت نزار مرّتين إلى حفلات خاصّة، شعرت بصدئها، رغم إتقانها اللغة الفرنسيّة أحسّت بنظراتهم المتشكّكة فيها. بواسطة جان تدبّرت عملاً موقّتًا بدل موظّفة لم تنه إجازة أمومتها في مكتبة المعهد الفرنسي الذي يستضيف باحثين أوروبيين عابرين. شعرت بروعة الجلوس وسط كلّ هذا الصمت، والتعاطي مع الكتب والمخطوطات. أحبّت المكان المحاط بأشجار سرو وصنوبر عمرها أكثر من مائة عام. روحها تماثلت للشفاء، حلمت بأنّها تملك عملاً كهذا، منزلاً صغيرًا دافئًا تضطجع فيه على سريرها، تقلّب المجلّات الفرنسيّة محتضنة قطّتها، تفاصيل تافهة لكنّها تكفي للسعادة. فكّرت سوسن، التي لم تستطع تدبُّرَ شاغر آخر بعد عودة الموظّفة، التي شكرتها بلطف على القبول بعمل موقّت لأشهر قليلة براتب تافه. غادرت المكان وقبلت دعوة باحث ألماني إلى العشاء، لم تمانع في مرافقته إلى منزله. كرهت بخله وحرصه الشديد. تذكّرت أنّها عذراء لن تمنح غشاء بكارتها المزيّف لهذا المغرور. انتبهت أنّه ينتظر خروجها ليغلق الباب، أحسّت بالندم، لم يبق لها إلّا جان الذي بدأ يكثر من اعتذاراته. لم يقل لها إنّه منشغل بعاهرة تروي قصّة تشبه كلّ القصص التي ترويها العاهرات عن هروبهنّ من قسوة زوجة الأب أو الزوج الذي يريد قبض ثمن جسدها أو عملها من أجل تطبيب أمّها، يصدّقهنّ جان ولا يدقّق، كما لم يدقّق في قصّة ريهام المليئة بالتفاصيل المتناقضة، عن زواج محطّم وأب مصاب بالسرطان، مرّة يعيش في بيروت ومرّة في حيّ السكّري، وأمّ تركتها طفلة لعمّاتها، اللواتي في رواية أخرى مُتْنَ وهي صغيرة مع أبيها في حادث سيّارة. أحبّ جسدها الذي اكتشف في ما بعد أنّه يشبه جسد سوسن حين كانت طالبة فاتنة. شعر بيأس شديد حين

اكتشف أنّ أكثر من عشرين عامًا مضت وهو منتظر حدثَين لينتهيا من حياته، أمّه التي لم تمت، وطعم جسد سوسن الذي لم يتذوّقه ولم ينسه. كما اعتقد. شعر بسعادة غامرة حين رأى ريهام تخلع ملابسها قطعة قطعة كفتاة «ستريبتيز» وتتمدّد قربه. جسدها أسمر مشدود، تشمّم رائحة سوسن القديمة لأوّل مرّة منذ زمن بعيد. عرض عليها العودة إلى منزله حين لا تجد مكانًا تأوي إليه، وهي أحبّت طبعه الهادئ. لم تعتقد بأنّ المسيحيّين أيضًا تفوح من غرفهم رائحة البصاق وتتعفّن أجسادهم. حين رأت أمّه شعرت بالشفقة على هذا الرجل الكريم الذي يحدّثها في الليالي الطويلة عن حياة مفترضة. أحبّ تأليف سيرة جديدة لحياته، وجدها فرصة لن تسنح له مرّة أخرى. حاول التقليل من هيبته، حدّثها عن طفولة مظلومة وزوجة خائنة وطفل آبق مدمن مخدّرات يقضي وقته مع أفراد العصابات في بيروت. حاول الاستمتاع بالعيش مع امرأة هي له ولكلّ الرجال الذين يدفعون لها ليرات قليلة ليصحبوها إلى منازلهم ومزارعهم، يفكّون أزرار بناطيلهم في السيّارات بعد تجاوزهم أوّل طريق خان العسل. أسابيع قليلة عاد إليه الملل فظيعًا وقويًّا أكثر من قبل. فكّر بأنّ لذّة العيش مع العاهرات الذي أحبّه يكمن في التحلّل من الواجبات وعدم الإحساس بالندم على أيّ شيء.

لم يعد يتمنّى موت أمّه. أحسّ بلطف انتظار الموت مع كائن لا يموت. قدّر أنّها فرصته الوحيدة للتخلّص من سوسن إلى الأبد، ضاجع ريهام بكلّ الوضعيّات وفي كلّ زوايا البيت.

لم يكمل شهره الثالث مع ريهام، بدأ يفقد رغبته بها، يطلب منها اعتباره زبونًا وليس صديقًا. تبذل جهدًا كبيرًا لينتصب قضيبه،

لا تستطيع المحافظة عليه لدقائق منتصبًا. لم تكن تعرف معنى الحبّ من قبل، أحسّت به جارفًا حين غادرته، لكنّها تعرف أنّ زبائنها الذين يعودون إليها مرّات عديدة ويطلبونها بالاسم من عرَّابتها أمّ حسن ليسوا بالضرورة يحبّونها كما يحاولون إيهامها. أحسّت بشيء ينقبض في صدرها. فكّرت بالعودة إليه عارضة التوبة والزواج منه رغم فارق الثلاثين سنة بينهما. أحبّت وهمها أيضًا حين أضافت قصّة جديدة تقصّها على زبائنها الأغنياء الذين يمتلكون وقتًا طويلاً ومنازل فاخرة لا تداهمها الشرطة الجنائيّة. تخبرهم أنّها تحبّ مترجمًا كبيرًا يقطن حيّ السليمانيّة، لكن ظروف الدهر، التي تقولها بسينمائيّة، جعلت منه أعمى ورجلاً عاجزًا لا أحد يعيله سواها. تضيف أنّها تعبده، مثيرةً غيرة الرجال الذين يحلمون أن يكونوا ذلك المترجم الأعمى الذي تعيله ريهام.

رغب باستعادة سوسن التي انتابها القرف حين سمعته يتحدّث كأيّ رجل سوقي، فقد طيبة عينيه اللتين أغرمت بهما ذات يوم. أصبح يشبه كلّ الرجال الذين كرهتهم، يقترب من الستّين خائفًا من زوال شهوته، تستهويه القصص التي تؤلّفها عاهراته. لا يشعر بالغرابة حين يروي نتفًا منها كحقائق عن أصدقاء ينتظرون مساعدته. أقسمت أن لا تعود إلى منزل جان، لا تحبّ خسارة صور من أحبّتهم بهذه الطريقة الرخيصة.

تمسّكت بصورة نزار التي عادت متألّقة، رجل أنيق استعاد العلاقة مع خيّاطه القديم رحمو الحريتاني، الذي ما زال يقبع في محلّه الصغير في دخلة شارع نادي الاتّحاد في الجميليّة، يستقبل عددًا محدودًا من زبائنه القدماء، مكتفيًا بالصمت حين يسمع تحوّل

بعضهم إلى ارتداء بدلات ماركات شهيرة وكالاتها غزت المدينة. نزار زبون مفضّل لديه، يتحدّث الاثنان عن الألوان ويخترعان موضتهما. أربع بذلات جديدة وزّعها نزار عليَّ وعلى رشيد، أهدى سوسن بالطو فروًا رائعًا للشتاء القادم، ومجموعة أحذية جلديّة أصليّة، وقبّعات لأمّي، التي كانت مغرمة بارتدائها والتقاط الصور. لم تنظر أمّي إليها، كأنّ الأمر لا يعنيها، كما لم تعنها الجلبة التي أثارها سكن خالي في منزلنا لثلاثة أشهر حوّل فيها كآبتنا إلى بهجة. يصحبنا مساءً للعشاء في مطاعمه الفاخرة ونبدو كأيّة عائلة مطمئنّة، ببساطة يوهمنا بقدرتنا على إيجاد سعادتنا في التفاصيل الصغيرة.

أكثر المتحمّسين لصورته الجديدة كان رشيد. استعادا حواراتهما المرحة الطويلة حول موسيقى القرن الثامن عشر والأناشيد الصوفيّة التي كان رشيد مهتمًّا بإيقاعاتها العميقة. لم يخبرنا عن نشوته حين يسير وحيدًا في شوارع المدينة فجرًا، يتوقّف عند مؤذّن جامع الرحمٰن، يستمع إلى الأذان كاملاً، يشعر بنشوة سماع الأذان كلّ فجر بمقام جديد، يفكّكه رشيد، ويهمس بصوت منخفض معه. لا يخطئ المؤذّن بأيّة حركة، يغمره إحساس جديد، يتذكّر مقطوعاته المرميّة في درج خزانته. شعر بالخوف من النظر إليها، أحسّ بارتباكِ موسيقيٍّ مبتدئ، لكنّه تذكّر لحظات رائعة انتابته أثناء جلوسه في ذلك المقهى القذر، وسط شخير سائقي الباصات النائمين في زوايا المقهى على فرشات إسفنج تفوح برائحة قذرة. كان يحتاج لهذه القذارة وذلك العالم الغريب من ليل المدينة ليكتب نوطًا موسيقيّة عزفها ووزّعها في خياله عشرات المرّات

متذكّرًا علاماتها كما وردت تمامًا، مسجّلاً على دفتر صغير بعض الملاحظات لإضافة علامة أو حذف أخرى.

تتكدّس أوراقه في درج خزانته بفوضى يعرف أنّه الوحيد القادر على ترتيبها. خطّط للانتقال نهائيًا للعيش في منزل خالي نزار، انتقى سريره وخزانة جديدة وكنبتين مريحتَين، دفع ثمنهم نزار المسرف. خافت سوسن من حال البذخ التي أظهرها في أيّامه الأخيرة، قدّرت: لا يليق به العودة للعيش مشرّدًا فقيرًا في أزقّة المدينة الخلفيّة. نزار يردّد أنّ سنواته المتبقّية لا تحتاج إلى كلّ هذه المدّخرات. لم يتوان في اليوم التالي لاستحقاق شيك مدحت عن تكليف محاميه بتحصيل الأموال. فوجئ مدحت بدوريّة شرطة تقتاده إلى قاضي تحقيق خيّره بين دفع الشيك المستحقّ فورًا أو السجن. لم يمتلك الوقت الكافي لترتيب أموره بعد استنزاف أغلب مدّخراته التي حلم بأن تكفيه للانتقال إلى طبقة الأغنياء الجدد. لم يبق لديه الكثير، ولم يتوقّع أن يكون نزار بكلّ هذه الجدّيّة إلى درجة أنّ محاميه رفض الحوار، حسب تعليمات موكّله.

السجن كان فرصة لمدحت، تخلّص من الجلوس بين يدي مفتّشي الهيئة العامّة للتفتيش ومحقّقي فرع الأمن لإعادة سؤاله للمرّة الألف عن تفاصيل رشاويه ورشاوي المدراء الكبار، مدقّقين في تفاصيل السنوات العشر الماضية. فكّر بحياته الماضية: تجاربُه القليلة مع عشّاقه العابرين لم تقده إلى سعادة نزار، فكّر بالتوقّف عن العيش كرجل مثليّ، أرسل بطلب أخيه الكبير، الذي أخبره من وراء الشبك بأنّهم اكتفوا بفصله من الوظيفة مع سبعة موظّفين آخرين نُشرت أسماؤهم الكاملة في الجرائد الرسميّة، رجاه تدبُّرَ المبلغ

ودفْعَه لنزار للخروج من سجنٍ إن لم يغادره سيلوّثه للأبد. لم يفصح لأخيه عن رغبته الكبيرة بالرجال المحيطين به ليل نهار، وبداية انهيار مقاومته، التي لم تصمد أسبوعين آخرين حتى بدأ ينافس «سوسو»، كما يدْعون رجلاً نحيلاً يسير كأنثى ويقدّم خدماته لزبائنه مقابل نقود قليلة. مدحت قدّم نفسه باسم «مها»، حاول التسلّل إلى جناح مجرمي القتل والمخدّرات الذين يدفعون أكثر، ويشكّل استقرارهم في السجن لسنوات طويلة مصدر بهجة لا تنقطع بخروج موقوفين يتبدّلون كلّ يوم.

أعجبه أن يكون عشيق «أبو فهد» المحكوم بالمؤبّد وأقدم سجين، لم يبلغ الأربعين من عمره، متّهم باغتصاب ستّة عشر طفلاً وطفلة أكبرهم لم يتجاوز السابعة من عمره. دفع أبو فهد رشاوى للشرطة للسماح بمرور مدحت آخر الليل إلى جناحه، ليتمدّد قربه ويبثّه أشواقه. صمّم مدحت على استعادة سيرة نزار كاملة وكما أخبره إيّاها في ليالي الشتاء الطويلة.

وصلت الأخبار إلى عائلته الريفيّة، ذُهلت بالاكتشاف الفاجعة الذي تداولته القرية سرًّا. رغم فقرهم جمعوا أموال نزار الذي تنازل عن الدعوى، اصطحبوا أخاهم مدحت من باب السجن وأمروه برفع دعوى تغيير اسم عائلته أمام القضاء، مدّعيًا أنّه لقيط وأنّ حمْلَه لاسم العائلة خطأٌ استمرّ ٣٢ عامًا. دفعوا رشاوى كثيرة للخلاص من محنتهم كعائلة محافظة، ادّعوا براءتهم منه، مكرّرين قصّة غريبة لم يصدّقها الكثيرون عن ارتداده عن الدين الإسلامي على يد أحد المبشّرين الهولنديين، الذي طُرد من البلاد بعد استطاعته تحويل ثلاث عشرة عائلة من الإسلام إلى المسيحيّة،

واضطرّت هذه العائلات للهرب إلى هولندا بعد اكتشاف أمر مبشّرها.

شعر مدحت براحة كبيرة لاسمه الجديد «نور»، اختاره كاسم مزدوج يصلح لرجل وامرأة في الوقت نفسه، باحثًا عن أمكنةِ مثليّي حلب التي هجرها نزار للأبد ووضع النقود على طاولة الطعام في صالوننا عارضًا علينا اقتسامها وتسيير أمورنا. عاد إلى شقّته التي بدت رائعة، شارحًا لرشيد رغبته بالإفلاس ليعود إليه الدافع لتأليف موسيقى عظيمة، مردّدًا: الفنّانون لا يليق بهم تكديس النقود في البنوك، يجب أن يبقوا دومًا على حافّة الخطر والجوع.

نام ليلته الأولى في منزله الجديد، منتظرًا قدوم رشيد لمساعدته في تبييض نوتات قديمة كتبها بعد عودته من بيروت منذ زمن بعيد وبقيت مهملة في حقيبة قديمة احتفظ فيها بصوره الكثيرة مع حسين ورفاقه في بيروت.

شاركه رشيد الحماس بتدوين المقطوعات من جديد، متفهّمًا رغبته باستعادة طعم «ظلال الندم» وقوّة جملها الموسيقيّة، متنقّلاً بين منزل خالي ومنزلنا، الذي بدا ككهف نتن رغب لأوّل مرّة بهجره مع سوسن. حملت حقيبتها الكبيرة التي تضمّ كلّ ثيابها وأشيائها بعد ازدياد المتحرّشين بها الذين ينتظرونها قرب باب المنزل. لم تعد تستطيع مقاومة عنفهم. عرضت على أمّي هجر المنزل واستئجار آخر في أيّ مكان لا يتجوّل في شوارعه الضيّقة مجموعة قتلة مدعومين من الشرطة والمخابرات وبائعو حشيش وقوّادون يلتقطون الأطفال الصغار ويصحبونهم إلى البساتين القريبة، يغتصبونهم ويرمونهم آخر الليل قرب سواقي المجارير. لم

تحتمل سوسن حين استيقظت بيوتُ الجيران على عويل نساء. تجمَّع الجميع لمراقبة ابنة هدى، الخادمة في مأوى عجزة الأرمن، تندب حظّها بعد اغتصاب أربعة رجال طفلتها التي لم يبلغ عمرها أربع سنوات. بكت سوسن واحتضنت جارتنا الفقيرة التي كانت تزورنا وتساعد أمّي في صنع المكدوس وتحضير عصير ربّ البندورة ومخلّلات الفليفلة والخيار. بكت سوسن مصير الطفلة الصغيرة متعاطفة مع فقر أهلها الشديد. لم تستطع احتمال أعصابها حين رأت المجرمين الأربعة طلقاء بعد تحقيق شكلي، عرفت بأنّ أحدهم أخ الرفيق فوّاز الذي اضطرّ للتدخّل ولملمة الفضيحة بذل جهدًا كبيرًا لتطويقها، لكن شجاعة صحفي شابّ أنقذت الموقف، استطاع إقناع رئيس تحريره بنشر كلّ تفاصيل الفضيحة مع صورة للطفلة وتقارير طبّيّة شجّعت سوسن جارتنا على إعطاء نسخة منها لنشرها في الجريدة. تحرّكت مجموعات كبيرة من المثقّفين الصامتين، جمعيّات خيريّة، وصلت أصداء الجريمة إلى كلّ بيوت المدينة، ممّا اضطر النائب العامّ إلى متابعة الطفلة ووضع المجرمين وراء القضبان.

سوسن لم تعد تحتمل كلّ هذا العنف الذي يزداد يومًا بعد آخر، حملت حقيبتها بعد رفض أمّي ترك منزلها إلى أيّ مكان آخر، تقاسمت الإيجار مع سلمى، التي تقطن منزلاً صغيرًا في إحدى حارات محطّة بغداد قريبًا من منزل جان، الذي تصله مشيًا على الأقدام لو أرادت زيارته.

رتّبت حياتها من جديد، عملت في مكتب ترجمة محلّف. النقود قليلة لكنْ تكفيها للعيش كفتاة فقيرة احتاطت ورغبت بنجاح

حياتها الجديدة. سلمى تدعوها لمشاوير مع رجالٍ يطلبون إحضارها لسهراتهم، تشكرها وتقضي وقتها في تأمّل الجدران وصور التليفزيون الذي أدمنته. بدأت تشعر بأنّها بلهاء تتابع مسلسلات عربيّة، برامج توك شو لبنانيّة. تعطّل عقلها عن التفكير، خائفةً في قرارة نفسها من موجة جنون تأخّرت، مستعيدة أحاديثنا الأخيرة غير المترابطة، كأنّنا فقدنا عقولنا. لم نعد نبحث عن أسباب أيّ شيء يحدث، نحاول تجنّب الأسوأ، صورتنا تشبه صور عائلات كثيرة تتحرّك بتثاقل، تعتبر العنف جزءًا من حياتها، لا يملك الضعفاء القوّة ليدافعوا عن أنفسهم، يتوغّلون أكثر في شرنقة الخوف. تتناقل المدينة قصصًا عن أبناء عشائر يتراشقون بالرصاص من أجل لا شيء، أبناء مسؤولين وضبّاط كبار يتقاسمون كلّ المدينة دون أيّ خوف من القانون، شراكات جديدة تضع حلب مرّة أخرى خارج الزمن، كأنّها مقاطعة مستقلّة كلّ ما فيها لا يشبه المدن الأخرى.

عادت طفولتي في الأيّام الأخيرة قويّة، عرضتُ على سوسن الذهاب إلى ميدان أكبس، عرفت أنّها لن ترفض عرضًا كهذا. منذ زمن تلحّ عليَّ للقيام برحلة طويلة نتفقّد فيها أماكن طفولتنا. كنت أظنّها تريد الذهاب إلى العنّابيّة، تستجدي نسبًا عائليًّا شعرت بحاجة إليه خلال السنوات الثلاث الماضية، تحدّثت عنه كثيرًا، أنّبت أمّي بقسوة لأنّها أبعدتنا عن أعمامي رغم تعاطيهم بقسوة شديدة معنا في الطفولة.

العودة للبحث عن العائلة يعني فشلنا جميعًا في البحث عن ذاتنا، بحث عن رغبة الانتماء مرّة أخرى إلى الجموع التي امتدحنا

لسنوات طويلة قدرتنا على عدم الاندماج بتفاهتها. «كم نحن خائفون!» قلت لسوسن ونحن في طريقنا إلى ميدان أكبس في القطار القديم نفسه الذي ركبناه مرارًا في زياراتنا القليلة إلى منزل جدّي.

سرور سوسن وأريحيّتها في ممازحة طفل يجلس في المقعد القريب، منحني فرصة نادرة للغرق في تفاصيل القرى وحقول زيتون عبرناها. حين دخل القطار في النفق الألماني عادت إليّ آلاف الذكريات، تنشّقت الهواء النظيف، وأحسست بأنّه كان من الممكن تلبية دعوة آزاد منذ عشر سنوات واستمرار الزيارات إلى أمكنة طفولتنا، لم أصدّق أنّني متعلّق بها إلى هذه الدرجة.

تفكيك الذاكرة ضرورة لطرد عفنها، هذا ما حاولته حين وصلنا إلى المحطّة، فاجأني هرمها، فكّرت بالأمكنة حين تشيخ، خراء الذباب الأصفر غطّى جدرانها، بدت قذرة إلى درجة لا يمكن احتمالها. الشوارع نفسها كأنّنا تركناها للتوّ، المنازل مفتوحة الأبواب والأزقّة ضيّقة، ما زال الأطفال بثيابهم الفقيرة معفّرين بترابها، إلّا أنّها أكثر ازدحامًا، تكاثر الجميع في غيابنا. سوسن لم تفكّر كثيرًا، أخرجت كاميرتها الـ «كانون»، التقطت عشرات الصور. فلّاحات القرية الكرديّات الجالسات أمام أبواب منازلهنّ يقطّعن البندورة ويمضغن الهواء كما كنّ يفعلن منذ ثلاثين سنة. أشرت بيدي إلى منزل أهل آزاد. رأيت أمّه عجوزًا تتحرّك بصعوبة، تعلف عنزة وحيدة بقيت من قطيعه الذي كان مؤلّفًا من ثلاثين عنزة. اقتربنا منها، حاولت سوسن مساعدتها مستأذنة إيّاها في الدخول إلى الغرفة لشرب الماء. خرجت امرأة أربعينيّة تحمل طفلاً صغيرًا،

قدّرتُ أنّها أخته شيرين، نظرت إلينا بحياديّة، لم تعتد زيارة غرباء يريدون إلقاء نظرة خاطفة على منزلهم. دعتنا للاحتماء من شمس الظهيرة، قدّمت لنا الماء البارد والشاي، عرّفتها سوسن بنفسها. تذكّرت أمّي وقالت ضاحكة بحياء إنّنا أبناء المعلّمة المتكبّرة. كان اصطحاب سوسن قرارًا صائبًا، خاصّة حين بدأ يتجمّع حولنا الكثير من الأطفال مطالبين سوسن بتصويرهم. حدّثتنا شيرين عن أخيها الذي ترك المنزل هاربًا من المخابرات لآخر مرّة مع جوان الحجّي ابن فنّي الميكانيك صديقه، ولم يعودا من خمس سنوات، أضافت بأنّه يعيش في ديار بكر.

داهمتني الصور القديمة ورغبت بالبكاء؛ عادت وجوه أصدقاء طفولتي، مقاعدنا في السنة الدراسيّة. أمّي لا تريد لنا اللحاق بآزاد راعي الماعز الذي يجول آخر الليل في أزقّة ميدان أكبس كوحش قلق يبحث عن يقينه، يفلت لصوته العنان بأغانيه الكرديّة قبل عودته إلى إصطبل دوابه، يطمئنّ إلى مضغهم العلف، يحبّ روائح ماعزه، يمازحهم بأسماء نساء، ويخرج ليندسّ في سريره الذي صنعه له حدّاد شبه مجنون من دواليب قطارات صدئة. رشى آزاد مسؤولي مستودعات الخردة بقطرميزات جبنة ماعز فاخرة للحصول على أربع منها أدخلها الحدّاد وآزاد بمساعدة رفاقه رعيان القرية إلى غرفته، حفر مكانًا ثابتًا في زاوية غرفته التي تطلّ نافذتها على السهول التركيّة البعيدة، أشهر طويلة قضاها الاثنان يجرّبان مدّ قضبان حديديّة لتستوي سريرًا يرى منه آزاد الحدود وحرّاس الجندرمة الأتراك، الذين باتوا يعرفونه من كثرة ما أشار إليهم بذراعه بحركة بذيئة، وكانوا يردّون على استفزازه أحيانًا بإطلاق طلقة واحدة في

الهواء، يضطر بعدها للاختباء عدّة أيّام، يمضي في مرمى بنادقهم هادئًا، مردّدًا شتائمه لهم على شكل أغنية يدبك عليها رعيان صغار يقودهم آزاد كمعلّم لا يمكن التخلّي عنه في اختراق حدود يعرف كلّ مداخلها السرّيّة. يقدّم خدماته للجميع دون مقابل، موظّفو السكك الحديديّة يعبرون وراءه مسترشدين بتعليماته، ليعودوا بعد ساعات قليلة محمّلين بأكياس البندق والفستق وبعض الأقمشة الرخيصة. كلّ أسبوع يأتي تجّار صغار من حلب، يشترون بضائعهم في ترتيب لم يتغيّر منذ ثلاثين سنة.

اليوم الطويل الذي قضيناه في ميدان أكبس أعاد الحيويّة إلى وجه سوسن. بحثتُ عن وجوهٍ بقيت في ذاكرتي، كصور أولى لتفتُّح طفل على الحياة والآخرين.

بحثت سوسن عن مهران الذي عرض على أمّي دورًا في مسرحيّة كتبها الحدّاد أبو مكسيم عن دور الطبقة العاملة في الثورة المقبلة. عرض عليها دور الأمّ، قال بفخر إنّه استلهم الشخصيّة من رواية كاتبه المعبود مكسيم غوركي. اعتذرت أمّي ضاحكة على هذا الجنون الذي استبدّ ببضعة موظّفين وجدوا فرصة لقتل الملل. صمّم أبو مكسيم على إعطاء دور الثائر البلشفي لصديقه آزاد، الذي أثار ظهوره على الخشبة المرتجلة ضحك الجمهور. لم تسمح لنا أمّي بالذهاب إلى المحطّة التي احتشد فيها كلّ أهالي قريةٍ أغلب سكّانها موظّفون لمشاهدة مسرحيّة مرتجلة.

لم تجد سوسن أحدًا من وجوه ذاكرتها سوى المختار، الذي لمّا يزل يجلس أمام منزله مبرِّمًا شواربه الفوّاحة برائحة زيت القطن، أمامه ختمه على طاولة صغيرة مصنوعة من أخشاب صناديق

الخضار، ينتظر المراجعين القلائل. ما زال يضع ختمه أمامه رافضًا إصدار شهادة وفاة أيّ ميت لم ير جثّته ويصلِّ في جنازته، تاركًا عائلات كثيرة مات أبناؤها في البلاد البعيدة في نفق الانتظار، شارحًا بعبارات قليلة أنّ الموت أسوأ ما يمكن حدوثه لشخص حتى لو كان ميتًا حقيقةً.

سوسن لم تجد الكثير من صورها القديمة، لكن وجودها في المكان أعاد إليها نشوة الانتماء إلى هؤلاء الريفيّين. بعض عجائزهم يتذكّرون سوسن طفلة صغيرة، مرحة العينين، كثيرة الحركة ونظيفة الثياب.

بعد العصر، كان يجب أن نغادر القرية، لكن سوسن صمَّمت على قبول دعوة أهل آزاد للمبيت عندهم. كانت تريد سماع صوت الفجر. نامت في سرير آزاد وأنا نمت قربها على الأرض على فراش صوفي نظيف الشراشف مدَّتْه شيرين قرب السرير. غرقنا في النوم كأنّنا لم نغادر هذا المكان، وكأنّ لا شيء أيضًا يدعو لقلق الليلة الأولى في الأمكنة الغريبة. بعد الظهر تناولنا غداءنا، استأجرنا سيّارة نقل نصف بيك آب أوصلتنا إلى مفرق شيخ الحديد، سرنا على الأقدام وسط سهول الرمّان كأنّنا هاربان من سائق السيّارة، الذي سألنا عن وجهتنا وأسمائنا. استلمت سوسن زمام الحديث، أخبرته حكاية أعجبني ارتجالها السريع. ادّعت أنّها طبيبة سوريّة من قرية العنّابيّة، مقيمة في أميركا، تتفقّد أملاك عائلة زوجها. ذكرت أسماء عائلات شهيرة في المنطقة. لم تكن تبحث عن تصديقه الحكاية، إنّما شعرت بأنّها لا تريد إفساد متعتها بزيارة مكانها الأوّل.

نقدتُه الأجرة، تردّد ثم أخذ المائة ليرة منّي. سرنا كسيّاح يريدون الضياع في طرق زراعيّة تودي إلى حقول زيتون وعنب ورمّان متشابكة أخفتنا عن عيون السائق المحقّق. عدنا إلى المفرق وانتظرنا أقلّ من نصف ساعة، اقتربت منّا سيّارة شيفروليه، وقفتْ ونزل منها رجل أربعيني، صافحنا ببرود، تغيّر فجأة حين عرّفنا الدكتور جعفر ملّا موسى على نفسه بتهذيب، معتذرًا عن مفاجأتنا، وأخبرني بأنّ شيرين أخبرته بأنّنا كنّا في زيارتهم. جعفر كان ابن مهندس كردي قضى أكثر من خمسة عشر عامًا في السجن لانتمائه للحزب الشيوعي، دعانا بإلحاح لقضاء يوم في ضيافته. استعدتُ أصدقاء طفولتي ببساطة، صمتنا ونحن ندخل إلى ڤيلّا أنيقة على رأس تلّة مشرفة على غابات زيتون نستطيع منها رؤية ميدان أكبس وكلّ القرى المحيطة بها، بالإضافة إلى السهول التركيّة البعيدة. عرّفَنا على زوجته هيفين شيخ عيسى مدرّسة الرياضيّات التي أخبرتنا أنّها تسمع الكثير عن أمّي من رفيقاتها في ثانويّة عفرين.

هيفين رحّبت بسوسن، حاولتا تذكّر بعض الأصحاب القدامى من فتيات ميدان أكبس، خجِلْنا من أنّنا ضيّعنا ذاكرتنا. جلسنا إلى العشاء الفاخر المكوّن من لحم جدْي مع بطاطا مشويّة مهروسة مغمّسة بليمون وزيت زيتون وسلَطات. هيفين جاملت سوسن، التي استعادت مرحها دفعة واحدة. بدت امرأة جديدة تشبه سوسن القديمة، استمعنا إلى قصص كثيرة مضحكة وغريبة عن شجاعة آزاد وطيشه. سيرة الأكراد وتفاصيلها أثارت اهتمام سوسن، ووجدَتْها سببًا كافيًا كي تكره أمّي أكثر، أمّي التي أبعدتنا عن بيئتنا الطبيعيّة.

في اليوم التالي بعد جولة في قرى عفرين، عدنا إلى محطّة

ميدان أكبس. تمنّت سوسن فجأة رؤية آزاد والاعتذار منه، كأنّها للمرّة الأولى ترمي نفسها في النهر لتنقذ مجموعة أطفال غرقى. كانت السيّارة المتهالكة تسير، سوسن صامتة تراقب الأشجار والجبال البعيدة بشغف. هذه الرحلة حرّرتها من أوهام العفونة. شعرت بإمكان أن تمنحك الحياة أكثر من فرصة لتصبح قريبًا من ذاتك الحقيقيّة. أحثّ السائق وأذكِّرُه بموعد قطار الساعة السابعة. أنا وسوسن نؤجّل الحديث إلى مكان آخر، مللنا من التحدّث بالإشارات كي لا يفهم أحد سبب وجودنا في هذه القرى. وجهانا يخفيان قلقًا رافقَنا خلال الأيّام الماضية ونحن نجمع صورة طفولتنا.

كانت الشمس تغرب في ميدان أكبس فوق حقول عباد الشمس. وبينما السيّارة تقترب من المحطّة، فوجئنا بالعويل المرتفع من القرية. نرى من بعيد قطارات تتوقّف، موظّفين يغلقون باب المحطّة، شوارع خالية، يتعالى من بيوت الموظّفين نحيب وبكاء، أبواب تصطفق ورجل يؤشّر لنا بالعودة من حيث أتينا. لم تصدّق سوسن حين نزلت من السيّارة. رأت المذيع يبكي على شاشة التليفزيون ويعلن موت الرئيس، أمسكت بالموظّف الوحيد الذي كان يغلق الأبواب الباقية، هزّته من صدره وطالبته بكلمات متلعثمة تكذيب الخبر الذي تناقله العالم خلال دقائق. تركها في حالة هستيريا وأغلق باب المحطّة الرئيسي. فلتت ببكاء حارّ لم أفهمه، حاولتُ التصرّف بسرعة فأغريت السائق بمضاعفة أجره ثلاث مرّات للمضي بنا إلى حلب، لكنّه تركَنا كوباء أمام باب المحطّة المغلقة. سوسن انهارت من البكاء، سندْتها بين ذراعي، أجلستها على رصيف مقهى لاعبي

الورق والدومينو الفارغ من روّاده. خادمه العجوز يجرّ قدميه ويرفع صوت التليفزيون القديم الذي بدأ يبثّ آيات قرآنيّة وصورة الرئيس الراحل محاطة بشريط أسود، ومقطوعات موسيقى كلاسيكيّة لباخ.
لم أستوعب ما يحدث، لم أصدّقه، ظننته زوغان نظر. تعطّل عقلي عن التفكير. جلست على مقعد وسط المحطّة المغلقة الأبواب، فكّرت بأنّني الآن في هذه النقطة من العالم وفي هذه المحطّة المهجورة أستقبل نبأ موت الرئيس، أفكّر هل سندفن خوفنا مع جثمانه؟ فكّرتُ بسوسن، التي نظرت إليّ بقلق. طلبت منّي الوصول إلى حلب بأيّ ثمن، وجدنا رجلاً وزوجتَه مضطرَّين للسفر إلى حلب، غرباء مثلنا علقوا في هذه القرية النائية. بحثت عن سيّارة أجرة، وفي النهاية اهتديت بمساعدة شيرين أخت آزاد إلى قريب لهم لديه «بوسطة» صغيرة تنقل الركّاب بين عفرين وقرية شيخ الحديد. طمأنته إلى أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، أغرتْه الأجرة التي دفعناها، فكّر بمغامرة السفر في هذا الليل الذي صمت فيه كلّ شيء فجأة. تهادت بنا البوسطة، السائق لم يتوقّف عن الترحُّم على الرئيس بصوتٍ بدا لي كاذبًا كأنّه يطرد خوفه. اصطحبْنا معنا الرجلَ وزوجتَه ومؤنهم. نحيب سوسن لم يتوقّف حتى وصلنا إلى حلب بعد منتصف الليل.

الشوارع فارغة تمامًا. بضعة سيّارات تعبر الشوارع مسرعة، حلب مدينة أشباح، صمت عميق. وخوف قرأته في وجه رشيد، الذي فوجئ بحضورنا في هذا الوقت. أمّي غارقة في هذيانها، لم أصدّق أنّنا نعيش وسط هذا البؤس، ووسط هذا المكان المثقل بالخسارات التي لا تحتاج إلى ما يشير إليها. الجدران مبقّعة

بالرطوبة، واللوحات مثقلة بخراء الذباب، الكنبات مشقّقة، طاولة السفرة مخلوعة الأرجل. تناولنا عشاءً حضّره رشيد، الذي جامل سوسن بكلمات قليلة ثم غرق في صمته الذي لم أستطع فكّ ألغازه. في الأيّام اللاحقة أغلق التليفزيون نهائيًّا، واكتفى بصوت المقرئ عبد الباسط عبد الصمد المنبعث من المسجّلة. لم أفهم بكاء سوسن على رجل جعل حياتنا بائسة إلى هذه الدرجة، كما لم أفهم سرّ الصمت الفجائي في تلك القرية البعيدة.

رشيد كان سعيدًا رغم كلّ شيء، أنقل له ما يحدث في البلاد، أحدِّثُه عن الرئيس الجديد، والشائعات المتداولة في حلب التي تؤكّد أنّ الفاسدين ستجري محاكمتهم وسيزجّ بهم في السجون دون رحمة. يهزّ رشيد برأسه ويتحدّث بحماس عن رغبته بالصلاة، وجهُه مضاء. لأوّل مرّة يجلس قرب أمّي، التي تحذِّره من تصديق خرافة موت الرئيس، تضحك من بلاهة جيراننا إخوة الرفيق فوّاز الذين أقاموا مجلس عزاء يتصدّره مهرّبون كبار وتجّار سلاح وحشيش مشاهير في المدينة. تكمل أمّي بأنّهم بلهاء يصدّقون بأنّ الرئيس قد مات، ترجونا في لحظات صحوها القليلة عدم الانجراف مع أغبياء صدّقوا كذبةَ فخٍّ نصبه الرئيس ليعرف أعداءه من أصدقائه. تعود إلى هذيانها وتفوح من فمها رائحة حموضة تشبه رائحة مغاور قديمة مليئة بجثث حيوانات متفسّخة.

الفصل الرابع

طرق غامضة

«في الليالي المقمرة تعوي ذئاب الحبّ وتتفتّق حبّات الفستق الحلبي»، قالت سوسن وانتظرت تعليق رشيد، الغارق في قراءة القرآن. طواه وقال كأنّه لم يسمعها: القرآن ليس كتاب المسلمين فقط بل كتاب البشريّة، بين صفحاته وإعجاز آياته كلّ الحلول لمشاكلنا الروحيّة.

لم تعرفه سوسن حين رأته أوّل مّرة، وجهه غير الحليق وعباءته البيضاء ضيّعت ملامحه القديمة. تساءلت بهدوء عن معنى تحوُّله المفاجئ، وعدم مغادرته المنزل إلّا إلى الجامع طوال الأربعين يومًا حدادًا التي أعلنت في البلاد بعد موت الرئيس. شرح لها ببساطة أنّه يشعر بالراحة في هذه المدينة الصامتة، مضيفًا: الموت هو الشيء العادل الوحيد في هذه الحياة.

لم يجب رشيد عن تساؤلات نزار حول معنى الهداية التي يحاول التبشير بها بحماس. بدا منظر رشيد غريبًا وهو يحاول هداية بنات الليل للتوبة، متبرّعًا بإيصالهنّ إلى محسنين يتزوّجونّهنّ ويسترون عليهنّ، ومحسنين آخرين يؤمّنون لهنّ فرصة عمل شريفة

كخيّاطات وخادمات، أو الاكتفاء بالعيش على الصدقات المخصّصة للتائبات.

كنّ ينظرن إليه بأسف، يتركنه يهذي ويخلط بين الأحاديث النبويّة وآيات القرآن، فيبدو بائعَ وَهْمٍ في صحراء خالية من البشر. اكتفى بالصمت وتصاعَد قلقُه، وبعد عودته إلى العمل وانتهاء الحداد الوطني. عزف لأوّل مرّة مع فرقة منشدين دينيين، رحّبوا به وتركوا له قيادة الفرقة الموسيقيّة لشهرته كعازف كمان كبير. لم يعد ينتظر نزار، يتحاشى الحديث معه بانفعال عن الأمل. تناسى أوراق مقطوعاته في درج خزانته، وكاد يحرقها حين هبّت في ذاكرته في ذلك اليوم خواطر الإلحاد، وكتب شكّه في مقطوعة عنونها «الله المفقود». لم ير غرفته التي رتّبها نزار بعد تجديد ديكور منزله وأثاثه، أخبر نزار بقسوة غريبة أنّه سيطلب الغفران له ولأمّي التي لم تتذكّر رحمة الله حين كانت شابّة.

يستعيد من طفولته صورًا قديمة، يبكي بحرقة على ضلال عائلتنا التي بدأ يراها مثقلة بالذنوب. فكّر بأيّامه حين كان يندسّ في سرير سوسن باحثًا عن رائحة جسدها الباذخ رغم براءته، يبحث عن عناقيد خطيئة يتوهّم حملها في جنبات روحه القلقة، يفردها في جلسات خاصّة مع الشيخ أبي بكر الذي يستمع إليه بإعجاب، يشرح ذنوبه بصوت هادئ يذكّره بالتائبين الكبار في التاريخ، يتناول العشاء إلى مائدة الشيخ مع مجموعة شباب يشبهونه، يتحدّثون عن نعمة الغفران. لم تعد تراوده الرغبة في الموت بعد وصوله إلى بداية اليقين، الذي حوّله إلى شابّ زاهد، يفطر تمرًا مع كأس حليب، يؤلّف أناشيدَ دينيّة تثير إعجاب رفاقه الجدد. أعاد توزيع موسيقى

نشيد أهالي المدينة المنوّرة الشهير الذين رحّبوا بالرسول المهاجر. تحسّس نزار عبقريّته التي بدأت تبزغ فجأة بعد سبات طويل. دوّن نزار النشيد وأضاف إليه بعض الوقفات التي تحوّله من نشيد بسيط إلى مقطوعة موسيقيّة رائعة. اعتبر رشيد تدخّل نزار بداية نهاية ضلاله وسيره على الطريق المستقيم. الشيخ أخبره بأن لا يضيّع وقته، فقوم لوط خالدون في جهنّم، نصحه بكلماتٍ أبويّة بالابتعاد عن تاريخه العائلي غير المشرِّف، رجاه أن لا يحمِّل نفسه أوزار النفوس الأخرى، وأنّه لا تزر وازرة وزر أخرى. شعر بالغصّة حين تخيّل نزار سيتلظّى للأبد في جهنّم.

يستيقظ من أحلامه مذعورًا، يبحث في يقينه عن صور جديدة تقيه الصور القديمة التي تشهّى محوها دفعة واحدة. تمنّى لو يولد من جديد طفلاً بلوح أبيض تخطّ الملائكة عليه بحبرٍ سرّيٍّ أمنياتها، تتداخل صور وجوه يعرفها في طفولته، صورة أبيه التي بحث عنها طويلاً، حلم به يأخذه إلى الحدائق ويلاعبه. هذه الصورة السعيدة لم تغادر أحلام رشيد أبدًا، تختلط الآن مع صور أمّه، التي تأتيه في الحلم مختلطة مع صورة إحدى أشهر الراقصات، التي أخبرته ساخرة حين حاول هدايتها أنّها ستكتب ذات يوم مذكّراتها، وتفضح كلّ شيوخ حلب الذين راودوها عن نفسها، وتكمل بأنّها كانت تُستدعى أحيانًا إلى مزارع تجّار أغنياء، يتوضّؤون، ويكتب لها المشايخ عقود زواج عرفي، ثم يأتي المشايخ أنفسهم صباحًا ليطلّقوها ويباركوا تقوى أزواجها الذين لا تستطيع حصرهم.

يختلط وجه أمّي في ذهنه مع وجوه جليسات الكباريه، الذي لم يعد يطيق الذهاب إليه بعد تهليله مع تلاميذ الشيخ أبو بكر، حين

كان العالم يراقب بذهول انهيار برجَي التجارة العالمي في نيويورك، مبارِكين «غزوة نيويورك» كما أطلق عليها منفّذوها، الذين انتظر رفاق رشيد حتى توضّحت صورهم وهويّاتهم وسِيَرهم، ليصطفّوا وراء الشيخ مقيمين صلاة الغائب على أرواحهم كشهداء. صورة محمّد عطا المنشورة في أحد مواقع الإنترنت جعلت رشيد يشعر بالعجز، يحتقر نفسه لأنّه ليس سوى كمنجاتي بائس وعاجز. احتفظ بالصورة بين صفحات كتب الجهاد. بدأ يتلقّط أخبار وسِيَر باقي شهداء غزوة نيويورك عبر مواقع المجاهدين على الإنترنت، يفتحها لهم رفيقه صبري الأفندي محطّمًا جدار المنع، متتبّعًا كلّ ما ينشر عنهم من أخبار ومعلومات. يطبع رشيد صورهم وينظر إليها في الليل كعاشق، يشعر بقوّة كبيرة تهزم رغبته في موت مجّاني كان يحلم به حين كانت تنتابه أزمات وجوديّة تحيل جسده النحيل إلى حقل هشاشة لا يعرف سبيلاً للخروج منها.

بقيت زجاجة غامقة تضمّ رماد سعاد موضوعة فوق الخزانة. لم ينتبه رشيد إليها وسط تحوُّله الذي أغضب سوسن. ظلّت تردّد أمامه حلمها الأثير عن ممارسة الحبّ تحت ضوء قمر مكتمل وذئاب الرغبة تعوي. اقترابها من الأربعين جعلها تفكّر بالزمن، لم تعد تتهادى في ملابسها الشفّافة أمام المرآة، تكره تجاعيد بطنها، تتحاشى النظر إلى تهدّل ثدييها، تقول لي بهدوء إنّها تحلم بطفل تأخذه بعيدًا عن أنقاضنا، تعلّمه أنّ الحلم أهمّ من العيش. جملها أصبحت غير مترابطة، فقدت السيطرة على حياتها. استسلمت كقطار دون مكابح، لا يعرف حجم الكوارث التي سيخلّفها وراءه حين يتوقّف. أنظر إليها جالسة في سريرها تترجم مقالات تجاريّة

لمجلّة متخصّصة بالبزنس، مقابل نقود قليلة لا تكفيها ثمن جوارب.

ننتظر نهوض أمّي من غيبوبتها وتوقُّف هذيانها الدائم عن توابيت تعبر صالون منزلنا. تنثر أمّي رائحة الموت في كلّ الزوايا، تدعو بالحياة المديدة للرئيس الذي لا تصدّق خديعة موته، تضع إصبعها على شفتيها محذِّرة من سماع جيراننا تخريفَنا، تنظر إلى سوسن وتسألها من تكون، تجلس قرب رشيد الذي يقبّل يدها، يصحبها بهدوء إلى سريرها، يغيّر شراشفه التي تحوَّل لونها الأبيض إلى أصفر من قذارة عرق فاحت رائحته مختلطة بروائح أدوية مهدِّئة مصفوفة قربها على كمودينة كانت فخورة بشرائها من بقايا أثاث قصر هَدَمَه ورثَتُه وعرضوا كلّ محتوياته للبيع في المزاد العلني.

يدعو رشيد لها بالموت والراحة الأبديّة. يجلس قرب سريرها، يفتح القرآن ويقرأ لها آيات من سور عديدة. تفاجئه حين تطلب منه بصوت حازم عزف مقطوعة العذراء والموت لشوبرت، لا يخبرها أنّه لم يعد يعزف هذه المقطوعات. تخلّى عن عمله في فرقة نزار، الذي لم يناقشه أو يحاول إقناعه. زهد هو الآخر بالضجيج، باحثًا عن سلامه النفسي، مستمتعًا بالجلوس في منزله الفاخر واستقبال أصدقائه وصديقاته القديمات، مستعيدًا جلسات مساءِ ما سمّوه خميس نزار، يتناولون المكسّرات والتبّولة ويستمعون بشغف إلى مقطوعات موسيقيّة يحفظونها عن ظهر قلب، متبادلين أحاديثهم بلطف. يظنّ من ينظر إليهم أنّهم يعيشون بعيدًا عن المدينة التي لم يبق لهم فيها سوى ذكريات قديمة يستعيدونها بتلذّذ، موقنين بعدم عودة الأيّام الرائعة حين كانت الشوارع مظلّلة بأشجار الكينا،

وروائح الربيع ومطر الشتاء قويّة إلى درجة لا يمكن تجاهلها.

نزار الرجل الأنيق أصبح هرِمًا أيضًا، محتفظًا بذكرياته لنفسه، يائسًا من حياةٍ شعرَ بها ثقيلة، يريدها أن تمضي بسرعة، باحثًا في كتب المتصوّفة عن معاني الموت. جمع أفراد فرقته، أخبرهم بلهجة أبويّة أنّه يترك لهم كلّ شيء. لم يعد يحتمل الضجيج، يريد قضاء ما تبقّى له من سنوات دون واجبات. شعر جميع العازفين بعدم احتمال العمل دون رشيد. لم يفصح عن رعبه بتحوّل رشيد إلى قارع دفوف في فرق هواة تجول القرى وتمتدح الرسول.

تشهّى لمرّة واحدة السفر إلى فرنسا، والتهتّك للمرّة الأخيرة في بارات رفاقه المثليّين. تشهّى الرقص على الطاولات والغرق تحت نوافير شمبانيا. نظر بحزن إلى صورة ميشيل وزوجه في عيد ميلاد أصدقائهما، أيضًا هو هَرِمَ ولم يعد لديه ما يفعله سوى البقاء في المنزل وقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منازل أصدقائه الريفيّة. شعر براحة حين كتب له ميشيل وأخبره عن رغبته بقضاء أيّامه الأخيرة في حلب. تشكّى من الغربة ومن أطوار زوجه الغريبة التي لم يعد يحتملها، يقضي وقته في محطّات المترو في أحياء المغاربة، عارضًا نفسه على شباب عاطلين عن العمل ليمارسوا معه الجنس في زوايا الأحياء القذرة مقابل خمسين يورو.

تحمّس نزار لعودة ميشيل. تحدّث عنها كحلّ وحيد لأزمته الروحيّة، حلم بقضاء شيخوخة مريحة مع صديق قديم، كتب له رسالة طويلة شرح له فيها أنّ حلب تغيّرت، لم يعد الزعران يلاحقون المثليّين ويرمونهم بالحجارة، لقد ضاع الجميع وسط الزحام. انتظر طويلاً وفاء ميشيل المتردّد بوعده، بعد فترة نسي نزار

دعوته لميشيل. يقضي وقته مع أصدقائه وصديقاته نساء الطبقة المخمليّة سمِّيعة الموسيقى الكلاسيكيّة، وقُرب سرير أمّي، التي أصرّ على اصطحابها إلى منزله، حيث الهدوء قد يساعدها على استعادة وعيها، أيقظناها وتحمّست سوسن لمغادرتها المنزل، بدأت تشتمها دون سبب وتسمّيها إيلينا، مستعيدة ذكرى المرأة الأميركيّة التي خطفت أبي إلى أميركا.

فوجئنا باستعادتها ذكرى إيلينا وأبي، الذي كانت تناديه بأسماء دلع غريبة. سارت في الأزقّة، بدت فقيرة تشبه جيرانها الجدد الذين لم تعرف أغلبهم. لا يمكن لأحد تصديق أنّ هذه المرأة المشعّثة الشعر هي أمّي المتعجرفة.

شعر نزار بسعادة غامرة لوجود من يعتني به في منزله، يطبخ لها أطباقًا خاصّة، يحتمل صراخها في الليل، يستشير أصدقاءَه الأطبّاء أزواج صديقات حلقة الخميس، يسجّل تعليماتهم على ورق ملوّن يعلّقه قرب سريرها، وحين تعود إلى صحوها يحتفل الاثنان بتبادل الذكريات المرحة، متجاهلين كلّ ما يسبّب الكآبة. رشيد يزورها يوميًا في بيت نزار، يقضي وقتًا طويلاً، وينام أحيانًا في غرفته التي انتظرته. في الصباح يشرب قهوته مع نزار ويتحدّثان كما كانا يفعلان طول عمرهما. يتحاشى رشيد هدايته ويتحاشى نزار التعليق على وجهه الذي يشعّ بلاهةً، لا يجد نزار تعريفًا أفضل للسعادة من الاهتمام بكائن حوّله هجرانُ ثلاثين سنة وضجيجُ المدينة والخراب إلى امرأة اختارت الغرق في عالمها النفسي المعقّد، اكتفت بالعيش مع صور قديمة لم تعد تعني أحدًا.

مرض الحنين استبدّ بالكثير من أهالي المدينة. مجموعات

كبيرة تجتمع لتتذكّر الماضي، لا يستطيعون شتم الحاضر المثقل بالخوف فيتذكّرون الماضي بنوع من التشفّي، يصمتون ويعرفون بأنّ كلماتهم المكرّرة لم تعد تثير أحدًا إلّا باحثين قلائل، يكتبون أبحاثًا سريعة عن زمن الخمسينيّات تنشر في دوريّات متخصّصة أو كتب لا يقرؤها أحد، تتحوّل فيما بعد إلى مسلسلات تليفزيونيّة تختصر كلّ ما يجب أن يقال عن الماضي، قلاقل وانقلابات عسكريّة وإقطاعيّون مصّاصو دماء الشعب. صورة الماضي هذه تصيب مرضى الحنين بخيبة أمل، يتّهمون صنّاع هذه المسلسلات بتزوير التاريخ، ويكتفون بالصمت لأنّ مديح الماضي القريب يعني أيضًا شتم الحاضر والتذمّر منه، وهو ما قد يودي بصاحبه إلى أسئلة لا تنتهي في فروع الأمن، أو هكذا يظنّون ويفكّرون: إنّهم جميعًا يعيشون متجاورين مع الخوف الذي يجعل من بقاء الرئيس على قيد الحياة بعد دفنه حقيقة يتمّ تداولها سرًّا.

بقائي مع سوسن وحيدَين في المنزل منحني فرصة لتخيّل حياتي الموازية التي عشتها، فكّرت بأنّ الكثيرين عاشوها، تخيّلت أنّنا جموع غفيرة تقاسمنا الهواء مع من حكمونا أربعين عامًا لكنّنا لم نلتق، جيران لم يتفقّد بعضنا بعضًا في الجنازات، ونتبادل أطباق الطعام كما كان يحدث في الماضي الذي نشط مرض الحنين إليه. أخبرتُ سوسن بأنّنا حين نكبر سنكون أشخاصًا رائعين ولن ينتابنا مرض الحنين إلى الماضي، كلّ ما في ذاكرتنا يجب محوه ورمي أثقاله على أوّل مزبلة.

أعجبتْها فكرة عدم الحنين إلى الماضي. تابعت أنّها تكره كلّ الأزمنة. كنت أظنّ أنّها فرحت بالفكرة لأنّه لن يحاسبها أحد من

ضحاياها ذات يوم. امتدحَتِ النسيان، وبملل أخبرتني أنّها ستعلّم ابنها أنّ حياته تبدأ من لحظة تدميره للتوازي الذي أثقل روحي التفكير به.

أشعر بالعدم يسود منزلنا حين أبقى بمفردي في المنزل مع سوسن. تركت غرفتها نهائيًّا في منزل سلمى بعد عجزها عن دفع الإيجار، نتناول طعامنا ونفكّر بضرورة مغادرتنا هذا المنزل الذي أصبح سببًا رئيسيًّا لكآبتنا. نتّفق على بيعه والرحيل من هذا الجحيم إلى مكان آخر أقلّ قسوة. فجأة ننتبه إلى أنّنا ننتظر موت أمّنا، نشبه جان وكثيرين ينتظرون الانفصال عن ماضيهم كي يصبحوا مرضى حنين.

ينضمّ إلينا رشيد ولا يعلّق على أحلامنا. يصمت ويهزّ برأسه، يخرج من المنزل ولا يعود قبل منتصف الليل، في ورعه صورة غريبة، خوف ممزوج بأمل الموت الذي عادت إليه صوره القديمة، شبّه نفسه بطير معلّق في الفضاء سيموت إن حطّ على الأرض. تخيّل نفسه معلّقًا بمسامير السماء. فجأة يغمره رضى عميق، ازداد حين غادرَنا تاركًا لنا ورقة صغيرة يخبرنا فيها بالاسم كم يحبّنا، يوصينا بأنفسنا وبأنّه وجد نفسه أخيرًا. لم نفهم معاني كلماته القليلة، وتذكّرناه في الأسابيع الماضية ملتصقًا بشاشة التليفزيون، يراقب باهتمام كلّ نشرات الأخبار، يفتح كمبيوتره ويغرق في مواقع إنترنت تحثّ على الدفاع عن حرمة الأراضي الإسلاميّة ضدّ الصليبيّين الجدد. قلقه منعه من النوم، نَحُلَ جسمه، وجهه اصفرّ، يسير على أقدامه ساعات طويلة في الشوارع الفرعيّة الهادئة، يصل إلى منزل نزار، يدخل ويجلس قرب جسد أمّي الغارقة في عفنها،

لا يترك أيّ مجال لنزار كي يسأله، يعود إلى المنزل سيرًا على الأقدام، يحتاج إلى التفكير بمفرده، يشرد ويصطدم دون قصد بالمارّة، ينعطف في شوارع فرعيّة، يضيّع الطريق إلى المنزل، منهَكًا يندسّ في سريره ويهجره النوم، يفكّر برفاقه الذين سبقوه إلى بغداد، يشعر بأنّه ضعيف وجبان يخاف الموت الذي فكّر به طويلاً. تراءت له صور مجاهدي غزوة نيويورك وفكّر بالجنّة. لأوّل مرّة يرتاح جسده ويتحسّس برودة ضفاف أنهار الجنّة، لم يعد يستطيع الحياة، لا يستطيع الاندماج مع جموع المتظاهرين ضدّ الحرب. يفكّر إنّه قضى عمره يتحاشى الجماهير. فكّر بوحدته لأوّل مرّة، كره أمّي التي صنعت من طفولته لعبة مسلّية لضيفاتها السخيفات. مصيره شبه محسوم الآن، يتحسّس الموت، يرى بغداد قريبة منه. يقف على باب منزل الشيخ أبي بكر، يخبره بهدوء أنّه يريد المغادرة مع القافلة الذاهبة إلى بغداد ليؤدّي واجبه في الدفاع عن ديار الإسلام ضدّ الصليبيّين الجدد. أضاف أنّه يحتاج النصح إن كان ذهابه إلى بغداد دفاعًا عن حزب البعث الذي يكرهه أم عن ديار الإسلام.

أخبرَنا بأنّه لا داعي لقلقنا إن غاب فجأة، سيكون في بغداد. لم نكترث لكلماته ولم نصدّق. رشيد الرقيق بوجهه الأصفر ونُحُوله الشديد، أُنهكت روحه إلى درجة أنّه لم يجد وسيلة للخلاص من قلقها سوى الموت في بغداد.

بكى نزار، وفي لحظة طيشٍ أخبر أمّي بأنّ رشيد في بغداد. فكّرتْ بالكارثة التي نبّهني بكاء نزار الحارق إلى حجمها، فكّرت ماذا تعني حياتنا دون رشيد الرقيق. سوسن انتابتها نوبة هستيريا،

تشمّمت أغراضه، فكّرت بقتل الشيخ أبي بكر، شتمت الأميركان والعراق وفتحت باب غرفة رشيد، صدمها وجود زجاجة غامقة تضمّ رفات سعاد بقي رشيد طوال ليلته الأخيرة يتأمّلها بشغف، يفكّر بمعاني الموت والشهادة والجنّة. شعر براحة كبيرة ليقينه أنّه سيلتقي سعاد هناك، ضحك من سخفنا ونقاشاتنا الأخيرة عن مفهوم السعادة والنسيان والتوازي الذي عشناه، لأوّل مرّة يشعر بالرجولة والقوّة وبعجزنا، الذي تراءى له في اهتمامات دنيويّة احتاج خلاصه منها إلى سنوات طويلة من القلق والغرق في الوحدة.

أمّي بقيت تنظر إلى السقف، تنهمر دموعها بصمت. طلبت من نزار إعادتها إلى منزلها، لم تسمع توسّله لبقائها في منزله بعد تحسّن صحّتها وصحوتها أكثر من مرّة خلال اليوم. نوبة صحوها لساعات أعطتنا أملاً بعودتها إلى مكانها قرب النافذة وتناول شاي المساء. طلاء المنزل الذي تحمّس نزار للتبرّع بتكاليفه سيحسّن من وضعها. لم تسمعه وهو يرجوها البقاء بعيدًا عن الحارة التي أصبحت في الآونة الأخيرة حديث الصحف المحلِّيّة، لكثرة الجرائم فيها، آخرها خبر نشر في صفحة داخليّة عن رجل أحرق زوجته وأطفاله الأربعة ثم انتحر بسكّين المطبخ، صارخًا في جيرانه الذين يراقبون ببرودٍ: إنّ الموت حرقًا أكثر شرفًا من انتظار الموت جوعًا، سائلاً بحرقة: ألا توجد سكاكين في مطابخ هذه المدينة؟

لأوّل مرّة في حياته شعر رشيد بحاجته إلى الجماعة لطرد خوف اجتاحه بعد عبوره الحدود مع المقاتلين الثلاثين في باص قديم. قادهم مرشد كان ينتظرهم في مطعم كباب أوّل شارع القوتلي في القامشلي، التي وصلوها أوّل المساء. لم يأبه الناس

في الشوارع لهؤلاء الملتحين الذين جلسوا إلى موائد المطعم الصغير، يأكلون بنهم ما تبقّى من طعام بائت في مطبخه. شعر رشيد بسكون الهواء وطعم الخوف والحذر، تنبّه إلى وجوده في المكان الخطأ، ترك الأمور ليقودها رفيقهم مضر، الذي تعرّف إليه لأوّل مرّة في ساحة المسجد قبل الصعود إلى الباص بعد صلاة الفجر جماعةً بإمامة الشيخ أبي بكر، الذي قبّلهم فردًا فردًا متمنّيًا لهم الشهادة. بتأثّر أخفى دموعه عنهم ولوّح لهم حين غادر الباص. الجميع صامتون ينظرون ببرود إلى شوارع مدينتهم، وقبل وصول الباص إلى أوّل طريق الرقّة سمع الجميع بكاء شابّ صغير لم يبلغ السابعة عشرة من عمره وصوته يرجو السائق التوقّف. تولّى مضر زمام الأمور، أمر السائق بالوقوف وفتح الباب للشابّ الصغير الذي نزل من الباص وسط قيْئه. وقف مضر وبصوت جهوري خطب في الجميع، مذكّرًا إيّاهم بأنّهم في مهمّة جهاديّة لا في رحلة مدرسيّة، والجهاد فرض عين على كلّ مسلم، مشدّدًا على ضرورة الإيمان بالشهادة، ثم لوّح بقبضته مردّدًا الله أكبر والنصر للإسلام.

صمت عميق حلّ على الجميع بعد توقُّف مضر عن الكلام، تذكّره رشيد حين كان شابًّا صغيرًا يقطع طريق الفتيات ويسير حافيًا في الشوارع المتربة. شعر بإعجاب كبير لتحوّله من مجرّد أزعر ومشروع مجرم مؤكَّد إلى مجاهد يسير في طريق الجنّة التي سيصلها بكلّ تأكيد. بايعه الجميع أميرًا على مجموعتهم، تركوا له مهمّة التفاهم مع المرشدين الذين سيوصلونهم إلى معسكرات تدريب أقيمت على عجل، لم تستطع استيعاب آلاف المقاتلين الوافدين من كلّ بلاد العالم وضاعت سيرتهم في دروب العراق.

تلاشى خوف رشيد بعد وصولهم إلى مهجع عسكري كبير على أطراف بغداد، ضبّاط قلائل وجنود يتحاشون النظر إليهم درّبوهم على بنادق روسيّة وُزِّعت عليهم مع بضعة أمشاط من الرصاص، حُشروا في اليوم الرابع عشر في سيّارات مدنيّة رمتهم في محيط مطار بغداد المحاط بجنود الحرس الجمهوري، الذين لم يكترثوا بمغامرين لم يعد أمامهم إلّا الدفاع عن حياتهم وسط كلّ هذا الموت.

فكّر رشيد للمرّة الأولى بصورة الموت. لم ينقذه يقينه هذه المرّة. تراءت له الصور ملوّنة، أصابه الرعب حين تخيّل جثّته محترقة، لا شاهدة على قبره لتزوره سوسن وتعتني بنباتاته. هاجمته صور أفراد عائلته، أمّه الأنيقة جعلته محبطًا. لم يستطع تفكيك سرّ هذه الروائح الكريهة التي كانت تنبعث من جسدها. تساءل ببراءة عن تحوّل العطر إلى خراء، وسط جموع الجنود كان يشعر بالطمأنينة، يصدّق أنّ الجنود الأميركان سيخسرون المعركة وتنهشهم الغربان قبل وصولهم إلى بغداد. التصق بمضر، الذي كان يقينه يزداد يومًا بعد آخر بأنّه في مكانه الطبيعي، مسترجِعًا دروسَ الشيخ أبي بكر عن معارك المسلمين الأوائل الذين هزموا إمبراطوريّات عظمى بشجاعتهم ويقينهم.

لم يصدّقوا حين وجدوا أنفسهم خلال أيّام قليلة وسط المعركة، التي قدّروا أنّهم سينتظرونها لأشهر عديدة. استرخوا وتجوّلوا بحرِّيّة في محيط المطار المهجور، كأيّ رجال مطمئنين إلى انتصارهم تبادلوا النكات وأبيات الشعر، حاولوا إشراك الضبّاط مسؤولي التسليح، الذين تجاهلوهم كأنّهم كائنات غريبة

وُجدت صدفة وسط هذه الخرائب المهجورة، فكّر رشيد بالاستسلام إلى قدره، مستعيدًا الأيّام التي فكّر فيها بالموت، شعر بأنّ خلاص جسده النحيل يكمن في قبر مظلم، مضيفًا أنّ الموتى لا يحتاجون أيّ شيء، ولا يخافون من الرئيس وفروع المخابرات.

فكرة الخلاص استبدّت به وسط حمم قذائف الطيران. استغرب تعلّقه بالحياة، وأشواقه التي لا تنتهي للسير مرّة أخرى في شوارع حلب آخر الليل في طريق عودته إلى منزلنا. ارتبك ومارس أقصى درجات الحذر. رؤية جثث الجنود الأميركان تحترق منحتْه طاقة إضافيّة للثبات في المكان. ثلاثة أيّام لم يتذوّقوا خلالها طعم النوم، تنقّل بمهارةٍ كثعلب مع رفاقه، وبعد اكتشاف أنّهم وحيدون في المعركة مع بضعة ضبّاط وجنود، صمّموا على عدم الهرب كما فعل أغلب جنود حماية المطار منذ اللحظة الأولى بعد تأكّدهم أنّ من وصل إلى مطار بغداد بهذه السرعة لن يتأخّر في الاضطجاع في القصور الرئاسيّة.

تحوّل رشيد إلى حيوان كاسر لا يخاف الموت الذي كان يقف قبالته تمامًا. قفز فوق جثث رفاقه، تذكّر وجوه بعضهم، فكّر بأنّ الاقتراب من الموت إلى هذه الدرجة لا يمنحك الوقت للتفكير بحياة أخرى تنتظرك على بُعد بضعة أمتار. تمنّى لو تصبح ذاكرته صفحة بيضاء يخطّ فيها رأيه بالموت، الذي آمن أنّه حقيقة وحيدة يجعلنا جبنُنا نهرب منها كي لا تلتقي عيوننا به، ونراه حقيقيًّا إلى هذه الدرجة المفزعة. فكّر بروعة الهروب، الذي نمارسه طوال حياتنا، من شيء يتربّص بنا كلّ لحظة. تمنّى ميتة تافهة كسولة، يمتلك فيها الوقت كي يودّع أحبّته ويمتحن ذاكرته للمرّة الأخيرة.

ما هو المشهد الأخير الذي سيبقى على صفحات ذاكرته البيضاء؟ شغلته الصورة الأخيرة، بدأ بانتقائها وسط توارد الصور السريع واختلاطها إلى درجة تداخلت فيها كلّ الوجوه. شعر بالعجز يحيط به حين بدأت في اليوم الثالث تميل موازين المعركة للجيش الأميركي الذي أصيب ضبّاطه بهستيريا وهم يرون جثث جنودهم تطير في الهواء. شعروا بتورّطهم في فخّ اكتمل الآن، وراءهم صحراء مديدة وأمامهم مدينة تمتدّ على عشرات الكيلومترات ولا يعرفونها.

لم يعرف أحد بالضبط أسرار تلك المعركة وعدد الجنود الأميركان القتلى. تسرّبت بعد أشهر عديدة شهادات عدد من رفاق رشيد الذي بدا في اليوم الرابع مختلطًا بطعم الدم، يسير في حقل الموت مغمض العينين دون أيّ أمل بالنجاة. أغلب رفاقه الذين رافقوه لم يعد يراهم، وجوه قتلى مشوّهة، جثث متعفّنة مرميّة في أرض المعركة وعلى متاريس الرمل والخنادق التي جهّزها جنود الحرس الجمهوري. لم يبق إلّا القليل منهم بقيادة ضبّاط صغار تحدّثوا طويلاً عن شرفهم العسكري، أوقفوا خطط الأميركان لأيّام قبل أن تصيبهم الهستيريا ويحرقوا محيط المطار بآلاف القذائف والقنابل.

في الليلة الرابعة صمتت نيران القتال في محيط المطار بعد قرار الانسحاب الكيفي. رشيد استطاع حشر نفسه مع بضعة مقاتلين عرف من لهجتهم أنّهم يمنيّون في سيّارة كان يقودها ضابط عراقي يعرف الطرق الزراعيّة البعيدة المؤدّية إلى بغداد، التي وصلوها بعد أقلّ من ساعتين، طلب منهم الضابط النزول وتدبُّرَ أمرِ هربِهِم،

وبكلمات قليلة أثنى على شجاعتهم.

لم يصدّق رشيد أنّه لم يمت، تفقّد أعضاء جسده، شعر براحة غريبة، دخل إلى مقهى في حيّ الكرادة، باع بندقيّته بتسعين دولارًا لخادم المقهى، طلب منه إرشاده إلى مكان يستطيع اللجوء إليه، ضحك الخادم وأشار إلى ضفاف نهر دجلة، التي قال إنّها مأوى المشرّدين. المقاتلون اليمنيّون قاموا باستئجار سيّارة وتركوا رشيد وحيدًا بعد رفضه مرافقتهم إلى ما اعتبره مجهولاً آخر بالنسبة إليه.

وحيدًا في شوارع بغداد الفارغة، بدلته العسكريّة تشي بانتمائه، ذقنه الطويلة تدلّ على هويّته بشكل لا لبس فيه، فكّر بسرعة بأنّه ليس آمنًا إلى درجة الجلوس في مقهى والتحدّث مع الروّاد عن المقامات العراقيّة التي أولع بها ويستطيع ترديدها ببساطة.

بغداد موحشة، والطائرات الأميركيّة لم تتوقّف عن القصف وإلقاء حممها. التي كانت تنفجر قريبًا من رشيد فلا يكترث. عادت إليه رغبة الموت. قرع باب جامع ظنّه سيكون مكانًا آمنًا لليلته. لم يفتح أحدٌ الباب. كان المكان مهجورًا، عادت الوحشة إلى قلبه. فكّر بالصورة الأخيرة التي راودته في الليلة الأخيرة، حاول قرع بعض أبواب المنازل، فشل في العثور على مخبأ، لم يعد أمامه إلّا النوم في مدخل أحد الأبنية، انتقى بناية ذات طوابق أربعة، صعد إلى سطحها، أُحبِطَ حين وجد سطحها مغلقًا بعدّة أقفال، وجد فسحة صغيرة قرب باب الطابق الرابع، تمدّد على الأرض واسترخى على برودة البلاط القذر. الوضع ليس سيّئًا إلى الدرجة التي اعتقدها، فكّر بضرورة التخلّص من ملابسه العسكريّة وذقنه.

عاد إلى المقهى، وجد الخادم يغلق الباب، فاوضه للسماح له بالنوم، لم يقبل الخادم، لكنّه اهتمّ بصفقة بيعه بنطلونًا جينزًا وقميصًا وإعارته ماكينة حلاقة مقابل أربعين دولارًا. قدّم له كأس شاي وحدّثه أنّ الأميركان يبحثون عن المقاتلين العرب في الشوارع، وأنّه لا حلّ أمامه سوى التوجّه نحو الأحياء المحيطة، حيث يتجمّع رفاقه ويعيدون تنظيم صفوفهم مع بضعة ضبّاط بعثيين لم يصدّقوا وصول الأميركان إلى ساحة الفردوس وربطهم تمثال صدّام حسين من رقبته وخلعه، في مشهد تناقلته تليفزيونات العالم وأبكى ملايين العرب، الذين شعروا بمهانة عربدة جنود اليانكي في قلب بغداد.

عادت ملامح وجهه الطفوليّة بعد الحلاقة، وبدا في القميص الفضفاض وبنطال الجينز شابًّا ضائعًا ومتهتّكًا يبحث عن مغامرة أكثر منه مقاتلاً قطع آلاف الكيلومترات ليبحث عن خلاصه. حاول المماطلة وإعادة إقناع الشابّ بالسماح له بالنوم على كرسي في المقهى. الخادم طلب منه مغادرة المكان فورًا، دون أن يخفي بهجته بسقوط النظام وصور صدّام حسين المحطّمة.

غادر المقهى وعاد إلى مدخل البناية القريبة، تمدّد على بلاطها القذر، كان متعبًا إلى درجة أنّه لم يشعر بالجوع والعطش. قلقًا يغفو لدقائق ثم يستيقظ ويحلم بفجر يأتي سريعًا. فكّر بقرع الأبواب الصامتة، تراجع عن تفكيره واستسلم إلى البحث عن صورته الأخيرة. عادت إليه صورة سوسن وصورتَي أمّي ونزار، شوارع حلب وغرفتنا، وجوه رفاقه المجاهدين الذين قُتل أغلبهم وذاب من تبقّى منهم كملح في شوارع المدينة. غفا على برودة نيسان وفوجئ

بجنود أميركان يحيطون به ويطلبون منه النهوض. حدّثهم ببضع كلمات إنجليزيّة أنّه مشرّد ضلّ طريق فندقه، المترجم الكردي الذي يرافقهم طلب منه الصعود إلى السيّارة العسكريّة الكبيرة بصمت.

تبادل النظرات مع رفاقه الثمانية الذين جلسوا على مقاعد السيّارة العسكريّة. لم يعرف أحدًا منهم، وصلوا إلى السجن العسكري المعدّ على عجل في إحدى الثكنات التي تمركز فيها جنود الجيش الأميركي. فكّر بأنّ مصيره يتوقّف على احتماله التعذيب والتحقيق الذي سيتعرّض له، انتابته نوبة عذوبة العودة إلى منزل أهله، ورؤية وجه سوسن العذب حين تكون نائمة في سريرها مرّة أخرى.

فكّرنا به جميعًا، حاولنا تقصّي أخباره، نزار طلب من أصدقاء موسيقيّين عراقيّين البحث عنه، كالكثير من العائلات المنكوبة لا نملك إلّا الانتظار، نتلقّط الأخبار ونبحث في كلّ مكان عن أيّ أثر. ضاع كلّ شيء، راجعنا الصليب الأحمر وتركنا صوره وعناويننا. هجمت سوسن على منزل الشيخ أبي بكر وشتمته مع عدد كبير من أمّهات المفقودين، لم تعد تستطيع احتمال البكاء كامرأة عاجزة. نزار استسلم واعتذر من صديقه ميشيل الذي فاجأه يقرع باب منزله، احتضنه بقوّة وبكى الاثنان قوّة أشواقهما، اعتذر نزار من ميشيل لأنّه لم يستقبله في المطار كما كانا يخطّطان في رسائلهما السرّيّة، ولن يستطيع التفرّغ له قبل معرفة مصير رشيد الضائع.

تفهّم ميشيل وشاركنا البحث، اتّصل بمنظّمات فرنسيّة مهتمّة بتعقّب أثر الغائبين في العراق. أقام في غرفة رشيد نفسها، قلّب في

أغراضه وألبوم صوره، وفي انتظار عودة نزار يطبخ ويغسل الصحون ويردّد أنّه وصل في الوقت المناسب لمؤازرتنا. سوسن لا تستمع إلى رجائه أن تتمهّل وتفكّر بهدوء وتضع خطّة للبحث عن رشيد، تتركهما في منزل نزار وتمضي هائمة على وجهها، تنام في منزل سلمى أو نزار أو تقرع باب منزلنا آخر الليل قبل أن تفتح الباب بمفتاحها، وتطيل المكوث في منزل جان.

سنة وثلاثة شهور مضت وأخبار متناقضة عن رشيد تؤكّد أنّ أحدًا لم ير جثّته، أخبار رجّحت موته بعد الانسحاب من محيط المطار برصاص جنود الحرس الجمهوري الذين اتّهموا بقتل الكثير من المتطوّعين العرب. بدأنا نفقد حماسنا في البحث عن رشيد، نعتقد بأنّ المفقود أفضل من الجثّة. فكّرت بجثّة رشيد في عراء العراق. هل ستدفن بتبجيل أم ستترك للطيور الجارحة؟

حاولنا تعلّم الصبر وبدونا جميعنا مجموعة هرمت، نتداول مفردات يستخدمها عجائز ينتظرون الموت. نزار يترك ميشيل يرتّب حياته في منزله ويستعيد علاقته مع المدينة. يقيم نزار قرب أمّي التي بدأنا ننسى وجودها، أو بالأصحّ نهرب منها. أوقات طويلة قضاها الاثنان، ثرثرا وتبادلا الأدوار، تشكّيا من نقص الأوكسيجين وشتما العائلة فردًا فردًا، وبعدها صمتا وفكّرا برشيد المفقود.

الفصل الخامس

الأمّ الميتــة

كنت خارجًا من معمل النسيج حين طلب منّي نزار البحث عن سوسن. أخبرني ببساطة أنّ أمّي ماتت، كعادتها تصل متأخّرة إلى كلّ شيء حتى إلى موتها. الخبر أفقدني توازني لدقائق لكنّني لم أعرف سببًا لبهجتي الخفيّة. في الأيّام الأخيرة قدّرْنا أنّها ستعود إلى حياتها الطبيعيّة، بدأت تستعيد عافيتها وتحاول السير نحو حقول الخسّ التي انتهت تمامًا، ولم يعد في كلّ المنطقة ما يشير إلى وجودها قبل ثلاثين عامًا فقط، لكن جسدها انهار دفعة واحدة.

البحث عن سوسن في هذا اليوم القائظ من حزيران عام ٢٠٠٤ عقوبة حقيقيّة. موبايلها كعادته مغلق، وطرقها تائهة. تركت لها خبرًا عند جان الذي كان لطيفًا في عزائه لي ولأسرتي. اشتريت أربعة قوالب جليد كبيرة سنحتاجها لمنع جسد أمّي من التفكّك. لا يعقل دفنها في الليل، فالخفافيش لا تترك جثّة مدفونة ليلاً. كانت مشاعري مختلطة إلى درجة أنّني توقّفت عن التفكير. سوسن لا ترغب في الجلوس قرب جثّة لا تعنيها، تكره رؤية صورة موتها المقبل.

وصلت إلى المنزل وكان نزار قد رتّب كلّ شيء: الكفن والورود وسيّارة دفن الموتى ومكانًا ضيّقًا قرب جدّتي اشتراه من سمسار قبور. في آخر أيّامها كانت تستعيد ذكرى جدّتي من أجل إفهام الجميع وصيّتها الغامضة، تريد أن تُدفن قربها. وضعنا قوالب الجليد من الجهات الأربع حول جسدها، رمينا فوقها كلّ البطّانيّات في المنزل، فبدا منظرها كومة خردة قديمة تنزّ ماءً قذرًا ننوي التخلّص منها صباحًا.

ناريمان لم تتأخّر عن الحضور. فوجئنا بخالي عبد المنعم وابنه حسين يدخلان وفي أيديهما مجموعة كبيرة من سور القرآن. أبعد حسين جارات تعاطفن معنا وقمن بحراسة الجثّة ريثما يقوم نزار بترتيبات الدفن. كان الجميع يتبادلون نظرات معادية. نزار رفض ترك جثّة أخته الحبيبة لأحد كي يسهر عليها. صمت خالي عبد المنعم حين شعر بأنّ نزار منزعج من حضوره ومستعدّ للقتل، اكتفى بقراءة القرآن قرب رأسها يرافقه حسين بالتجويد.

حضور سوسن آخر الليل متأخّرة جعل الصورة في غاية التعقيد، قدّرت أنّ رأس جثة ليس المكان المناسب لتصفية حسابات الماضي الثقيلة. ناريمان احتضنت سوسن، قبّلت رأسي وتصرّفت كصاحبة بيت. فكّرتُ بالناس حين لا يجدون وقتًا للاعتذار إلّا في لحظة الموت. قالت كلامًا مشجّعًا عن أمّي التي ناضلت كي تربّينا، أضافت: الحياة حماقة كبيرة حين نعتقد بأزليّتها ولا نتذكّر الموت الذي يتربّص بنا خلف الباب.

لم تردّ سوسن، جلست في المطبخ تلبّي طلبات الجميع بهدوء. اختارت طريقة وداع صامت تليق بها. في الأيّام الأخيرة

بدأت تمتدح الصمت حين تتحدّث عن رغبة البشر التافهين بالجدال حول أشياء حدثت منذ سنوات طويلة، تضيف أنّ البشر لديهم رغبةٌ في هزيمة أعدائهم حتى وهمْ على فراش الموت. طلبتُ من حسين، الذي لم أره في حياتي سوى مرّات قليلة. ومنذ زمن بعيد، التصرّف بلطف مع نزار ومنع أيّ اشتباك مع خالي عبد المنعم. كان الشابّ متفهّمًا ولطيفًا، تصرّف كرجل لا يخاف الجنازات. تفقّد القبر قبل الدفن بعد صلاة الصبح، ولم يتمسّك نزار برغبته بدفنها بعد صلاة الظهر، عدد المشيّعين لن يزيد كثيرًا ولا حاجة لمتطفّلي الجنازات.

سار كلّ شيء بشكل طبيعي. غفوت لدقائق على الكرسي نفسه الذي كان يجلس عليه رشيد للمرّة الأخيرة قبل رحيله إلى بغداد فجرًا، سمعت صوت تكبيرات حسين بصوت جهوري حين حمل التابوت مع ثلاثة من أولاد جيراننا. قرّر أنّ موعد الدفن قد حان. نزار راقب كلّ شيء بصمت عجيب، قبّل جبينها بهدوء، لم يعترض على أيّ شيء، تخلّى عن عناده، ترك العزاء لعبد المنعم كي لا يحوّل وجودُه العزاء العائلي إلى ساحة معركة. اهتمّ ميشيل باستقبال أصدقائه القريبين وتلاميذه الموسيقيّين في منزله، عزفوا لها كونشرتات حزينة انتقاها نزار بتروٍّ يليق بالذكرى. حين سمعتُ الموسيقى المنتقاة عرفت بأنّ أمّي بالنسبة لنزار لم تمت وتلك الجثّة تعود لامرأة أخرى.

فكّرنا جميعًا برشيد الذي كان ممدّدًا على بطّانيّة قذرة في السجن العسكري. أعجبه حسّ اليقظة لديه، ألّف سيرة مختلفة لحياته، تراءت له الحياة شهيّة. فكّر بالعودة إلى حلب وتوزيع

مقطوعاته الموسيقيّة وتقديمها على أكبر مسارح العالم. حلم للحظة بالذهاب إلى باريس والعمل مع فرق كبرى مهتمّة بالموسيقى الشرقيّة عرضت عليه أكثر من مرّة الانضمام إليها لتجوب العالم، تقدّم ألحانًا صوفيّة وقصائد لابن الفارض. استرخى وعرف أنّ الأسئلة التي تنهشه هي الخطر الذي تحاشاه خلال السنوات الثلاث. فكّر بوجوده، بمصيره ككائن يوجد في المكان الخطأ بشكل دائم، بخوفه الذي جعله يرغب بثباتٍ قاده إلى العيش خائفًا من كلّ شيء، ومن جيرانه إخوة الرفيق فوّاز، الذين عاشوا أكثر من ثلاثين عامًا يهتفون للرئيس والحزب. استعاد شجاعته وشعر بنفسه قويًّا، واثقًا من العودة إلى أمكنته الأولى.

بدأ يفكّر في الحكاية التي ستنقذه من هذه الزنزانة التي تغصّ بأكثر من خمسين معتقلاً، أغلبهم ينظرون إليه باحتقار حين أدلى بمعلومات أنّه مسيحي سوري يعمل عازف كمان وقائد فرقة مطرب عراقي شهير ترك بغداد ليلة سقوطها متخلّيًا عنه.

في الليلة الأولى أكل بنهم ونام بعمق في استعداد لجولات التحقيق، تحاشى الحديث عن الجهاد مع رفاق زنزانته، الذين فاخروا بسرد قصص شجاعتهم، تمنّى الانضمام إليهم، تذكّر الأسئلة التي نهشته خلال أيّام المعسكر التدريبي العاجل حول معنى القتال والموت من أجل الإسلام، حول معنى الوطن والأمّة. الأسئلة ذات البدايات الحارقة كانت سبب استرخائه، وجلوسه بثقة على كرسي خشبي في غرفة فارغة أمام محقّق أميركي مرهق من توارد معلومات وقصص غريبة سمعها من مقاتلين صمّموا على أنّهم هنا كي يقاتلوا الصليبيّين الجدد، غير آبهين بحبال المشانق أو فرق

الإعدام التي تنتظرهم فجرًا.

بهدوء شديد تمسّك رشيد باسمه جان عبد المسيح وبعمله كموسيقي لفت الأنظار إليه. نظر إليه المحقّق وقدّر أنّ هذا الكائن الهزيل لا يمكن له أن يكون سوى موسيقي ومسيحي كما يدّعي. أعاد على أسماعه أسئلة مشتّتة عن المجموعات الإسلاميّة التي تسلّلت إلى العراق، أنكر رشيد معرفته بأيّ شيء. ثباته في أجوبته جعل حفلات تعذيبه خفيفة، لا تقارن برفاقه الذين كان يرميهم الجنود محمولين على بطّانيّات قذرة أو حمّالات إسعاف مغمى عليهم وجروحهم تنزّ دماءً وقيحًا يخنق المكان الذي ضاق بروّاده.

يغمض عينيه ويحتقر ذاته، يسمع أنين رفاقه ويفكّر بالخلاص. لم يعد يؤمن بأنّ الجنّة مكان رائع للعيش الأبدي، حاول إخفاء سيرته عن رفاقه، الذين كانوا يردّدون اسم مضر، الذي تحوّل إلى «أبي قتادة»، وظهر على شاشة تليفزيون عربي مهدّدًا الأميركان بحرق الأرض تحت أقدامهم إن لم ينسحبوا من العراق المسلم دون قيد أو شرط. يتبادل السجناء فيما بينهم الاتّهامات عن سبب وقوعهم في الأسر وعدم الاستماع لتعليمات قائدهم الأمير أبي قتادة الذي حذّرهم من الوثوق بالعراقيّين الذين سلّموهم للأميركان مقابل نقود قليلة.

انتهز فرصة لقائه مرّة أخرى بالمترجم الكردي، حدّثه بكلمات كرديّة ما زالت في ذاكرته حين كان طفلاً صغيرًا تتركه أمّه عند جاراتها الكرديّات لحين عودتها من المدرسة. ذكر بشكل عابر أسماء مطربين أكراد مشهورين، مردّدًا مقطعًا بالكرديّة من أغنية لمحمّد شيخو. نجح في إثارة اهتمام المترجم، الذي سأله في غفلة

من الحرّاس عن تفاصيل حياته في ميدان أكبس وعفرين وعن أبيه رئيس قسم صيانة القطارات الياس عبد المسيح مهندس الميكانيك خرّيج جامعة جنيف.

استعار كلّ شيء ليسرد حكاية انتبه إلى ضرورة جعلها مقنعة، بثغرات قليلة لا تثير الانتباه، وأثارت المحقّقين الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي ليتأكّدوا من تفاصيلها، لكثرة المعتقلين والضغط النفسي الذي يعيشون تحت تأثيره. يوميًّا يصل مئات المعتقلين، الذين اكتظّت بهم غرف مهاجع الثكنات التي تحوّلت إلى سجون عسكريّة عاجلة، تخبُّط في القرارات العسكريّة وقلق من مستنقع العراق الذي بدأ يتحوّل من نزهة عسكريّة إلى كابوس يعيد فيتنام إلى الذاكرة مرّة أخرى.

في الشهر الأوّل استرخى رشيد ولم يكرّر تفاصيل حكايته. بدأ يشعر أنّه ذلك المسيحي الذي غدر به المطرب العراقي الشهير حين غادر بمفرده، تاركًا بقيّة عازفيه يضيعون في شوارع العراق وسجونه. وطّد علاقته مع بهرم، المترجم الكردي الذي تخرّج في جامعة السليمانيّة قسم اللغة الإنجليزيّة ولم يجد أمامه سوى ارتداء القناع القماشي والعمل مترجمًا مرافقًا للمحقّقين والجنود الأميركان منتقمًا من البعثيّين.

علاقته مع بهرم وضابط التحقيق جون ميركافل أعطته امتيازات بسيطة، ساعات تنفّس أكثر، العمل على توزيع طعام السجناء، منتظرًا الإفراج عنه، الذي بات أمرًا مؤكّدًا بعد تراخيه وقبوله كتابة تقرير يومي عن سجناء آخرين. لم يضمّ معلومات جديدة بالنسبة للمحقّقين، إلّا أنّهم تأكّدوا من تعاونه، واتته الفرصة التي انتظرها

بعد سنة وثلاثة أشهر من سجنه، استدعاه جون وعرض عليه العزف مع فرقة جنود هواة يحضّرون للاحتفال بعيد الشكر.

أبدى براعة فائقة في قيادة الفرقة الموسيقيّة، استمع الجنود هواة العزف لتعليماته، نادوه بالمايسترو، اختار لهم أغنيات قديمة كان مولعًا بها لبوب مارلي ومقطوعات أخرى من تحف الجاز. أبدى براعة فائقة بعزفها على الترومبيت، لم يعد هناك أيّ شكّ ببراءته من تهمة الإرهاب حين طالبه الجنود والضبّاط المحتفلون بإعادة عزف أغنية ـ New... York New york و the way ـ، كانت أصابعه تنساب على الكمان كحرير مذهل. استعاد رشاقة أصابعه، شعر بأنّها فرصته الوحيدة للخروج من هذا الكابوس قبل ترحيله إلى سجن آخر.

في اليوم التالي كان جون يهنّئه ويعتذر له عن اعتقاله. أعادوا له الاثنين وثمانين دولارًا وساعته وملابسه. لم يغادر السجن قبل رؤية بهرم، الذي تأخّر حضوره إلى اليوم التالي، سمح له جون بالنوم ليلته الأخيرة في مكتب مجاور على سرير عسكري، متفهّمًا رغبته بتوديع صديقه بهرم، الذي هنّأه بالإفراج عنه وفكّر لدقائق قبل أن يقدّم إليه الخدمة التي طلبها، تأمين سفره إلى السليمانيّة، فهي المكان الوحيد الآمن، ويعرف فيها شخصًا عزف معه منذ خمس سنوات في حفل مشترك لعازفين عراقيّين وسوريّين، استضافته كنيسة السريان في حلب بقيادة نزار، الذي جمع مع رشيد الكثير من المقطوعات السريانيّة والكرديّة القديمة المندثرة حين كان رشيد في التاسعة عشرة من عمره ويطمح لتأسيس فرقته الموسيقيّة، التي حلم بها ذات يوم تجوب العالم وتقدّم كنوزًا تفتّحت لهما في منازل

القامشلي والرقّة والحسكة وقراها. عاش نزار ورشيد كرحّالتَين وموسيقيَّين متجوّلين لمدّة أربعة أشهر متواصلة في ضيافة موسيقيّين أكراد، يقودهم موسيقي بعثي يقيم في عامودا، يكره البروفات ويرتجل مقطوعات موسيقيّة صوفيّة ورثها عن عائلته.

في الليلة الأخيرة له في السجن العسكري تذكّر رشيد صديق خاله نزار العازف الكردي كاميران صوفي، الذي كان يخاف الجموع، واعتاد نزار فوضاه، ولم يعد يكترث لغيابه عن المواعيد. كان هدفًا لحكايات كثيرة يتندّر بها أصدقاؤه عن انسلاله مرّات عديدة من الأبواب الخلفيّة لصالات مكتظّة بالجمهور ينتظر صعوده إلى المسرح، عندما كان ينظر برعب إلى الجموع وينسلّ بخفّة من الأبواب الخلفيّة تاركًا المنظّمين في حيرة من أمرهم.

أوصله بهرم بحماية دوريّة أميركيّة إلى سيّارة شيفروليه متوقّفة في ساحة الفردوس يحميها جنود بشمركة تنقل أربعة سياسيين أكراد شباب قدّموا له الشاي في الاستراحات، وتابعوا حديثهم الصاخب بكرديّة لم يعد يعني رشيد فهمُها. بعد وصولهم إلى السليمانيّة فوجئوا به يطلب منهم البحث عن موسيقي كردي يُدعى جوان خليل، عرفه أحدهم واصطحبه إلى منزله. فوجئ جوان بهذا الشابّ المتعب من السفر، النحيل والغريب الطباع، تذكّر بأنّه عزف ذات يوم منذ خمس سنوات مع موسيقيّين أكرموا ضيافته في مدينتهم حلب. استعاد الصور التي كانت في ألبومه، الذي تعرّف فيه رشيد إلى صورته واقفًا قرب نزار الأنيق.

استمع جوان إلى حكاية جديدة ألّفها رشيد عن مطرب عراقي مقيم في الخليج اصطحبه للعزف في حفل ابنة مسؤول كبير قبل

الحرب بأسابيع، واحتجازه في بغداد من مسؤولين أمنيين للتحقيق معه بعد هرب المطرب العراقي. طلب مباشرة من جوان تأمين وصوله إلى سوريا، وتدبير أمر جواز سفره، الذي قال رشيد بأنّ المطرب الهارب صادره.

أخفى رشيد سيرة قتاله في معركة المطار. نام ليلته الأولى في السليمانيّة في منزل الموسيقي الكردي، الذي لم يجد مفرًّا من ترتيب أمر سفره بعد أسبوعين مع فرقة موسيقيّة ستغادر للعزف في ڤيينّا عن طريق مطار دمشق. تحدّث مع مسؤولين يثقون به في الحزب الديموقراطي الكردستاني، أضيف اسمه إلى قائمة المغادرين كعازف أساسي، زوّدوه بجواز سفر مزوّر لا يبرزه إلّا إذا فشلت عمليّة تهريبه عبر الحدود. لم يصدّق رشيد أنّها تمّت بهذه السهولة، دخل إلى مطعم لحم بعجين في القامشلي قرب جامع قاسملو، طلب من صاحب المطعم موبايله الذي لم يتردّد لحظة واحدة بتقديمه لزبون كريم دفع ضعف حسابه بأريحيّة. طلب رقم نزار الوحيد الذي يحفظه غيبًا، لم يصدّق نزار حين سمع صوته، بكى بحرقة قبل تمالك أعصابه وتدبّر أمر سفره بسيّارة خاصّة فخمة أقلّته وحيدًا إلى حلب.

لم نصدّق أنّ الواقف في الباب هو رشيد، تساءلنا ماذا يحصل لنا حين نغادر أمكنتنا. ذكّرني وجهه النحيل بوجه سوسن يوم عادت من سفرها مثقلة بالهموم ووجهها أصفر من شدّة الجوع، ارتمينا عليه وبكينا. لم تصدّق سوسن نهاية أرقها، تحسّست جسمه لتطمئنّ إلى أنّ ذلك الشابّ الناحل هو أخوها الحبيب رشيد، أحسسنا به نادمًا على كلّ شيء، لم يستطع احتضاننا كما يليق بأشواقه، تلاشت

الصور التي استعادها في طريقه من القامشلي إلى حلب. تمنّى بقاءه في العراق مجاهدًا في جيش أبي قتادة. ظنّ للوهلة الأولى أنّ التعب هو سبب الصور المختلطة من جديد في ذاكرته، لم يجبنا عن أيّ سؤال، طلب الانفراد بأمّي، وبهدوء أخبرناه أنّها ماتت.

تذكّر قبل مغادرته إلى بغداد جلوسه الأخير على طرف سريرها، نظر إلى وجهها الغارق في غيبوبته، خنقته رائحة الفراش والعفونة المنبعثة من علب الدواء وجسدها، لاحظ قضبانًا حديديّة أضيفت إلى النافذة، التي أغلقت برتاجات قويّة، أمسك بيدها وقبّلها، فتحت عينيها وحذّرته من تصديق موت الرئيس، أضافت أنّ في هذا التصديق هلاكًا كبيرًا، خاطبته باسم أبيه وعادت إلى صمتها وتأمُّل زاوية غير مرئيّة، قضى وقتًا طويلاً حتى منتصف الليل، تأكّد أنّها المرّة الأخيرة التي سيراها فيها.

دخل إلى غرفتها، التي لم يبق منها إلّا بقايا ننتظر رميها في الزبالة. بكى بحرقة وسمعنا نشيجه الذي لم يحتمله نزار. حاول الدخول إلى الغرفة لإخراجه. وجد الباب مقفلاً من الداخل ولم يستجب لرجائه بالخروج لتناول العشاء. سمع شبح صوت أمّه ينهره لتأخّره ثلاثين عامًا عن العودة إلى سريرها، رأى طيف ابتسامة خفيفة، سمعها تدندن أغنية ريفيّة كان يردّدها أطفال ميدان أكبس حين يخرجون من المدرسة. تمنّى محادثتها للمرّة الأخيرة قبل رحيلها، سؤالها عن أحوالها التي لم تكن تحتاج إلى سؤال، جسدها المتقرّح وجلدها المبقّع يشي بأحوالها، بدت له امرأة مهجورة على قارعة طريق ينتظر جميع المارّة موتها، وها هي تحقّق أمنيتهم.

خرج رشيد من غرفة أمّي منتصف الليل. فوجئ بنا ننتظره، نزار ممدّدًا على الصوفا، سوسن تعمل على ترجمة نصّ عن أهمِّيّة الإنترنت في السنوات المقبلة. حاولت إخباره عن قلقنا وخوفنا ونوبات جنون سوسن حين كانت تتذكّره كلّ صباح ومساء، تذهب إلى منازل المجاهدين العائدين من العراق للسؤال عنه مع أمّهات مكلومات، لم يتأخّرن عن قرع باب منزلنا والتوافد إليه بعد صلاة الفجر. جلس رشيد في الصالون لا يملك أيّة أجوبة عن أسئلة نساء وتوسّلهنّ أيّة أخبار، فوجئن بقوله إنّه ترك أولادهنّ ورفاقه قبل الدخول إلى بغداد. كذّبته امرأة حين ذكّرت سوسن بناجي المالكي، صديقه الذي أخبر سوسن أنّ أخاها بقي مع مقاتلين قلائل لم ينهزموا في معركة المطار مُقْسِمين على القرآن أن ينتصروا أو يستشهدوا. حملت حقيبتها ومضت مستغربة كذبه.

صورته كمقاتل ومجاهد شجاع أصبحت رمزًا أثقل كاهله. فوجئ قبل صلاة الظهر بالشيخ أبي بكر يقرع الباب ويكتفي بمصافحته، طالبًا الانفراد به لدقائق، قال له بوجوب التوبة، لارتداده إلى المسيحيّة، تاركًا أمر التقارير التي كتبها برفاقه المجاهدين المعتقلين لأمر جماعاتهم. كانت نظرة الشيخ إلى وجهه الحليق تحمل اتّهامًا وكراهية تخنقه. ببرود أخبره رشيد عن كذب كلّ المعلومات التي وصلته، أردف بأنّه قاتل كما لم يقاتل أحد ولا يحتاج إلى دليل لإثبات بطولته، وأكمل متّهمًا الشيخ ببيعه ورفاقه إلى المخابرات السوريّة والعراقيّة، التي تعاطت معهم كسقط متاع يجب أن يموتوا.

فاجأت الشيخ لهجة رشيد الباردة، الذي أضاف بأنّه يفكّر فعلاً

في الارتداد عن الإسلام، ورفاقه سيحاسبون الشيخ حتى لو بعد وقت طويل على خيانته لهم. تمالك الشيخ أعصابه ثم ضحك ساخرًا منه، مستأذنًا بالرحيل متأسّفًا على الفرصة التي منحه إيّاها قبل إباحة دمه. خرج بهدوء رافضًا مصافحة نزار الذي نظر إليه بسخرية. بصق نزار بقوّة على الباب وطلب من رشيد الذهاب للعيش في منزله للهرب من أمّهات المجاهدين اللواتي لم ينقطعن طوال أيّام عن قرع باب منزلنا.

قبل عودة رشيد، قلت لسوسن: ليلة موت أمّي كانت الليلة الأطول في حياتي. سوسن لم تجبني، تصرّفت كسيّدة منزل موحش، تريد هزم صورة أمّي الأخيرة. بقيت غرفة أمّي مغلقة، لم تنفع محاولات نزار في إقناع سوسن بالعيش معه.

تشبّثت بالمكان، نقضي أنا وسوسن وقتنا في البحث عن أفلام ومسلسلات عربيّة، نتسمَّر أمام التليفزيون لوقت طويل، صورة ثابتة غريبة، نتحاشى الحديث عن الموتى. ظلال وجه رشيد الغائب وأمّي الميتة يقفان ويباعدان المسافات بيننا. أطيل المكوث خارج المنزل، أتسكّع وحيدًا هاربًا من حضور سوسن، الذي أحسسته لأوّل مرّة في حياتي ثقيلاً لا يليق بخفّة الفراشة التي كانتها. تنتابني هواجس خوف، ذهاب رشيد إلى بغداد أطلق رصاصة الرحمة على حياتنا، لم نعد نستطع العيش، جميعنا تحاشينا اللقاء، ونزار لم يعد متحمّسًا لأيّ شيء، لا يطبخ، لا يعزف، لا يستمع إلى الموسيقى ولا يعتني بنا.

قبل موت أمّي، في الليالي الممطرة كنّا نجلس نحن الثلاثة في غرفنا ونبكي بقوّة، أمّي يتعالى سعالها بين الحين والآخر، تئنّ

كحصان هرم جلده مبقّع بالفطريّات. فكّرت بكلّ السنوات التي عشناها دون أن نتحسّس قلق رشيد، كنّا نظنّ كلّ ما يحدث أمرًا عاديًا، لم يعد يحتمل أيّ شيء، يتحدّث عن خوفه الذي عاشه طوال حياته، عن إحساسه بالذلّ وهو يضطرّ لعزف أغنيات شعبيّة لمجموعة سكارى. سرقت المدينة أحلامه.

كاد يشعر بالاختناق بعد انتهاء أربعين الرئيس وتنصيب ابنه رئيسًا جديدًا، فكّر بأنّه سيقضي حياته خائفًا ويائسًا، تحسّست ندمه الفظيع لعودته من العراق. هناك كان لديه فرصة ليكون شجاعًا، يحارب ويقتل من أجل قضيّة لا يؤمن بها لكنّها تمنحه إحساس الانتماء إلى مجموعة لا تخاف. قال لي إنّه لن يصبر حتى يرى حفيد الرئيس الراحل يحكمنا، لن يستطيع احتمال إجباره على مجاملة سكارى يخطر في بالهم آخر الليل وفجأة استعراض ولائهم للرئيس الميت.

الرئيس الميت حاضر في كلّ تفاصيل حياتنا ولا يمكن الاستمرار بالعيش إلى الأبد في هذا التوازي. ندم رشيد لعودته من بغداد. مرارًا تخيّل نفسه رئيس عصابة تخطف الناس وتساوم عائلاتهم على حياتهم، حاول مرّة أخرى استعادة لحظات جلوسه في مقهى كراج الانطلاق وكتابة نوط جديدة، يده تخشّبت ولم يستطع إكمال مقطوعة واحدة أراد فيها تمجيد رفاقه في معركة المطار. الجمل الخفيفة التي كتبها جعلته يتأكّد أنّه لم يعد يستطيع التفكير بجوقة الكمنجات التي كانت تغزو مخيّلته. لم يتشكّك من إحساسه بالعجز، استعاد تجارب قديمة عاشها منذ سنوات بعيدة مع راقصات الكباريه اللواتي كان يرافقهنّ آخر الليل إلى منازلهنّ،

يمارس الجنس ويهرب من الحبّ، لم تستهوه النساء بعد عدّة تجارب وصفها بالمقرفة. سألَنا جميعًا ذات صباح: هل أحد فينا يفكّر في عائلة؟ خفت أن أقول بأنّه كثيرًا ما يخطر في بالي أنّني متزوّج ولديّ خمسة أطفال أقضي وقتي في اللعب معهم. قضينا شتاء عام ٢٠٠٥ نتحاشى الحديث عن المستقبل.

في استفتاء الرئاسة الجديد عام ٢٠٠٠، عادت إلى حياتنا الصور نفسها. خرج الحزبيّون مستعيدين سيرة عمرها أكثر من ثلاثين عامًا، نشروا الذلّ نفسه في كلّ مكان من البلاد، أطبّاء ومحامون وصحافيّون وتجّار ونوّاب وطلّاب جامعات ومدارس يجري إجبارهم جميعًا على الرقص في دبكات وسط زعيق مكبّرات صوت رديئة، تصنع صورة جديدة للديكتاتور، تستعيد صورة عرفها السوريّون وتحاشوا النظر إليها، تاركين لحياتهم الموازية المضيّ إلى ما شاء الله لتوازيَها أن يمضي.

فكّر في صورة الديكتاتور، نهشته ذكرى بغداد من جديد، لم يعد يحتمل العيش ببساطة. كان نزار الوحيد الذي يعرف بأنّ رشيد لن يقوى على العيش. كان متأكّدًا في الشهور الأخيرة بأنّه لم يعد تعنيه الحياة ليرى عار شعب بأكمله ينمو ببطء، كقطار البضائع الذي مات جدّه تحت عجلاته. يتلمّس العنف في شوارع حارتنا، بدت له صورة حقيقيّة عن البلاد، فوضى وزعيق أصوات مسجّلات تبثّ طوال الليل أغاني ريفيّة، رجال يتجسّسون على النساء، قتلة يختفون في زواريبها، يدفعون رشاوي لدوريّات الشرطة المرتزقة ليغضّوا نظرهم عن اعتقالهم، جنود متقاعدون يبحثون عن عمل كخدم في المطاعم، وأبناء فلّاحين يحلمون بالتطوّع في جهاز

المخابرات. كانت صورة الحارة شاهدًا على دمار أحلام أمّي وصورة تنمو في طول البلاد وعرضها. يتحدّث رشيد عن شعوره كقاتل. قال كلمات قليلة عن الغثيان الذي استبدّ به حين كان يقاتل، اكتشف الجبن الذي يعشّش داخله، تحدّث عن لذّة محاولة مقاومة ذلك الجبن، يقول لنزار إنّه كاد أن يتغلّب عليه ليحلّ مكانه شعور القاتل.

الجميع من حولي فكّروا بصور القوّة التي تودي بالكائن إلى متاهة الغرق في وهمها. فكّرتُ بأنّني ـ عكس الجميع ـ أحبّ هشاشتي. راقبت ضعفي ينمو ويجعل منّي كائنًا صامتًا خائفًا دون أمل، أنام على السرير نفسه منذ ثلاثين عامًا، أدخل إلى مكتب الدعاية في شركة النسيج وأطيل المكوث، أترجم نشرات تافهة وأقضي وقتي في مراقبة العاملات بخوف. أصبحتُ حمامة مذعورة، لا أفكّر ولا أحلم. متعتي الوحيدة الجلوس في مقهى المنتدى المطلّ على ساحة سعد الله الجابري، أقرأ جرائد قديمة وألاعب أصدقائي موظّفي شركة النسيج الشطرنج، أخسر كي يبتهجوا بانتصارهم عليّ، ينمو لديّ شعور لذّة الهزيمة، أتحاشى الاستماع إلى الغاضبين الذين تتصاعد حالتهم. تبدأ علامات الشرود والهستيريا بالظهور على وجوه بعض مدمني المقهى، يشتمون السلطة ويفقدون أعصابهم، بعد فترة يكيلون الشتائم للرئيس وعائلته ثم يختفون ويذوبون كحبّة ملح، لا رغبة، ولا أحلام، لا مستقبل ولا ماضي، هذه أقانيم السعادة التي آمنت بها. أقنعت نفسي بأنّ العيش في الحاضر ينقذ إنسانًا مثلي دون أمل. أخاف تدمير عالمي لأصبح عندها شبيهًا بذلك الشابّ اللطيف في

مكتب المحاسبة الذي لم أعرف اسمه، حين أقبض راتبي أتبادل معه تحيّات الصباح، لا يرفع نظره عن البيانات، يعمل بجدّ وصمت. رأيته يحاول الرقص في حفلات مبايعة الرئيس، يجاهد كي يفعل لكنّه لا يستطيع. يشبهني في عدم قدرتي على الصراخ، يصمّ أذنيه عن تفاهة موظّفين يتسابقون في إظهار ولاء أكبر وتبجيل الرئيس أمام المخبرين، قال لي دون خوف بأنّهم يثيرون قرفه، مضيفًا: يعيشون حياة كلاب ويقبّلون الحذاء بكلّ رضا. حين افتقدته أخبرني زميله في المكتب أنّه قتل زوجته وابنيه وقتل نفسه، أضاف: اكتشف أنّ زوجته عاهرة والولدين ليسا من صلبه، لكنّني اعتقدت عكس ذلك: أنّه لم يعد يحتمل حياته وصمته وعاره، التي اكتملت صورتها لدى جان فألّف كتابًا صغيرًا «عن العار ومشتقّاته في الحياة السوريّة».

في عيد ميلاد سوسن الأربعين اجتمعنا في غرفة أمّي بناءً على رغبة رشيد، الذي اكتفى بصحون بطاطا مقليّة وتبّولة أعدّتها سوسن بأريحيّة. احتفلنا بهدوء دون ضجيج، كان رشيد يريد سؤال أمّي الغائبة لماذا ولدتنا، كان يريد تأنيبها على فعلة حمقاء لم تدفع ثمنها. اكتشفتُ الوجه القاسي في رشيد، الذي بدا واضحًا في أيّامه الأخيرة، لم يعد يصلّي أو يذهب إلى الجامع، قطع علاقاته مع الفرق الدينيّة، التي رجاه متعهّدوها العودة إلى العمل بعد الطلب الكبير من عائلات عريقة استبدلت قدود حلب العريقة بموالد دينيّة ينشدها مجموعة منشدين ثيابهم البيضاء تفوح برائحة ماء زهر يثير الغثيان، ويصف تلك الموسيقى بالمسروقة من أغانٍ تافهة، مضيفًا: كيف يسرق المؤمنون من أغاني الكفّار بدم بارد؟

الشيء الوحيد المهمّ هو اكتشافنا بأنّنا أصبحنا معطوبين، نهرب جميعًا من أيّ اجتماع عائلي. ليلتها كانت عينا سوسن تبرقان بقوّة، نهضت بعد ساعة وأطفأت الشموع، قطعت التورتة التي أحضرها نزار من أفضل محلّات حلب. فجأة تركت السكّين من يدها ودخلت إلى غرفتها. تركتنا نستمع إلى حديث رشيد مع نزار الذي يثرثر ويصمت فجأة، تتداخل الجمل التي تخبرنا عن طفولتنا. شعرت بالضيق ودخلت غرفتي، لا أحبّ الطريقة التي يروي فيها نزار قصص طفولتي، التي بقيت أعتبرها الزمن الوحيد السعيد الذي عشته، رغم تذكير الجميع الدائم بشؤم ميلادي يومَ انقلاب الحزب. رغبت مرارًا في نسيان ذلك الموعد لكنّ كلّ شيء يذكّرك به. قبل الدخول إلى غرفتي رأيت سوسن ترتدي فستانًا قصيرًا رائعًا، جسمها ما زال جميلاً، حملت حقيبتها وخرجت دون أن تستأذن أحدًا.

قرعت باب منزل جان الذي لم يكن ينتظرها هذا اليوم، طلبت منه دعوتها إلى عشاء في مطعم فاخر، والاحتفال بما يليق بعيد ميلادها. ارتبك جان وشعر بدعوة خفيّة من سوسن إلى حماقة لم يعد مستعدًّا لها. شربا نبيذًا فاخرًا في مطعم وانيس، طلبت منه إخبارها عن نساء مررن في حياته، فوجئت بخجله الذي ذكّرها بصورته البريئة الأولى. للحظات استعاد جان حنينه إلى تلك الأيّام. مدّ يده وأمسك بكفّ سوسن من تحت الطاولة، كان الاثنان مصدومَيْن من حقيقة أنّها المرّة الأولى التي يمسك فيها جان كفّ سوسن.

في الليل تمدّدت قربه على السرير، أخبرته ببساطة أنّها تريد ولدًا، وأضافت أنّها إذا حبلت فلن تفرّط بالجنين. فكّر جان بأنّ

الحماقة ضيّعت سعادته قرابة ربع قرن، استعادت كلّ ما تبقّى لها من ذكريات وأحلام وشبق وأفلحت بإشعال رغبة جان. مارسا الجنس كحبيبين افتقدا بعضهما سنوات طويلة، قويًّا كان جان وشبقة كانت سوسن، بحنان احتضنته وغفى كطفل صغير بين ذراعيها.

تكرار لقاءاتهما أشعل الرغبة في جسد جان، ورغبته في الحبّ عادت إليه كاملة، دافقة وقويّة. عادت سوسن تلك المرأة التي تمنح لذّة قاتلة لرجل انتظرها كلّ هذه السنوات، اقتنع في النهاية بخطئه حين ظنّ أنّ الماضي مات. لم يناقشا ما قالته سوسن في ليلتهما الأولى، كان لا يأخذ حماقاتها على محمل الجدّ. لم يعد يستطيع العيش مع أحد سوى أمّه. أدمن قراءة قصص أطفال فرنسيّة تناسب لغتها التي تطوّرت في السنوات الأخيرة، بقي ذهنها صافيًا رغم سنواتها التسعين. نقلت سوسن بعض ثيابها إلى منزله، قضت معه الشتاء كاملاً وبالغت في العناية بأمّه، فتحت النوافذ، غسلت الشراشف والبرادي، أصلحت قوائم الطاولة والكراسي، كوت قمصان جان، رتّبت أوراقه وحاولت قدر الإمكان التخفيف من رائحة المنزل القديمة. لم يعترض جان، لكنّه فكّر بأنّه غير معجب بالنوافذ المفتوحة طوال الصباح لطرد رائحة اعتادها سنوات طويلة. لن يستطيع إكمال بقيّة حياته معها، لكنّه استسلم موقنًا بأنّها ستتركه بعد شهور قليلة بعد تراجع رغبته الجنسيّة.

تترك سوسن منزل جان لأيّام، تجلس مسترخية في غرفتها، تقاسمني ألبوم أمّي الميتة، تتفقّد الصور بحياديّة لا تخفي موقفها من صور أمّي التي بدت سوسن تشبهها أكثر من أيّ وقت مضى. لم

يكن ينقصها سوى طقم أمّي الكحلي لتعود إلينا صورة المربّية الصارمة. سوسن لا تترك فرصة لا تنتقم فيها من شبهها، تنظر إلى صور أمّي المرتّبة بعناية في ألبومها الفاخر وتفعل عكسها، وفي محاولة هروب دائمة من هذا الشبه قصّت شعرها قصيرًا، كالصبيان تمامًا، وضعت في أذنيها حلقًا كبيرًا مدوّرًا ما زالت تحتفظ به مع قليل من إكسسوارات اشترتها ذات يوم من رجل إفريقي صمّم على قراءة حظّها مجّانًا حين كانت تعبر شوارع آرل في رحلة نادرة مع منذر، أخبرها أنّها ستعيش حياة رائعة، ضغطت على كفّ منذر بأمل وقبّلته في شفتيه. اشترت الكثير من الإكسسوار، لتجد مبرّرًا لدفع نقود لرجل رفض تقاضي مال ومنحها أمل العيش سعيدة رغم كلّ المحن التي ستمرّ فيها. اشترت أساور جلد، خواتم فضّة وأقواس شعر، مجموعة أحلاق بأشكال غريبة، وجدت ما تبقّى من هذه الإكسسوارت تفيدها في الهرب من شبهها بأمّي.

اعتبر جان شعرها القصير مثيرًا جدًّا، أثاره في الليلة الأولى، ابتهج بقضيبه منتصبًا والدماء تملؤ عروقه. أسابيع قليلة عادت إليه البرودة رغم غبطة سوسن بالنوم في حضنه: لم يمتلك جان القوّة لمصارحة سوسن أنّها أصبحت بالنسبة إليه كائنًا طفيليًّا لا يعنيه، يصبّ عليها جامّ غضبه لتحريكها قطع الأثاث من مكانها بعد أن حافظت على موقعها نفسه خمسين عامًا. يهرب من المنزل ولا يعود إلّا آخر الليل كي لا يراها مستيقظة. أصبح يعرف بأنّها أجبرت نفسها على الاستيقاظ مبكرًا لتحضّر إفطار أمّه، تذهب إلى مكتب الترجمة القريب، تأتي ببعض المراسلات وتقضي وقتها بالعمل على إنجازها حتى المساء. فهمت كلّ شيء، بدأت تطيل

غيابها محاولة إنقاذ علاقتهما، تريد أن يشتاق إليها، لكنّه لم يفعل. اعترفت بأنّها لا تحبّ صورته الجديدة ولم تعد تشتاق إليه.

في نهاية الشتاء عام ٢٠٠٥ أطالت غيابها أكثر من شهرين دفعة واحدة، لم يتّصل بها، وهي لم تفعل، اكتفت بمرور عابر ولوقت قصير أثناء خروجه لمشوار المساء، تفقّدت أحوال أمّه، التي فكّرت بالزمن وبهذه الفتاة التي تبحث عن الشيء الذي اختلف بعد مرور كلّ هذه السنوات، وفي لحظة صحو وهي تفكّر فيها قالت لنفسها: صوتها قد هرم، لا بدّ أنّها كبرت رغم حركتها وأصوات تأوّهاتها المنبعثة من غرفة نوم جان.

بعد غياب شهرين، طلبت سوسن من جان انتظارها، فتحت الباب بمفتاحها، وضعته على طاولة السفرة التي أعادها جان إلى مكانها في زاوية الصالون الواسع، جلست وببرود أخبرته أنّها حامل في شهرها الثاني. صمتت وظلال المساء التي تخيّم على الأثاث القديم تشعر جان بأنّه لم يختر شيئًا في حياته، حتى اللغة الفرنسيّة لم يخترها، لم يختر زوجته كوليت، هي التي اختارته ولا يعرف حتى الآن لماذا وافق على زواجهما، لم تكن المرأة التي تثيره أو يحبّ الخروج معها إلى السينما والذهاب إلى حفلات الريسبشن التي لا تنتهي في جنيف. كان يحبّ صديقتها جينا زوجة موظّف برازيلي كبير في الأمم المتّحدة، كانت تعتني به، تشعره أنّه رجل مفضّل لديها، تقترب منه وتقبّله، تفتح زرّ قميصه وتهمس له عطرك رائع ومثير يا جان، تتركه مع كوليت وتمضي لتوزيع مجاملاتها المثيرة على رجال كثيرين ينتظرون كرمها. كانت صديقة حميمة تخبره عن حياتها التعيسة مع راؤول زوجها المغرم

بـ «الشراميط»، تتشكّى من خيانته لها مع الخادمة التي اصطحبتها من البرازيل، وتسهب في شرح تعاستها لصديق حميم.

ليالٍ طويلة حلم فيها جان بتعرية جينا وتقبيل جسدها الأسمر. الآن يتذكّر، كان يحلم كثيرًا بشمّ أحذيتها المنتقاة بعناية، عادت إليه صور جينا. فوجئ أنّه لم يعد يتذكّر الكثير من التفاصيل، أصيب بالنسيان، بقيت صورة وحيدة، حين كان الثلاثة يتناولون عشاءهم في مطعم أفغاني وتجرّأ للمرّة الأولى أن يمدّ يده إلى فخذ جينا الأسمر الشهي، في منتصف الطريق استعاد هدوءه وبدأ العرق يغرق رقبته، لم ينتبه إلى كوليت التي قامت برقّة بمسح عرقه واصطحبته في سيّارتها إلى منزله، سألته إن كان يحتاج أيّة مساعدة، شكرها وفوجئ بها تقبّله في فمه قبلة طويلة وتنظر إليه مبتسمة، مضيفة قبلة قد تشفيك.

لم يختر شيئًا في حياته، ندم أنّه فقط حلم بجينا. كانت لن ترفض رغبته في تقبيل كندرتها ذات الشرائط الحمراء. أخبرت الجميع في إحدى الحفلات أنّها فصّلتها عند حذّاء سويسري بعد رؤية ممثّلة ترتديها في أحد أفلام البورنو. أضافت وسط ضحك الجميع وتصفيقهم بأنّها تتماهى مع بطلات أفلام البورنو، لن ترفض فعلاً مثيرًا كهذا من رجل طالما أخبرته أنّ قمصانه التي يرتديها وعطره المتبدّل يثيرها. ندم بعد انفجار فضائحها وقصص عشقها وادّعاء نصف موظّفي الأمم المتّحدة أنّهم كانوا أهدافًا لشبقها. في النهاية هربت جينا مع شابّ عراقي يعمل سائقًا في الأمم المتّحدة إلى الولايات المتّحدة، كانت كوليت تخبره أنّه يضربها ويدميها قبل أن يمارس الجنس معها، لكنّها تحبّه رغم كلّ شيء.

استرخى وفكّر قبل النطق بقراره. تأكّد بأنّ قراره الأوّل والرائع في حياته كان حين قرّر بلحظة شجاعة عدم ترديد نشيد الحزب وفُصل من التدريس، والقرار الثاني اختياره الاضطجاع في السرير قرب نساء ساقطات يكتفين بنقود لا تعني شيئًا لجان. امتلك الشجاعة للمرّة الثالثة في حياته وأخبر سوسن بأنّه لن يتزوّجها وأمر الجنين لا يعنيه، طالبًا منها بكلمات قليلة عدم تحريك أثاث المنزل من مكانه. أخبرها بأنّ تغيير الأثاث لا يعجبه، مضيفًا بعد الاعتذار أنّه يستطيع دفع نقود العمليّة إذا رغبت بالإجهاض.

لم تفكّر للحظة بترك جنينها ينسلّ إلى مجاري عيادة سرّيّة، شعرت براحة أنّ جان لا يريده. لم تحاول إقناعه أو حتى مجرّد نقاشه، تعرف بأنّها لن تستطيع احتمال تدخّل أحد في حياة جنينها. أعجبتها صورتها الجديدة التي كانت مختبئة في ظلال صورة قديمة. فكّرت بأنّ جان ليس سيّئًا إلى الدرجة التي كانت تظنّها، رغم أنّه يفتقر إلى الجدّيّة في مباشرة فعل الجنس ومضحكًا، الضحك يفسد الجنس كما تفسده الرخاوة.

قرعت باب نزار، فتح لها رشيد الباب، أخبرها أنّ نزار سافر مع ميشيل إلى كسب وسيعود بعد أيّام قليلة. كادت تخبر رشيد بكلّ شيء، لكنّها صمتت واكتفت بالقهوة الباردة التي قدّمها إليها منصرفًا إلى قراءة تحقيقات صحفيّة في جريدة الغارديان الإنجليزيّة عن المقاتلين العرب في حرب العراق.

لم ينتبه رشيد إلى سوسن حين غادرت المنزل، فكّر بأنّ موت أمّي جعل لقاءنا شبه مستحيل. لم تضيّع وقتها في البحث عن أب لجنينها. خابرت نزار، الذي انتظرها في ساحة كسب مع ميشيل،

الذي بدا لها رجلاً عجوزًا، تلمّس قلقها ورجاها التعامل مع ميشيل ككائن أثيري غير موجود. تردّدت حين رأت سعادة نزار المحتفل بصديق عمره، لكن نزار كما هي عادته يقرأ أفكارنا، صبّ لها كأس نبيذ واصطحبها إلى غرفتها، جلست مقابله وصدم حين قالت له بهدوء أريد أبًا لجنيني.

حلم بأنّه أبو ذلك الجنين، حاول إخفاء الأمر عن ميشيل الذي شكا له الهجر. أخبره أنّه يشعر بالغربة في كلّ مكان خلال الأشهر الماضية التي قضياها في حلب، أضاف ميشيل برجاء أنّهما إذا أرادا العيش معًا فيجب أن يفكّرا بمنزل في جبال كسب. تحدّث ميشيل بأسى عن حلب، وعائلته التي دفعت أموالاً طائلة لتزوير شهادة وفاته. أضاف للمرّة العاشرة أنّه الآن متوفًّى، وأنّ الذي يتمدّد قربه على السرير هو ميشيل كرازييه وليس ميشيل الحايك. هزّ نزار برأسه وقال ببرود: نعم يجب التفكير بهجر حلب، الجبال تليق بشيخوخة مثالية، هنا نزرع خضارنا ونربّي ماعزًا ونصنع أجباننا، نستمع إلى الموسيقى التي نحبّ بصوت عال ونسبح في الشتاء. أوغلا في الحلم أكثر، تخيّلا أنهما قد أسّسا مكانًا يستقبلان فيه رفاقهما من كلّ أنحاء العالم ويناضلان من أجل حقوق المثليين.

ثلاثة أيّام قضتها سوسن معهما، استمعت إلى أحلامهما، رأتهما يحتضنان بعضهما بحنان في السرير، يعيشان دون رغبات، يتناولان إفطارهما ويسيران لمدّة ساعة في جبال كسب، يصلان إلى البحر، يسبحان بهدوء ويتبادلان القبلات خلسة، يعودان بأسماك يتركها لهما صيّادان على الشاطئ. تراقب تغيّرات جسدها وتحاول تحسّس جنينها. راقبت نزار الذي لم يعد للحديث بالأمر، خافت

أن يتخلّى عنها هذه المرّة ويتركها لمصيرها. لم تعد تستطيع المقاومة، شعرت بأنّها امرأة ضعيفة أكثر من أيّ زمن مضى، دون مستقبل، دون معجبين وعشّاق، دون عائلة، مجرّد امرأة تبحث عن أب لجنين ما زال في مرحلة النطفة ولم يتكوّن بعد ككائن له حقّ في هواء هذه الجبال.

رتّب نزار الأمور بذكاء، فكّر بأنّه لم يعد يطيق العيش في مدينة يتجوّل فيها القتلة، رجال بلحى طويلة ومكلابيّات قصيرة، يحملون السكاكين تحت آباطهم، وفي الطرف الآخر عناصر مخابرات تتجسّس على البشر وتساومهم على رزقهم في عمليّة نهب منظّم. ما تبقّى له يستطيع نقله إلى هذا المكان الساحر، الذي كان يزوره بشكل دائم وقضى فيه أكثر من عشر سنوات، لو جمع أيّام زياراته والعطل التي قضاها في منزل صديقته منى الشاذلي، التي أعطته مفتاح منزلها يوم اشترته وخصّصت له غرفة نوم مطلّة على الوادي متقصِّدة، كي يستطيع العواءُ فيها مع عشّاقه. طلب من صديقته مدام وشمة البيلوني بيعه جزءًا من أرض اشترتها منذ سنوات، حالمة ببناء منزل ريفي يليق بمزاجها الذي تحدّثت مرارًا عنه في سهرات خميس نزار، قالت إنّها تريد منزلاً ريفيًّا مبنيًّا بموادّ طبيعيّة دون موادّ كيميائيّة، وغرفة جاكوزي من زجاج تتعرّى فيها وتستطيع رؤية السماء الصافية صيفًا والمطر شتاءً. كانت تحتاج إلى عرض نزار لتنهي سنوات كسلها بإنجاز مشروع عمرها. رحّبت بمقاسمة نزار الدونمات الستّة المطلّة على بحر قرية السمرة. بدأ الاثنان يتحدّثان بحماس عن مشروعهما مع رفيق لهما معماري عبقري يحلم بمكان بعيد يكتب فيه تاريخ حلب بعدّة أجزاء، كان

يريد الانتقام من الحزب، الذي كان يسخر من مبنى فرعه الجديد ويصفه بمقرّ للغستابو يعيش فيه أناس يكرهون الجمال.

حماس نزار للمشروع انتقل بحمّى هستيريّة لجميع أصدقائه، بدأ الجميع يصمّم مفروشات لائقة في المكان الخيالي الذي رسمه ميشيل في ليالي باريس الباردة. لم يصدّق معجزة اكتمال صورة الشيخوخة التي تليق به وبصديق عمره نزار، عائلة كاملة تعتني بطفل صغير، تربط له شرائط شعره الملوّنة، إن كان ذكرًا سيهزم وجوده قوّة الذكورة لصالح الأنوثة، التي كان يحدّثه عنها زوجه الفرنسي الذي تركه مطلّقًا ليلحق بشابّ برتغالي لم يتجاوز عمره الثلاثين سنة يعمل مع سيرك روسي. كان يحدّثه عن الأنوثة التي تهزم كلّ قوّة العالم وبطشه حين كان يريد امتداح طبخ ميشيل الحلبي. قال لنزار وهما ينظران إلى القمر: نعم عائلة كاملة، أم تطبخ لطفل رائع لصيادَي أسماك يعودان من البحر فجرًا بغلال وفيرة.

بقي رشيد متمسّكًا بالعيش في منزلنا، لم يستمع إلى نزار يحاول إقناعه بقيادة الفرقة الموسيقيّة والعودة إلى العمل والعيش في منزله الذي سيتركه له ويغادر إلى منزله الجديد في كسب. قرأ في عينيهما ما كان يخشى منه، فوجئ بلهجته يسأله بقسوة عن سوسن، لم تقنعنا حجُجها حين خرجت من المنزل مع حقيبة صغيرة تاركة وراءها كلّ أشيائها. كانت تنظر إلى المنزل كأنّها تغادره للمرّة الأخيرة، لم تجب عن أسئلتنا، تأخّرنا في التصرّف كعائلة، قالت: رشيد لم يفكّر بنا حين كان يفكّر بالموت في شوارع بغداد، ولم تذكر أمّي، كأنّها لم تكن يومًا موجودة في حياتنا. قالت إنّها ستسافر إلى باريس مع ميشيل ولن تعود قبل عشر سنوات، طلبت نسيانها وتمزيق صورها،

شتمتْ أبي وأمّي الميتة ولم تتوقّف عن الثرثرة، تبحث عن مبرّرات لمغادرتنا دون إحساس بالذنب. كانت سوسن الوحيدة التي يفتقدها رشيد وهي تغادر حياته للأبد بكلّ قسوة.

استرخى رشيد في سريره وفكّر بأنّ سوسن لن تحزن إن حصل له مكروه، أعجبته فكرة العائلة التي لا تكترث لموت أحد أفرادها. حقيقة الحزن العائلي كذبة كبيرة نحتاج لتصديقها كي لا نمزّق دفاتر العائلة وحرق شجرة الأنساب. حاولنا نحن الاثنان تخيّل فكرة حياتنا الجديدة، طلب منّي رشيد أن لا نتعامل معه على أنّه مريض، وهو في غاية السعادة لكلّ ما حدث، مبتهجًا أكثر من أيّ زمن مضى بموت أمّي أثناء غيابه في العراق، حاول لملمة تفاصيل يوم وفاتها، اختلطت ذاكرته بالكثير من الأشياء. ضغط على ذهنه وتذكّر أنّه في ذلك اليوم من حزيران ٢٠٠٤ كان في السجن العسكري يشتاق إلى سوسن ويفكّر بحزنها الشديد على موته تحت التعذيب. كان يفكّر أيضًا بمقطوعات موسيقيّة تقيه من الجنون، تدخل فيها الكمنجات بطيئة يشاركها بيانو خافت كصوت بعيد قادم من المجهول. اكتشف أنّه في يوم موت أمّي كان يدّعي نسبه لعائلة وأمّ أخريين. لم يؤرقه الاكتشاف، بقي في غرفته ولم ينهض من سريره أيّامًا عدّة، اكتفى بالحديث مع نزار بضعة كلمات، تمدّد كجثّة فاقدة الرغبة في الحياة، هاجمته آلاف الصور الباردة، صور رفاقه المجاهدين الذين فوجئوا في ليلتهم الأولى بعد وصولهم إلى بغداد بأنّهم صفقة، وبأنّ أحدهم قبض ثمنهم.

ضائعًا بين اليقين والشكّ، بين الصور والعلامات الموسيقيّة لمقطوعات يريد كتابتها تتحدّث عن الموت والخيانة، عن طعم

الأصفاد والسياط في السجون الأميركيّة، عن طعم الأسى في عيون رفاقه ينظرون إليه كجاسوس حقير تافه، يعزف الموسيقى لإمتاع محتلّين.

راودته الصور، اختلطت مع صور باهتة لأب مفقود وضائع في مدن باردة، وأمّ تستجدي الموت. كلّ شيء اختلط ببرودة الموت، الذي عاد إليه مرّة أخرى كخلاص لا يمكن الوثوق بغيره. شعر بالراحة حين تراءت له صفحة الموت بيضاء لا تلوّثها أيّة أوهام عن الحياة والموسيقى. استغرب تعلّقه بالحياة حين كان الموت قريبًا منه إلى درجة لا تصدّق. سأل نفسه هل عاد كلّ هذه المسافات واخترع قصصًا صدّقها الجميع من أجل قبر تزوره عائلة غير مكترثة؟ لم يتركه إحساسه بالدفء قرب سوسن لحظة واحدة، حسم خياره أنّه عاد من أجلها، من أجل تشمّم عطرها القديم. حين احتضنته بحث عن ذلك العطر القديم، أصيب بالإحباط، لم يتشمّم سوى رائحة جسد منهك، يفوح برائحة تشبه رائحة التين اليابس.

يأتيه نزار بالطعام إلى سريره، يفتح النافذة ويحدّثه بحماس عن مقطوعة يؤلّفها تتحدّث بحركات سريعة عن روعة الحياة ومجدها، مستلهِمة من اختلاط الأصوات في سوق المدينة لازمةً أساسيّة، يغريه بمشاوير للغداء في كفر جنّة والسير لساعات في جبال كسب وغابات صنوبرها الرائعة، يحدّثه عن المنزل الجديد. يهزّ رشيد رأسه، يلتهم الأطباق التي يعدّها نزار بذوق ويسأل ببرود عن سوسن. يغفو من جديد، لا يعرف أحد أحلام يقظته التي تملّكته، سلالم يصعد عليها القتلى ليرموا أنفسهم إلى المحرقة، شباب وجوههم نضرة تقطّع أُصابعهم بسواطير حادّة ويرمي بها جلّادون

إلى بحار أسيد، يذوبون ولا يبقى منهم أيّ أثر. تذكّر بأنّه لا يحلم بالنساء، ومغامراته القليلة لم تكشف عن رجولته.

تذكّر لياليه في معسكر بغداد حين حاصرته الأحلام الجنسيّة. تأتيه قبل النوم صور نساء عمل قربهنّ لسنوات ولم يثرنه، هاربًا من صورة سوسن، التي تأتيه كما يتشهّاها، رائعة كأنثى حصان، بثوب أبيض شفّاف كانت ترتديه قبل مغادرتها إلى دبي حين كانت عاشقة منذر، تجلس في سريرها الذي تفوح منه عطور النظافة، يهرب منها ويتمنّى الموت بسبب آلام أحلامه التي تشهَّى فيها سوسن والتي بدت له سمينة أكثر ممّا يجب في الآونة الأخيرة، تقضي وقتًا طويلاً تتحدّث عن رغبتها بطفل تركض معه على شاطئ بحر اللاذقيّة.

قبل عيد ميلادها الأربعين قبلت سوسن الخروج مع رجال مشاريع عرسان، يبدؤون جلوسهم بإملاء شروط تبدأ ولا تنتهي، تتملّكها لحظة ضعف عاطفي، تنظر في وجه محدّثها، تشعر بالغثيان من الأفواه التي تتحدّث بثقة الذكورة، تتمالك نفسها وتفكّر بأنّها امرأة قد اقتربت من الأربعين قضت حياتها في أوهام لا تنتهي، تحاول إيقاف الزمن لكنّها تُصدم باستمرار مروره من بين أصابعها.

لم يعد سيرها على الرصيف يثير رغبات الرجال، تشبه خادمات البيوت وموظّفات القطاع العامّ الكئيبات، حتى جان فاجأها، منذ زمن بعيد لم يعد يستدعي أيّة امرأة تشبهها. صورة حاضرها تفسد عليه المتعة، تجعل قضيبه رخوًا، تستغرب اللهجة المتشفّية لجان الذي أصبح رجلاً هرمًا، لم يعد ذلك الرجل الرومانسي الرائع الذي حلمت به مع رفيقاتها طالبات مدرسة المحبّة، ومارسن العادة السرِّيّة لأوّل مرّة على صورته، يقترب منهنّ

في أسرَّتهنّ بلطف، يقبّل سررهنّ وحلماتهنّ قبل إيلاجهنّ برقّة تتصاعد إلى رجولة غير متناهية.

قبل مغادرة رشيد إلى العراق، قالت لجان بلؤم إنّه أصبح رجلاً سخيفًا لا همَّ له سوى صرف نقوده على ساقطات من الدرجة الثالثة. في اليوم التالي ندمت، واعتذرت منه بكلمات مؤثّرة في الجلسة القادمة التي تَصارَحَ فيها الاثنان مستعيدَيْن صداقتهما البريئة، عادت للدخول إلى غرفة أمّه التي تجاوزت التسعين وفقدت بصرها نهائيًّا، ورغم حركتها الثقيلة لم تفارقها التعليقات الذكيّة ولا المرح، تحدِّث سوسن عن تقدّمها باللغة الفرنسيّة التي يعطيها فيها دروسًا المسيو جان ابنُها، ويترجم لها بضعة نصوص لكتّاب سرياليين يشبهون صديقها أورخان ميسر.

رجته سوسن قبول دعوة العشاء في منزل نزار، الذي قال إنّ رشيد يحتاج إلى الضجيج والحبّ ليخرج من صمته.

وصل جان مصطحبًا معه إحدى الفتيات، التي أبدت لطفًا كبيرًا كخطيبة للمسيو جان. توزّعنا جميعًا حول المائدة، جلس رشيد قرب سوسن، التصق بها. بعد كؤوس نبيذ عديدة أفلت لسان جان وتحدّث مع رشيد عن أشياء غريبة، عن نصوص موسيقيّة اكتشفها كاهن فرنسي في إحدى كنائس مدينة آرل كتبها كهنة نفّذوا انتحارًا جماعيًّا في بدايات القرن السادس عشر وحاولت الكنيسة التستّر عليه، وقال: تسمّموا بأغذية قديمة كانت محفوظة في أقبية الكنيسة منذ خمسين عامًا.

في تلك الليلة، كان كلّ شيء مفكّكًا. نزار جامل الجميع، قدّم النقانق مطبوخة بمرقة الذرة المطحونة مع زيت الزيتون، عزف

مقطوعات كلاسيكيّة شاركه رشيد عزف إحداها. تصفيقنا الحارّ مشجّعين لم يقنعه بإكمال بقيّة السهرة معنا، اعتذر وعاد إلى غرفته، ساد صمت عميق، تحدّثنا بهدوء شديد حتى ساعة متأخّرة من الليل. كانت سوسن ممتنّة لحضور جان متغاضية عن مرافقته لهذه المرأة المتثائبة.

تساءلت عن رغبة سوسن لعودتنا مرّة أخرى إلى صورة العائلة التي هجرتها: ماذا تفيد القبور بعد التلاشي والموت؟ هكذا صورتنا التي صممت سوسن بعد عودتنا من رحلة ميدان أكبس على إحيائها من جديد، تريدنا بطفولة قابلة للتذكر، وحياة قابلة للعيش تحتفي بمفاجآت الحياة السخيفة، كأن يقرع باب منزلنا خطيب يأتي بأمه، ويطلب يد أختنا سوسن المرحة بعد امتداح سمعتنا العطرة كأبناء مربية كبيرة، أو كأن نستمتع بترقية في وظيفتنا، أي شيء يجعلنا نشعر بالأمل، ككل العائلات التي تتعالى زغاريد نسائها لأي حدث سعيد.

مضت أزمنة سوسن، كما مضت أزمنة أمّي، ما تبقّى لا يكفي للندم، كانت أمّي تكره وجود سوسن وحيدة معها في الغرفة، تنظر إليها كإرث ثقيل تريد رميه عن ظهرها والتحرّر منه، وبالمقابل سوسن تخاف من صورتها المقبلة حين اكتشفت متأخّرة أنّها تشبهها إلى درجة كبيرة، العينان اللوزيّتان بسوادهما ورموشهما الطويلة ذاتها، الجلد الناعم والقامة المعتدلة. تفكّر بالهرب من مستقبلها هذا. لا يمكن أن تكون بائسة إلى هذه الدرجة، تحمل حقيبتها وتسأل سلمى مرّة أخرى عن السعادة، ثم توبّخها على الرجال السخيفين الذين تدعوها للتعرّف إليهم. لا تريد الاعتراف أنّ ما تبقّى منها لم يعد يغري الرجال، ثدياها يذبلان وبطنها يتراخى

جلده، رغم كلّ المشدّات والحمية الغذائيّة التي تتّبعها. تفكّر بهبة، التي ما زالت رشيقة وحلوة كورقة خسّ، تحلم بالرخاء والحبّ من جديد مردّدة: الحبّ العظيم لا يمكن أن تجده إلّا على قارعة الطريق. تقسم أنّ الرجل الذي سيستطيع تحريك مشاعرها سيرى الجنّة بأمّ عينيه، حين تتذكّر أحلام يقظتها تكتئب، تفكّر برجل طيّب تنجب منه أطفالاً على عجل قبل بلوغها الأربعين، لم يعد لديها وقت كافٍ لإنجاب طفلين، تقول لنفسها: سأكتفي بطفل. تتنهّد كأميرة خسرت عرشها في لحظة لهو، تعود إليها تلك النظرة القاسية. لن تكون امرأة مهجورة كأمّي، ولا ضائعة كرشيد، ومستسلمة لقدرها مثلي، تريد أن تكون النسخة الأنثى من خالي نزار الذي بدأ يجالسها طويلاً ويتحدّثان وهما يحضّران العشاء. بدأت سوسن تقتنع أنّ الأحلام تعشّش في الأمكنة، لا نستطيع حملها معنا في ذاكرتنا، كما لا نستطيع استعادتها كما حدثت، فالأحلام لها قوّة الشمّ الذي يتراجع مع مرور الزمن.

سوسن لم تعد تكترث بنا، غادرتنا للمرّة الأخيرة. لملمت على عجل بعض ثيابها، قبّلت رشيد الذي ما زال يستعيد كلّ ما حدث معه في الحرب والسجن. كان ميشيل ينتظرها في سيّارة ستوصلهما إلى مطار حلب ليغادرا إلى باريس كزوج وزوجة.

تحدّث رشيد عن تجربته بكلمات حزينة، وصف ضعفه أمام الموت وجبنه أمام المحقّقين، عكس رفاقه، الذين جاهروا برغبتهم في قتل كلّ الجنود الأميركيين في أيّ شبر من بلاد الإسلام. صمت ولم يخبرنا عن ثقل إحساسه بالذنب واختلاط عوالمه غير الثابتة، أحيانًا ينهض ويتوضّأ، يرفع صوته بالأدعية، يغمض عينيه متوسّلاً

من الله الرحمة والغفران، يجلس على سجّادة الصلاة كرجل عجوز يترك العنان لدموعه تنهمر بتقوى، أحيانًا أخرى يرمي بالقرآن ويمزّق صفحاته مردّدًا: من يطلب منّا عبادته يجب أن يكون أكثر رحمة وعدالة، تجحظ عيناه ويغرق في نوبات هستيريا صامتة. شارك خالي نزار العزف في ثلاث حفلات خاصّة أقامتها نخبة من محبّي الموسيقى الكلاسيكيّة في منزل أحد القناصل الأوروبيين. الجوّ المنعش في المنزل وصمت الجمهور أعاده قليلاً للتفكير بالخلاص عبر الموسيقى. أخرج مقطوعاته التي لم يخبر نزار عنها، حاول عزف إحداها، لم تعجبه ولم يمزّق نوتاتها، الشيء الوحيد الذي يشعره بالسكينة جلوسه لساعات طويلة قرب سرير أمّي الفارغ، المكان الذي نريد الهرب منه يمنحه الطمأنينة. فكّرت حين رأيت وجهه الأصفر وعينيه الفارغتين، بأنّه يريد الجلوس قريبًا من الموت ليراقب كيف صعدت الروح وانسلّت من الجسد. كنّا نظنّه يعاني من صدمة الحرب، نردّد: سينسى ويعود إلى مشاريعه وأحلامه التي كثيرًا ما تحدّث عنها باقتضاب، عن رغبته بالهجرة والعيش في مكان لا يقرع فيه الباب جيران ليستعيروا قليلاً من الملح، لا يرى نسوة يفصصن البزر ويجلسن أمام الأبواب يراقبن المارّة ويعلّقن بوقاحة على كلّ شيء. يتحدّث بإعجاب عن حياة الموسيقيين الأوروبيين الذين يعزفون في مسارح نظيفة، لا يتدخّل في عملهم حزبيّون، يحبّون الخطابة ويتحدّثون منذ الأزل عن أعداء وهميين، كالإقطاع والبورجوازيّة والإمبرياليّة، أصبح ذكرهم مثيرًا للشفقة كما الطبقة العاملة، التي أصبح أفرادها حفاة.

يتذكّر سنواته الذهبيّة، التي ينام فيها نهارًا ويذهب إلى العمل

ليلاً، لا يضطرّ لرؤية الشوارع المزدحمة ببشر يتساءل دومًا عن سرّ عجلتهم. فكّر بأنّ جلوسه أمام الشيخ أبو بكر ويقينه أنّه وجد خلاصه، كان سبب اضطرابه، لم يندم على قتاله في العراق، لكنّه تذكّر ضيقه من النوم في مهجع يضمّ خمسين مقاتلاً يضطرّ لمشاركتهم طعام الصباح. تذكّر أنّه في أيّام الجنديّة كان شابًّا صغيرًا فرحًا ببوق الصباح والمزاح مع رفاقه الجنود. وبعد أسابيع قليلة بدأت تعود إليه نوبات الهذيان والرعب من وجوده كفرد في قطيع، هل يمكن للمرء العيش بمفرده؟ كان رشيد يعتقد أنّها السعادة كاملة، يتحمّس لهذه الأفكار لكنّه يشعر بحسرة حين يتذكّر تعلّقه برائحة الأسرَّة الغامضة التي ظنّ أنّها تستطيع منحه السعادة الأبديّة.

قبل ذهابه إلى العراق قضى معظم وقته في غرفة أمّي، يبدو خادمًا محنِيَّ الظهر، ينتظر إشارة من أحد ليلبّي أيّ أمر. أمّي لم تطلب أيّ شيء سوى الموت، تشكّت من صعوبة التنفّس، تحدّثت عن الهواء الثقيل الذي يتسرّب إلى رئتيها كأحجار ثقيلة جارحة تشعر بقرقعتها، كانت تسأل رشيد هل للهواء صوت؟

خزانتها المليئة بأثواب قديمة كانت ذات يوم أنيقة تثير غيرة نساء كثيرات، تتسرّب منها رائحة نفتلين هبّت في وجه رشيد الذي فتحها. فوجئ بفئران ميتة، فارغة ومتخشّبة، يبدو أنّها ماتت منذ زمن بعيد، لم ينتبه أحد إليها. يعيد تنظيف الخزانة، يحرق الفئران الميتة، يعيد ترتيب الأثواب المهترئة، يمسح جسد أمّي بالكولونيا، ويرشّ زوايا غرفتها بدواء قاتل للصراصير. في نوبة صحو طلبت منه أخذها إلى منزل ناريمان صديقتها، ساعدها على الاستحمام، انتقى لها جاكيتًا طويلاً قديمًا من الجوخ سَلِمَتْ أطرافه من قضم

الفئران، وثوبًا جميلاً من الأثواب التي أحضرها نزار. طلب منّي رشيد مرافقتهما، خرجنا كأيّ أمّ وابنيها يتفقّدون أقرباءهم، فوجئَتْ بما حدث في حارتها، سألت رشيد عن شجرة التوت، التي لم تعد موجودة منذ أكثر من عشرين عامًا.

فتحت ناريمان لنا الباب، فوجئت بنا، قبَّلتنا بحرارة وأخبرتنا أنّ أمّها ماتت وبقيت وحيدة، تربّي ابنة أخيها الذي تركته زوجته بعد إصراره على العيش قرب قبر النبي معتكفًا في غرفة فقيرة قدّمتها له جمعيّة خيريّة ليتقاسمها مع رجل أفغاني يخيط الأثواب لفقراء ترعاهم الجمعيّة. منزل ناريمان حافظ على بعض إرثه القديم، رغم قدم كنباته وستائره، إلّا أنّ رائحة النظافة تفوح منه. قدّمت لنا قهوة وحلويات، تنظر بشكّ إلى أمّي التي بدت امرأة طبيعيّة بعد أن اعتذرت عن عدم قيامها بواجب العزاء. تفاءلنا برؤية أمّي تستعيد مع ناريمان ذكريات طفولتهما وتضحكان بخجل. ابنة أخ ناريمان تركتنا وبدت لي فتاة مدلّلة سخيفة لا داعي لمجاملتها. كنت أفكّر، أمّي تستحقّ منزلاً كهذا لتقضي فيه شيخوختها. أصابتني لوثة غريبة حين فكّرت أنّنا لم نعد أطفالاً واقتربنا من الشيخوخة أيضًا، جميعنا سندخل عقدنا الخامس بعد سنوات قليلة، أصبحت القطارات ذكرى قديمة نروي قصصها ناقصة، وحين نرى قطارًا قديمًا نقول دون أيّ شعور: هذا من طفولتنا. راقبت الوقت القليل الذي قضيناه في منزل ناريمان، جميعنا دفعنا ثمن تَوازي حياتنا مع حياة الحزب. فكّرت ماذا لو أنّنا عشنا في زمن آخر، كالزمن الذي تتحدّث عنه أمّي وأمّ جان، أو الزمن الذي سيأتي بعد مائة سنة، ماذا سيختلف؟ خوفنا الذي عشعش في أضلاعنا جعل منها مكانًا

سهلاً لتلد الفئران في جنباته. أصابني الرعب حين تخيّلت جسمي يعجّ بفئران صغيرة.. صغيرة، شغلت نفسي بتأمّل لوحات القناويشة التي فاخرت أمّي وناريمان لأزمان طويلة أنّهما تركتا لكلّ واحد من إخوتهما لوحة كبيرة مترين بمتر لتزيّن صالونات منازلهم. في طريق عودتنا فكّرت بأمّي التي غفت على ذراع رشيد كطفلة صغيرة.

قضيت ليلتي مع نزار نستمع إلى رشيد يرمي عن صدره بثقل ذكرياته مع العائلة، يرمي بأفكاره وأحلام يقظته التي لم تتركه منذ عودته من العراق. تحدّث بصوت ضعيف وأفكار مشتّتة، سرعان ما تجمّعت كلّ تفاصيلها واستقام سرده. استعاد طعم غربته وسط مجموعات مقاتلين يهتفون ويتبادلون التهاني باقتراب موعد لقائهم مع مبتغاهم، الجنّة. استغرب رشيد توْقهم للموت، الذي فكّر فيه لسنوات طويلة، فكّر ما الفرق بين الموت من أجل قضيّة أو في حادث سيّارة؟ هل للموت طعم؟ كان نزار يهزّ برأسه مشجّعًا صديق عمره لرمي أحماله والتحرّر من الأفكار التي أثقلت روحه.

يتحدّث رشيد بثقة عن الموت بطعمه المختلف، يسهب في مديح الموت الإرادي، حين يختار الشخص اللحظة المناسبة لإنهاء حياته، ويتحرّر من الكوابيس ويعاند الأقدار، يتساءل ببساطة: لماذا يجب العيش كلّ هذه السنوات المكرّرة؟ وأيّ مصير بائس ينتظر الناس الذين يشيخون دون أن يلتقطوا السعادة؟

مرّات قليلة رأينا رشيد يتجوّل مع نساء، أو يتحدّث ككائن طبيعي عن رغبته في عائلة، أطفال يمرضون ليلاً ويحملهم إلى أقرب مستوصف، ويكبرون في غفلة من الزمن، يذهبون إلى المدرسة، يفكّرون بقتل الأب والتمرّد على الأفكار القديمة. كان

اكتشافًا مذهلاً بالنسبة إليّ أنّنا جميعًا لم نفكّر بعائلة، كأنّ وضعنا كأناس وحيدين هو شيء طبيعي لا يستدعي التساؤل، نظنّ جميعًا أنّ سوسن هي الوحيدة التي ستنجب أطفالاً ونحن سنكون في أفضل الأحوال شركاء في تربيتهم وتدليلهم. حاولت رسم صورة تلك العائلة المفترضة، لم تسعفني أيّة صورة تليق بسوسن، اكتشفت بأنّني لا أعرف صور تلك العائلة. مضت كلّ هذه السنوات وما زلنا نحلم بجلوسها الهادئ إلى طاولة الغداء، نتباحث بشؤون تافهة كجمع بعض الأموال من مدّخراتنا القليلة يستدينها رشيد ويشتري غرفة نوم وطقم كنبات لمنزله الذي اشتراه بقرض من البنك العقاري، لكن وجه رشيد الصافي وكلماته الواضحة عن الموت، شتّتا الصور القليلة التي استطعت تشكيلها في حلم يقظتي. نعم نحن ما زلنا جميعًا نحلم بالعائلة.

ساعات طويلة قضيناها قرب رشيد، الذي أعاد رسم وجوه رفاقه، تحدّث عن بغداد، أعاد عشرات المرّات مشهد نهر دجلة وجثث مجهولين تطفو على صفحته ولا أحد يكترث بعبورها نحو المصبّ. لا أحد لديه وقت لدفن أموات، يجب أن تكون لك عائلة لتدفن، ويكون لقبرك شاهدة يدافعون عنها. بقيت الجثث الطافية على صفحة النهر تعيد أسئلته الأولى عن أسباب الموت، قتل هؤلاء المجهولين لأسباب مختلفة في مكان لم يعد يبحث عن سبب للموت، يحاول التمسّك بالرمق الأخير من الحياة، قد يكونون قتلوا نتيجة ثأر عشائري، أو الجنود الأميركان قتلوهم ورموا بجثثهم في النهر، أو نتيجة نزاعات طائفيّة وعمليّات انتقاميّة، يكمل رشيد: في النهاية لا يهمّ، ما دامت فكرة الجنّة وهمًا يحتاجه الضعفاء

ليكتسبوا قوّة تعينهم على عبور البرزخ واللحظة الفاصلة بين الحياة والموت، لحظة واحدة بين آخر شهيق وآخر زفير، بعدها يسود سكون عميق تنتهي فيه الأسئلة. ثم أضاف: هذا هو الموت وليس اكتمال الذكريات.

نهض فجرًا وسار بثبات إلى غرفته. كان نزار غارقًا بصمت في كرسيّه، جرحته الأسئلة التي ألقاها رشيد في وجهنا ببساطة من يلفظ نواة خوخ من فمه. حاصرني ذلك المشهد الفظيع يوم استقبلنا خبر موت الرئيس في محطّة مهجورة. كنت أنظر إلى سوسن التي تبكي جلّادها، وخطر لي للحظة أن أفلت ببكاء حارّ لأنّي تذكّرت أمّي الميتة.

نزار يبكي بصمت والفجر يتسلّل ببطء، أنين متقطّع يشعرني أنّنا حرّاس أرواحنا التي تجاهد كي تنسلّ من الأجساد. أشعر بضيق من رائحة المنزل العطنة، وقبل نهوضي إلى سريري سمعت نزار يقول بهدوء: رشيد يريد أن يموت، كأنّه يقول لي ببساطة أن أتدفّأ بشكل جيّد فبرد كانون ينخر العظام.

فتحت باب غرفتنا وأصابني دوار، جثّة رشيد متدلّية من السقف كلمبة كهرباء ملوّثة بخراء الذباب، رآه نزار من فتحة الباب وتعالى صوت نشيجه. كان يعرف بأنّه سيموت، وانتظر الفجر كي يتأكّد بأنّ رفيق عمره قد ربط الأنشوطة بشكل جيّد، كي لا يترك مجالاً للشكّ بأنّ الموت بسيط كدلق كأس ماء على أرض جافّة.

دمشق ـ أيوا ـ هونغ كونغ

Hong Kong – Iowa – Damascus

خريف ـ ٢٠٠٧ ربيع ٢٠١٣

"لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة" ليست مجرّد رواية بل هي حفر عميق في آليّات الخوف والتفكّك خلال نصف قرن، وهي أيضًا رواية عن مجتمع عاش ـ بشكلٍ متوازٍ ـ مع البطش والرغبات المقتولة، عبر سيرة عائلةٍ اكتشفتْ أنّ كلّ أحلامَها ماتت وتحوّلت إلى ركامٍ، كما تحوّلت جثّةُ الأمّ إلى خردة يجب التخلّصُ منها ليستمرّ الآخرون في العيش.

رواية مكتوبة بحساسيّة صادمة ولغة رفيعة تأخذ بقرّائها منذ الصفحات الأولى إلى أسئلة أساسيّة وتضعهم أمام حقائق خراب الحياة العربيّة في ظلّ الأنظمة التي استباحت حياتهم ودمّرتْ أحلامَهم.

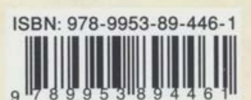
إنّها رواية عن ورطة الحياة بأعمق معانيها، والخوف والموت الإنساني.

صدر لخالد خليفة عن دار الآداب:

دفاتر القرباط ـ مديح الكراهية

(اللائحة القصيرة لجائزة Booker)

ISBN: 978-9953-89-446-1



دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١

٧٩٥١٣٥/ ٠١

ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف نجاح طاهر